



الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي



شرح المناجيات الخمس عشرة

الجزء الأول

تدوين: كريم سبحاني
ترجمة: حيدر الحسيني
مراجعة وتقديم: محمد الربيعي



دار المعارف الحكيمة
Dar Al maaref Alhikmah

ثمن قراءة الكتاب عشر مرات ذكر اللهم صلي على محمد واله
محمد وعجل فرجهم بنية تعجيل الفرّج

شرح المناجيات الخمس عشرة
الجزء الأول

شرح المناجيات الخمس عشرة

الجزء الأول

آية الله الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي

تدوين

السيد كريم سبحاني

ترجمة

السيد حيدر الحسيني

مراجعة وتقديم

الدكتور محمد الربيعي

© جميع حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى

ISBN 978-614-440-151-4

[٢٠١٩م - ١٤٤١هـ]



العنوان: لبنان - بيروت - سان تيريز - سنتر يحفوفي - بلوك c - ط ٣
تلفاكس: ٠٠٩٦١٥٤٦٢١٩١ - mail: almaarf@shurouk.org

تصميم:

علي بزي

إخراج فني:

ماجد مصطفى

طباعة
DB UK
009613 336218
info@dboukart.com





الفهرس

- مقدمة بقلم الدكتور محمد الربيعي ٩
- المقال الأول: دراسة في معنى المناجاة ومكانتها في التعاليم الدينية ٢٥
- المقال الثاني: تجليات الرضوان الإلهي والمناجاة مع الله ٣٥
- شرح مناجاة التائبين ٤٧
- المقال الثالث: سبب اعتراف المعصومين عليه السلام بالقصور ٤٩
- المقال الرابع: مكانة التوبة ومراحل تحققها ٦٥
- المقال الخامس: أداء التوبة ٧٧
- المقال السادس: تحليل موانع التوبة ٨٩
- المقال السابع: البحث عن الرحمة الإلهية (١) ١٠٣
- المقال الثامن: البحث عن الرحمة الإلهية (٢) ١١٧
- شرح مناجاة الشاكين ١٣٥
- المقال التاسع: الجهاد الصعب والمستمر للإنسان مع نفسه الجامحة (١) ١٣٧
- المقال العاشر: الجهاد الصعب والمستمر للإنسان مع نفسه الجامحة (٢) ١٥٣
- المقال الحادي عشر: حرب الإنسان الشاقة والمستمرة مع الشيطان ١٦٣



- المقال الثاني عشر: القلب المريض وطُرق علاجه ١٨٣
- شرح مناجاة الخائفين ١٩٩
- المقال الثالث عشر: الدور البناء للخوف من الله (١) ٢٠١
- المقال الرابع عشر: الدور البناء للخوف من الله (٢) ٢١٥
- المقال الخامس عشر: بحث في رحمة الله اللامتناهية ٢٣٣
- شرح مناجاة الراجين ٢٤٥
- المقال السادس عشر: حقيقة رجاء الله ودوره البناء ٢٤٧
- المقال السابع عشر: النظام البناء والتأثير الواسع للخوف والرجاء في المؤمن ٢٦١
- المقال الثامن عشر: أمل المؤمن وحبّه للخير وطلبه للسعادة ٢٧٣
- المقال التاسع عشر: مطالب أولياء الله العالوية ٢٨٧
- شرح مناجاة الراغبين ٣٠٧
- المقال العشرون: البحث عن السموّ وكمالات الآخرة ٣٠٩
- المقال الحادي والعشرون: محفل الأنس بالمعبود وجوار قربه ٣٢١
- المقال الثاني والعشرون: نسيم الرحمة الإلهية (١) ٣٣٧
- المقال الثالث والعشرون: نسيم الرحمة الإلهية (٢) ٣٥٣



مقدمة

بقلم الدكتور محمد الربيعي

مما انفرد به الإسلام عن غيره من الأديان غزارة الأدعية والمناجيات في منظومته العبادية، وإذا ما تعمّقنا وتوسّعنا في هذه الظاهرة وجدنا أن ذلك تناغمٌ من لدُنِ هذا الدين السماوي مع العطش الروحي الذي يعيشه الإنسان بطبعه وفطرته الأولى، فكل إنسانٍ منّا إذا رجع إلى قرارة نفسه



وتمعّن فيها قليلاً لمس ذلك العطش وتلك الرغبة في الانشداد إلى المطلق والتعلّق به ومخاطبته والتحدّث إليه، ولا ينكر هذه الرغبة إلا مكابر أو معاند أو من انشغل بما أغفله عنها وحجبها بحجابٍ سميك منع عين باصرته من مشاهدة حقيقة نفسه وذاته، فعليه الرجوع إلى مكامن التماس الفطرة الأولى والعود إلى طبيعته التي خُلق عليها بممارسة الرياضات الروحية والمداومة على قراءة الأدعية والأذكار بقلب محزون وعقل وإعٍ ورجاءٍ كبيرٍ بالله المتعال، لعلّه تجذبه جاذبة فيض إلهي وتشمله العناية الربّانية في رجوع ذلك الشعور الأخاذ والحالة الروحية الطيّبة التي يتمنّاها كل إنسان.

ومما هو ناجع ومجرّب في التأثير على الحالة الروحية وانتكاس الشعور المعنوي والنشاط الروحي والانجذاب تجاه العبودية والخلوص



والعرفان، المواظبة على قراءة الأدعية الواردة عن المعصومين عليه السلام أو استماعها من قارئ يقرأها بصوت حزين مستكين، فإن هذا مما يحيي القلب ويوقظ الضمير ويعيد حالة البهجة والنشاط الروحي والمعنوي.

ومن الفرق الإسلامية جمعاء امتازت مدرسة أهل البيت عليه السلام بوفرة الدعاء وتنوع ألوانه وأشكاله، حتى غطى كل جوانب الحياة، بل كل حالات الإنسان الروحية، من الخوف والرجاء والمسكنة والرغبة والخضوع والخشوع والفرح والسعادة والطلب والتوبة والاستغفار وغيرها من الحالات التي يعيشها الإنسان في مختلف آنات حياته، وحسب الدعاء أنه يمثل امتثالاً للأمر الإلهي في قوله عز وجل ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(١)، وفيها الابتداء الإلهي بدعوة عباده للدعاء والابتغال إليه سبحانه، وهو متمم لقوله تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾^(٢)، حيث نرى أن الباري سبحانه يبادر إلى الابتداء مخبراً الرسول ﷺ: إذا سألك عبادي عني فقل لهم: إني قريب أجيب دعوة من يدعوني، وفيها من اللطائف ما لا يحصى؛ فقد تكلمت بصيغة المتكلم المفرد، وهو مُشعرٌ بالقرب والتودد، وفيها الابتداء الإلهي والإقبال على عبده وهو منتهى الرأفة والموودة الإلهية، ثم انظر إلى قوله ﴿قُلْ مَا يَعْبُورُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾^(٣)، وما دلّ عليه من قيمة بالغة للدعاء.

هذا ومما يمتاز به الدعاء في مدرسة أهل البيت عليه السلام أبعاد ثلاثة أساسية^(٤) هي:

(١) سورة غافر، الآية ٦٠.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٨٦.

(٣) سورة الفرقان، الآية ٧٧.

(٤) ومن فوائد الدعاء: الحصول على الهدوء الروحي، قضاء الحوائج، دفع البلاء، سفاء الأمراض.

١. البعد المعرفي الفكري

١١

وأقصد به المنهج التعقلي الذي يخاطب العقل بما يملكه من أدوات معرفية تمكّنه من معرفة الأمور وموازنتها وتفحصها تفحصاً ذهنياً عقلياً خالياً من الرغبات والنزوات والتمايلات النفسية المختلفة، وهو ما نراه حاضراً بشدة في كافة الأدعية الواردة عن أهل البيت عليه السلام، فهي تخاطب العقل كما تناغم القلب، ومن يقرأ الأدعية الواردة عنهم يجد فيها المسائل العقائدية والاجتماعية والتاريخية والسياسية وغيرها من المسائل التي تهم الإنسان وتحدّد مصيره في هذه الدنيا.

بل إن ما لم يقله الأئمة عليه السلام في أسلوب الحديث قالوه في أسلوب الدعاء؛ لأن الحديث كان مع الناس، وهم عليه السلام مأمورون بأن يكلموا الناس على قدر عقولهم، وأما الدعاء فهو حديثهم مع الباري عز وجل، فلقد «كان الأئمة الأطهار عليه السلام يوضّحون كثيراً من المسائل عن طريق الأدعية، فهناك فرق كبير بين أسلوب الأدعية والأساليب الأخرى التي كان يستعين بها هؤلاء العظماء في بيان الأحكام؛ إذ غالباً ما كانوا يوضّحون المسائل المعنوية ومسائل ما وراء الطبيعة والمسائل الإلهية وتلك التي ترتبط بمعرفة الله سبحانه، يوضّحونها بلغة الدعاء، بيد أننا نقرأ هذه الأدعية ونمرّ عليها مرور الكرام دون أن نلتفت إلى معانيها مع الأسف، بل لا نعي أساساً ماذا كان يريد الأئمة عليه السلام منها»^(١).

ويقول العلامة الشيخ حسن زاده آملي: «كل دعاء من الأدعية المأثورة عن أئمة الدين يمثل مقاماً من مقاماتهم الإنشائية والعلمية، ولا

(١) الإمام الخميني، **الجهاد الأكبر**، الصفحتان ٤٣ - ٤٤؛ وأشار إلى ذلك أيضاً في **تقريبات الفلسفة**،

انظر: الجزء ١، الصفحتان ٨٧ - ٨٨، والجزء ٣، الصفحة ٣٦٧؛ **صحيفة النور**، الجزء ٢٠، الصفحتان



يوجد في أحاديثهم ما يوجد في أدعيتهم، وما يستفاد منها من لطائف الشوق العرفاني والمقامات الذوقية والشعورية؛ وذلك لأنهم عليهم السلام يخاطبون في أحاديثهم الناس، فيكلمونهم بما يناسب عقولهم لا بكنهه ما يعقلون هم عليهم السلام... أما في أدعيتهم ومناجاتهم فهم يخاطبون محبوبهم الحقيقي وهو الجمال والجلال والحسن المطلق، ويبثون في حضرته ما في قلوبهم، ويتضرعون له؛ ولذلك فقد كانوا يدعون ويناجون بكنهه عقولهم ويفصحون عن مكنون آدابهم في حضرة صاحب السرّ وبيت الحبّ الخالص وهو البيت المعمور^(١).

ويقول الميرزا جواد ملكي التبريزي: «ليتأمل في أخبار الباب ثم يتفكر في عمل الأئمة عليهم السلام في هذا الأمر وما أنشأوا من الدعوات الجميلة والمضامين اللطيفة، فإنه يجد في ذلك فوق حدود البشر من فنون العلم بأسماء الله وصفاته وما يقتضيه جماله وجلاله وحقّ أدب العبودية مع كلّ فيما يناسبه مقامه وأوصافه وأحواله، وكيفية الاستعطاف والاسترحام ولطيف الاستدلالات في استيجاب عفوه وكرمه وفضله، وعرض مدّة الاعتراف بمقدّس أبواب رأفته ورحمته. ولعمري لو كان للإنسان فكرة أو فطنة لكفاه ما صدر في ذلك من أئمة الحقّ عن كل معجزة في إثبات الرسالة والإمامة... ومن كان له ذرة من معرفه النفس ثم غاص في بحار ما أوردوها من الدعاء والمناجاة يصدّق كثرة ما أودعوه فيها من فنون المعارف وحدّ إعجازها، وأنا العبد المسكين الجاهل لا أجد عشر عشر ما بينوها من ذلك في الأدعية والمناجاة في غيرها من الأخبار المفصّلات، بل والخطب أيضاً، إلا ما كان منها من مخاطبة الربّ تعالى في مقام توحيده وتسبيحه وحمده. وقد تخيلت لهذا المطلب أيضاً سرّاً

(١) حسن زاده آملی، نور علی نور فی الذکر والذاکر والمذکور، الصفحتان ٥٧ - ٥٨.



وحكمة وهو أن الاخبار إنما هي تتكلم مع الناس، والأدعية والمناجاة تكلم مع الله جلّ جلاله، والذي يظهر من العلم عند التكلم مع العالم لا يظهر عند التكلم مع الجاهل».

ثم يضيف (رضوان الله عليه) قائلاً: «وبالجملة هذه الأدعية الواردة عنهم عليه السلام كأنها جواب ما وردَ في القرآن المبين. وبعبارة أخرى: كأنها قرآن مرفوع في جواب القرآن النازل، والقرآن كلام الربّ تعالى ومناجاته مع عبده ورسوله عليه السلام، والأدعية كلام ومناجاة من رسول عليه السلام مع الربّ تعالى، ولا يعرف حقيقته ذلك إلا قليلون، ولأئمة الدين في هذه الأدعية الواردة منة ونعمة عظيمة علينا يعجز عنه شكر الشاكرين، ومن واجب شكر هذه النعمة أن لا يضيعوها بل يجتهدوا في أعمالها وتصحيحها وتكميل شرائطها»^(١).

فأهل هذا الاختصاص من كبار العلماء والعرفاء متفقون على هذه الخصيصة، وهي توفر أدعية أهل البيت عليهم السلام على ما لم تتوفر عليه غيرها من النصوص الواردة عنهم عليهم السلام.

٢. البعد الأخلاقي السلوكي

وهو البعد الذي يعطي لمن يواظب على الدعاء حالة من الالتزام والالتزان والاستقرار السلوكي وتهذيب الأخلاق والتصرفات الجوارحية والجوانحية، ويشدّه دائماً باتجاه تعزيز هذا الالتزام والالتزان، فإن «الالتزام بقراءة الأدعية والمناجاة الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، يُنير ذهن الإنسان ليتعرّف على الصفات الإنسانية المتعالية والدرجات الرفيعة التي يمكن

(١) جواد ملكي التبريزي، المراقبات في أعمال السنة، الصفحتان ١٧٥ - ١٧٦.



أن ينالها، ويُدرك السُّبُل الصحيحة للارتباط بالله تعالى؛ فهذه التعاليم الدينية بما تحمله من قيم إنسانية تجعل الإنسان يتعرّف على بعض الحقائق الإلهية التي تحجبها عنه اهتماماته الماديّة وظروف حياته اليومية، ولا تمنحه الفرصة الكافية للتفكير بها. والمواظبة على قراءة هذه الأدعية والمناجاة تُعطي للإنسان معرفةً بالسُّبُل والأدوات اللازمة لطَيِّ مسيرته التكاملية نحو الرُّقي والتعالى، وتكشف له ما ينفعه ويضره، وتجعله يُدرك أن الحياة الدنيا لا تقتصر على الأكل والشرب والشهوات الماديّة؛ بل تحمل في طيّاتها حقائق إلهيّة تمنح حياة الإنسان هويّتها وتعاليلها الأخلاقي، وترسم شكل حياته الإنسانية والمعنوية.

فمناجاة المحبين مثلاً - والتي تدور كلماتها ومعانيها حول محور محبة الله والقرب منه تعالى - ترشدنا إلى كيفية نيل محبة الله التي تمثل أسمى الصفات الإلهية والإنسانية.

ومن الطبيعي، أن محبة الإنسان إذا ما خلصت لله وملأت قلبه وجميع جوانحه، أصبح فكره وذنه منشغلاً تماماً بذكر الله تعالى، ولن يفكر بأي شيء يُبعده عن ربّه»^(١).

ويقول الإمام الخميني: «المناجاة والأدعية المأثورة عن أئمة الهدى التي تمتاز - فضلاً عن أثرها في الإرشاد إليه تعالى - في أنها تقود إليه، فتأخذ بيد الباحث عن الحقّ لتخلّق به صاعدةً نحوه تعالى»^(٢).

أقول: أذكر أنني كان لي لقاء مع مجموعة كبيرة من الإخوة الذين لم يكونوا على مذهب أهل البيت ثم - وبعد أشواط طويلة من البحث والدراسة

(١) مقتبس بتصرّف من مواضيع الجزء الثاني من شرح المناجيات.

(٢) الإمام الخميني، في رسالته لزوجة ولده أحمد.



والتحقيق - تيقنوا من حقانية هذا المذهب فاعتنقوه وجعلوه مسلكتهم إلى الحق تعالى، ومما أذكره بشكل جيد أنني كنت سألتهم - ولعلني لم أستثن أحداً من هذا السؤال - ما الذي جذبك إلى مدرسة أهل البيت عليه السلام؟ فكان أغلبهم يجيب: أن أول نافذة أطللنا منها على هذا المذهب هي الأدعية الواردة عن الأئمة عليهم السلام، ولكنها كانت في مذهبنا السابقة - والقول لهم - نُتفأ من مقاطع صغيرة منسوبة إلى الصحابة الصالحين أو التابعين (رضوان الله عليهم)، كنا نرددها ونسلي أنفسنا بها ونتقرب بها إلى الله كل حين في أوقاتنا، صباحاً ومساءً، ونداوم عليها في شؤون حياتنا، وكان لها أثر روحي وشعوري بالغ... ولكننا بعد البحث - وأحياناً كان ذلك يحدث بالصدفة - وجدنا أن ذلك الدعاء مثلاً كان مقطعاً من دعاء كميل لأمير المؤمنين، أو عدة أسطر من دعاء أبي حمزة الثمالي للإمام السجاد، أو جملةً من دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام، ومن هنا رحنا نبحت بجد ونشاط عن أولئك العظام الذين صدرت منهم مثل هذه الكلمات النورانية.

٣. البعد المعنوي القلبي

فُطر الإنسان على الحاجة المعنوية والروحية، فتراه دائماً يعيش حالةً من العطش المعنوي الذي يسعى لإشباعه وسد حاجته إذا ما كان ملتفتاً إليه؛ إذ كم من إنسان انشغل بالملذات الدنيوية والتعلقات المادية وغفل أو تغافل عما تشدو إليه روحه من طلب المدد المعنوي والفيوضات الروحية؛ فمن يعيش الغفلة لا يذوق لذة البهجة الروحية التي تكمن في حاق حقيقة الإنسان وجبلته الأولى.

ومما يوفّر هذه الحاجة ويروي هذا العطش الدعاء والمناجاة؛ فإن الدعاء يحمل في طياته شحنة عظيمة وباعثاً جبّاراً يجعل قارئه يعيش حالةً من الانشداد تجاه الله تبارك وتعالى، وهو يقوّي ويوطّد أواصر



المحبة والعشق الإلهي بينه وبين معبوده، خصوصًا إذا كان هذا العبد على معرفة كافية بخالقه ووسائل الفيض الإلهي ومن جرت على ألسنتهم تلك الأدعية والكلمات الطاهرة، ومن هنا تجد أن الدعاء في مدرسة أهل البيت متمزجة بأبعاده جميعًا بشكل وثيق، فترى المعارف العقائدية مندمجة مع العواطف الروحية، وترى البعد الاجتماعي إلى جانب البعد العبادي والفردى، وترى البعد السياسي إلى جانب العزلة عن غير الصالحين والخلوة مع المحبوب.

وفي إشارة منه إلى البعد المعنوي في أدعية أهل البيت عليه السلام يقول الإمام الخميني: «كان من أعظم النعم على العباد والرحمة الواسعة في البلاد، الأدعية الماثورة من خزائن الوحي والشرعية وحملة العلم والحكمة؛ لأنها الرابطة المعنوية بين الخالق والمخلوق، والحبلى المتصل بين العاشق والمعشوق، والوسيلة للدخول في حصنه الحصين، والتمسك بالعروة الوثقى والحبلى المتين...»^(١).

ومما يبين أثر أدعية أهل البيت عليه السلام في بعدها المعنوي ما ينقله العلامة الطباطبائي عن حال المستشرق والفيلسوف الفرنسي هنري كوربان حيث يقول: «إنه كان يقرأ الصحيفة المهدوية والصحيفة السجادية ودموعة تنهمر من عينيه»^(٢).

ونقل لي أحد الأصدقاء أن المستشرق الأمريكي ويليام تشيتك قام مؤخرًا بترجمة الصحيفة السجادية إلى اللغة الإنكليزية لما وجد فيها من عمق الأثر على الروح والقلب.

(١) الإمام الخميني، شرح دعاء السحر، الصفحة ٥.

(٢) محمد حسين الطهراني، الشمس الساطعة، الصفحة ٧٣.



دعوة لتأسيس «علمُ الدعاء»

١٧



وبعد هذه الوجيزة في بيان قيمة الأدعية وما تتضمنه من علوم ومضامين سامية فاقت في بعض جوانبها ما وَرَدَ في الأحاديث، حقيق بهذا الكنز العزيز والمنبع الفياض العملُ الجادُّ على تأسيس علم يُعنى بالدعاء خاصّة، بحثًا عليه وبحثًا عنه وبحثًا فيه، بمعنى أن يختص هذا العلم بدراسة ثلاثة محاور تدور في فلك موضوع الدعاء وتتمركز حوله، مشكّلةً بذلك جملة مسائل يمكن تفصيلها في أبحاثه.

وهذه المحاور الثلاثة هي:

المحور الأول: فلسفة الدعاء

ويتضمّن المسائل التي تتناول بالبحث الدعاء بنظرة فوقانية، أي إنها لا تخوض في الدعاء نفسه، بل في المسائل التي تشكّل أرضية الدعاء وخلفيته الفكرية والمبنائية، من قبيل المسائل التالية: لماذا ندعو؟ وهل أن الله لا يعرف حالنا حتى ندعو فنُخبره؟ هل يتنافى الدعاء مع التوكّل على الله؟ هل يؤثّر الدعاء في القضاء والقدر؟ هل إن كل دعاء ينفع كل إنسان، أم أن هناك أدعيةً خاصّةً لكل طبقة من الناس بحسب حالاتهم ومراتبهم الروحية؟ ما هي أنواع الداعين ومراتبهم؟^(١) هل يقتصر الدعاء على ما وَرَدَ عن المعصوم، أم يجوز الدعاء بما يجعله الداعي على لسانه مطابقًا لحاله ورغبته؟ هل يجوز الدعاء على كل حالٍ، أم أن لكلٍ دعاء

(١) يتقسم أهل المعرفة الدعاء إلى ثلاثة أنواع: الدعاء على سبيل الاستعجال، وهو دعاء العوام، والدعاء على سبيل الاحتمال، وهو دعاء الحكماء، والدعاء على سبيل الامتثال، وهو دعاء الأولياء. انظر: فصوص الحكم، الفصل الشيعي؛ تعليقة الإمام الخميني على هذا الفصل في: القيصري، شرح فصوص الحكم، تصحيح الأشتياني، الصفحة ٤١٧؛ وتعليقات مصباح الأنس، الصفحتان ٩٠ - ٩١.



حالة خاصةً ووقتًا مخصوصًا لا يؤثر أثره إلا في تلك الحالة وذلك الوقت، كما لو قرأ «دعاء الصباح» في المساء مثلًا، أو قرأ «دعاء السحر» في الضحى، أو «دعاء عرفة» في غير ذلك اليوم؟ كيف يعرف المرء ما ينفعه من دعاء ويتناسب مع حاله؟ هل أن الأدعية تتفاضل فيما بينها أم لا، وما هو ملاك الأفضلية إن كان ثمة أفضلية؟ وغيرها من الأسئلة التي هي من هذا القبيل.

المحور الثاني: فقه الدعاء

ويتضمن المسائل التي تتعلّق بالأدعية الواردة عن المعصومين عليه السلام وما حوته من مضامين وعلوم ومفاهيم فكرية وعقائدية وأخلاقية وسلوكية ومعنوية وسياسية واجتماعية وتاريخية وغيرها، فهو بحث في الدعاء نفسه وما يحويه من معارف ومعاني ومضامين، من قبيل المواضيع التالية: المدح والثناء على الباري تعالى، ذكر النبي والصلاة عليه وآله، التوحيد ومراتبه، الأسماء والصفات الإلهية وأنواعها، بيان قدرة الخالق وعظمته، طلب المغفرة والتوبة وآداب ذلك، سؤال الوصول إلى المقامات التوحيدية الرفيعة، الدعاء لفرج الإمام صاحب الأمر عليه السلام، وغيرها.

المحور الثالث: دراية الدعاء

وأقصد به المسائل التي تتعلق بمصادر الأدعية وأسانيدها وتوثيقها والبحث في كيفية وصولها إلينا وطرق ذلك، وتحديد ما صحّ من الأدعية عن المعصومين وما لم يصحّ، وذلك بالاستعانة بالقواعد التي أسسها



الأصوليون وعلماء الحديث، سواء من خلال «منهج نقد السند» أم «منهج نقد المتن»، بقطع النظر عن «قاعدة التسامح في أدلة السنن»^(١).

وهنا تجدر الإشارة إلى أن الدعاء لا يقتصر على البعد التعبدي الذي يكفي فيه القاعدة المذكورة، وأنّ من دعا بما يظن أنه وارد عن النبي ﷺ كان له ثوابه حتى لو لم يكن واردًا في الواقع^(٢)؛ ذلك أن الدعاء - وكما أسلفنا أعلاه - يتضمّن معارف ومعاني وعلوّمًا غزيرةً يجب التوقّف عندها ودراستها دراسةً تحقيقيّةً وفق الموازين العلمية المنقّحة، وعلى سبيل المثال: الأدعية التي تقرّر وجود الأسماء الإلهية وأنواعها، وأن لكل اسم سدنّة، وأن هناك أسماء إذا دُعي بها الله على مغاليق السماوات والأرض انفتحت^(٣)، وأن هناك من الأسماء ما إذا دُعي بها الله تعالى على ظالم لقصمه^(٤)، كما أن هناك أدعيةً تكلمت عن إخبارات لحوادث وأمور وقعت في التاريخ ولم يصلنا منها شيء في كتاب أو مصدر تاريخي، بل ما وصلنا عنها هو تلك الإخبارات في الأدعية، كما هو الحال في بعض فقرات دعاء السّمات ودعاء النّدة وغيرهما، وهذا كله يحتاج التوثّق منه والبناء عليه - في العلوم المختلفة - إلى البحث العلمي الرصين حتى يخرج من حالته التعبديّة الصّرفة إلى الحالة العلمية المنطقية.

(١) وهو مؤدّى القاعدة التي نفّحها علماء الأصول تحت عنوان «قاعدة التسامح في أدلة السنن»، للتفصيل انظر: محمد باقر الصدر، **دروس في علم الأصول، الحلقة الثالثة**، الصفحة ١٩١؛ محمد كاظم المصطفوي، **القواعد**، الصفحة ٤٩.

(٢) وقد جمع الحرّ العاملي الروايات الواردة في هذا المعنى في الباب الثامن عشر من **الوسائل** تحت عنوان «استحباب الإتيان بكل عمل مشروع روي له نواب عنهم (ع)». انظر: الحر العاملي، **وسائل الشيعة**، الجزء ١، الصفحات ٨٠-٨٢، الباب ١٨.

(٣) كما نجد ذلك في دعاء السّمات.

(٤) كما نجد ذلك في الدعاء المعروف بسهم الليل، وبعض الأدعية الواردة في كتاب **مُهْج الدعوات** وغيره من كتب الدعاء.



على أن جملةً من هذه المحاور ومساائلها جاءت متفرقةً في طيات كتب الأدعية والفقه والكلام والعقائد والعرفان وغيرها، ولكنها تحتاج للاستخراج والتبويب والتصنيف والترتيب.

وثمة مسائل أخرى لم أجد من تناولها في كتاب أو رسالة وخصوصاً ما يتعلّق منها ببعض مسائل فلسفة الدعاء المتقدمة أعلاه.

وقد جاء التأكيد على مثل هذه الدعوة من لدن ثلّة من العرفاء والعلماء، وتمثّلت في مناشدتهم أن تكون كتب الأدعية من ضمن المواد الدراسية في الحوزات العلمية فها هو العلامة حسن زاده آملي يقول: «ورجاؤنا هو أن تدخل صحف الأدعية والأذكار الصادرة عن أئمتنا الأطهار المبيّنة لمقامات الكمال الإنساني ومدارجه ومعارجه، ضمن قائمة الكتب الدراسية في حوزاتنا العلمية، لكي تُدرس على أيدي العارفين بأسرارها والذين هم أنفسهم من أهل الدعاء والسير والسلوك إلى الله، الذين سلكوا هذا الطريق والذين يهدون الطالبين إليه».

ثم يقول في ترتيب تلك الكتب بحسب المستوى الدراسي: «وأرى - أنا أقل العباد منزلةً - أن ترتيب هذه الكتب ضمن الكتب الدراسية ينبغي أن يكون على النحو الآتي: تبدأ أولاً دراسة كتاب «مفتاح الفلاح» للشيخ البهائي، ثم كتاب «عدّة الداعي» لابن فهد، وبعده كتاب أبي طالب المكي المسمّى «قوت القلوب»، ثم كتاب «الإقبال» للسيد ابن طاووس، ثم تختم المراحل الدراسية بتدريس «الصحيفة السجّادية الكاملة» التي هي إنجيل أهل البيت وزبور آل محمد ﷺ؛ فإن لذلك عظيم الأثر في إحياء المعارف الإسلامية الأصيلة».



ثم يضيف قائلاً: «ولا شك ولا ريب في أن الفوز بهذه المعارف الإلهية النيرة، أهم وأنفع - بأضعاف مضاعفة - من تعلّم الكثير من المباحث الرائجة والمألوفة، بل لا يمكن مقارنة هذه بتلك»^(١).

وقد وجدتُ مثل هذه الرغبة وهذا التأكيد من قبل عند الميرزا أبي الحسن الشعراني رحمته الله ذكره في مقدّمة ترجمته الفارسية على الصحيفة السجّادية^(٢).

ويقول الشيخ مصباح يزدي في شرحه على مناجاة المفتقرين من هذا الكتاب: «يجب على طلاب علوم أهل البيت عليهم السلام الاهتمام أكثر بدراسة النصوص الدينية الواردة عنهم، وتحصيل المعارف الإلهية التي تتضمّنُها، والتدبّر في معاني المناجيات الخمس عشرة ومنها مناجاة المفتقرين، والاهتمام بتحليلها والاستفادة من مضامينها حتّى نبين بوضوح الاختلاف بيننا وبين الآخرين»^(٣).

فهذه دعوة صادقة خالصة من طالبٍ صغير من طلاب المعارف الحقّة، عسى أن تأخذ طريقها في محافلنا العلمية ومجامعنا البحثية، وكل علم يبدأ بعدّة مسائل قد لا تعدو البضع، ثم يأخذ بالنمو والرشد والتوسّع والتعمّق رويداً رويداً، حتّى يتكامل ويرتفع صرحه ويصل إلى كامل أفئانه وتفرّيعاته وثمراته وليس علم الأصول علينا ببعيد.

(١) حسن زاده آملی، نور علی نور فی الذکر والذاکر والمذکور، الصفحتان ٢٦ - ٢٧.

(٢) الصحيفة السجّادية بترجمة العلامة الميرزا أبو الحسن الشعراني، الصفحة ٢.

(٣) سجّاده های سلوک، الجزء ٢، الصفحة ١٧٢. وهو هذا الكتاب الذي بين يديك.



المناجيات الخمس عشرة وشرحها

تشكّل المناجيات الخمس عشرة للإمام السّجّاد عليه السلام ثروةً علميّةً ومعنويّةً نفيسة؛ لما تتمتّع به تلك الصفحات النورانية من غزارة معرفية وباعثيّة معنوية هائلة، وتصفّح سريع لصفحات تلك المناجيات شاهدٌ صادق يغنينا عن الخوض في استدلالاتٍ على ذلك.

ولكن رغم هذا وما أولاه علماؤنا للدعاء وكتبه واستنطاق معانيه، إلا أنا لا نكاد نجد شرحاً كاملاً وافياً على المناجيات الخمس عشرة، وأنا شخصياً لم أعرّ على غير هذا الشرح لسماحة الشيخ العلامة مصباح يزدي^(١).

ويتمتّع هذا الشرح بعدّة خصائصٍ منها:

١. الشارح نفسه، فهو فيلسوف وفقيه وأستاذ مبرّز في العلوم الإسلامية، كما يتمتّع بخُلُق رفيع وتواضع عالٍ، وهو أستاذ الأخلاق الأوّل في حوزة قمّ في عصرنا الراهن، ودرسه في الأخلاق معروف مشهور، وهذا الكتاب عبارة عن مجموعة محاضرات أخلاقية كان قد ألقاها فيما مضى في ليالي الخميس، وقد اشترك فيها جمع غفير من طلاب الحقائق والمعارف والأخلاق.

وهنا يروقني أن أذكر هذه الخاطرة عن سماحة الشيخ مصباح اليزدي وتواضعه وخُلُقه الرفيع: أذكر أنني حضرتُ قبل مدّة في مجلس تأبين أحد العلماء في قم، وكما هي العادة فإن الشخصيات المرموقة والعلماء عادةً ما يُخصّص لهم مكان في صدر المجلس ليجلس فيه كبار العلماء وأساتذة الحوزة والمسؤولون.

(١) ولا أقصد بذلك عدم وجود الشروح بشكل مطلق.



وعندما قمتُ للخروج ووصلتُ إلى نهاية المجلس من الجهة المعاكسة تمامًا للمكان الذي كان يجلس فيه كبار الشخصيات لمحِثُ شخصًا من بعيد حسبته - لأول وهلة - الشيخ مصباح، وما جعلني أشكُ في أن يكون هو، أنَّ المكان يُعدُّ ذيل المجلس لا صدره، ناهيك عن أنَّ الشيخ من الشخصيات العلمية الكبيرة الطاعنة في السن التي لا ينبغي أن تجلس هناك بسبب شدة الازدحام، فكان من الطبيعي أن يجلس مثل هكذا شخص في صدر المجلس لا ذيله، ولذا فقد استبعدتُ أن يكون هو الشيخ مصباح نفسه.

ولكن عندما أرجعتُ النظر ودققتُ جيدًا تأكدتُ من أنه هو سماحته بعينه جالسٌ على كرسيٍّ صغيرٍ للغاية وسط عموم الناس، فهالني ما رأيتُ... ولم يكن مني إلا أن أتحرَّك باتجاهه - رغم ما في الأمر من إحراج في هكذا مكان عام - فوجدته مشغولًا بذكرٍ ما.

سلمتُ عليه، فاستقبلني بكلمة - والبشاشة تملأ وجهه ورحابة الصدر تملو سيماه الصالحة - وسلم عليَّ كأنه يعرفني من قبل، علمًا أنَّ تلك كانت هي المرة الأولى التي أراه فيها، فترك في هذا اللقاء شعورًا لا يُنسى أبدًا.

ولكنني فوجئتُ أن وجدته ذابل الوجه هزيل الجسم نحيل القوى بسبب ما مرَّ به من سوء حالته الصحية وتعرُّضه لعدَّة عمليات جراحية.

أسألُ الله أن يمنَّ عليه بالصحة الوافرة وطول العمر.

٢. الأسلوب البسيط والبيِّن الذي استخدمه في الشرح، فتراه خاليًا من التعقيد والغموض والاصطلاحات العلمية والتخصُّصية، بل راح يوضِّح المفاهيم والمطالب الفلسفية والعرفانية العالية والدقيقة ويجعلها في متناول فهم الجميع من خلال بساطة البيان وضرب الأمثلة الحسية المشهوددة، جريًا منه على أسلوب تشبيه المعقول بالمحسوس.



٣. ابتعاده عن الأبحاث المدرسية والتخصّصية التي طالما جرى التركيز عليها في الشروح السابقة، وإذا ما اضطرّ لبحثٍ ما فإنّه يسعى جاهداً إلى تبسيطه إلى أقصى حدّ حتى لا تكاد تشعر به.

٤. تركيزه على البعد الروحي والأخلاقي والمعنوي مع عدم إغفال البعد العلمي والمعرفي.

٥. شدّ القارئ إلى التعلّق والتمسك والارتباط بأهل البيت عليهم السلام.

٦. استيعابه لجميع المناجيات الخمس عشرة من أولها إلى آخرها من خلال التأكيد على المواضيع التي ضمّتها تلك المناجيات.

شكر وتقدير

وأخيراً لا يسعني إلا أن أتقدّم بالشكر الجزيل للأخوين المترجمين السيد حيدر الحسيني والأخ وليد محسن على الترجمة الأولى التي قاما بها، كما أقدم جزيل شكري ووافر امتناني لكافة الإخوة القائمين على «معهد المعارف الحكيمة» وعلى رأسهم الصديق العزيز الشيخ شفيق جرادي (حفظه الله) على توفيرهم الدعم اللازم لترجمة هذا الكتاب ونشره باللغة العربية ليستفيد منه التوّاقون إلى المعارف والحقائق المعنوية، فجزاهم الله خير جزاء العاملين.

جعلنا الله من أهل الدعاء والمناجاة الصادقة والحمد لله ربّ

العالمين.

محمد الربيعي

صيف العام ٢٠١٩

قم المقدّسة



المقال الأول

دراسة في معنى المناجاة ومكانتها في التعاليم الدينية

مفهوم المناجاة وبعض مصاديقها في القرآن

المُناجاة والنجوى في لغة العرب تعني: الهمس في الأذن، والإسرار، والكلام الخاص مع شخص آخر. وذهب بعض إلى أن النجوى في الكلام تتحقق بأن يتكلم اثنان أو جماعة مع بعضهم في خلوة، سواء كان الكلام سرّياً أم علنياً. وعليه فإن معنى المناجاة لا يتضمّن السريّة والهمس في الأذن، والمناجاة هي كلام بعيد عن مسمع الأغيار^(١)، ومن هنا فإن المناجاة تتناسب مع الكلام بصوت منخفض أكثر من تناسبها مع الكلام بصوت عالٍ مرتفع أو النداء.

وعلى هذا الأساس فإن تلاوة المناجاة الواردة عن أهل البيت عليه السلام أو الأشعار التي نظموها في نجواهم مع الله تعالى، ليس من النجوى والمناجاة، وإنما هو تلاوة للمناجاة؛ لأن الإنسان في الدعاء يتلو شيئاً بقصد الإنشاء والطلب من الله، وقراءة الأدعية المأثورة عن أهل البيت عليه السلام لا تُعدّ من دعاء الإنسان نفسه؛ لأن الإنسان حين قراءتها لا

(١) السيد علي أكبر قريشي، قاموس قرآن [قاموس القرآن]، الجزء ٧، الصفحة ٢٧.



يقصد الإنشاء وإنما يقصد حكاية العبارات، وفي هذه الصورة لا يدعو الإنسان ويُنشئ، بل يقوم بتلاوة الدعاء، وأحياناً قد لا يلتفت الشخص الذي يتلو تلك الأدعية إلى معانيها.

وعلى أية حال فإن المناجاة - بمعنى الإسرار والكلام الخاص - قد تكون بين إنسانين، وقد تكون بين الإنسان وبين الله تعالى، وربما تكون أيضاً بين الله والإنسان.

ومن القسم الأول ومصاديقه المذمومة ما ذكرته آيات من القرآن الكريم تحدّثت عن النجوى وذمّت تهامس المنافقين والذين لم يؤمنوا بالله فيما بينهم بهدف التآمر ضدّ المؤمنين؛ إذ كانوا يتناجون ويتخافتون بما يبعث الحزن في قلوب المؤمنين ويثير قلقهم، فقال الله مخاطباً المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَتَنَجَّجُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَتَنَجَّجُوا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾^(١).

وعلى أساس هذه الآية الشريفة يكون الكلام الخاص والهمس بحضور الآخرين حسناً فيما لو اشتمل على مصلحة وصدر بدافع عمل الخير، ولم يؤدّ إلى حزن الآخرين وإثارة قلقهم، وإلا فإن الهمس في الأذن بنفسه مخالف للأدب وغير مُستحسنٍ ويجب اجتنابه.

وفي آية أخرى تحدّثت عن الذين كانوا يأتون عند رسول الله ﷺ مراراً وتكراراً طمعاً في اكتساب المكانة والعزة والرفعة في عيون الآخرين، فيحادثونه أحاديث خاصة، وكان ذلك يؤذي النبي ﷺ ويضايقه، فتصدّى الله سبحانه وتعالى لهم قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ



الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَانِكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَظْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ^(١).

وقبل نزول هذه الآية كان أثرياء المدينة وكبارها يأتون رسول الله ﷺ ويحادثونه ويتباهون بذلك فخورين، وكل هدفهم كان إظهار أنفسهم أمام الفقراء على أنهم خاصة رسول الله ﷺ وبطانته المقربون منه، إلا أنه بعد نزول هذه الآية وما اشتملت عليه من أمر لمن يُناجي رسول الله ﷺ بتقديم الصدقة، واستثناء الفقراء والمعدمين من وجوب دفعها، امتنع الجميع عن مناجاته ﷺ خشية الإنفاق إلا علي بن أبي طالب عليه السلام، فقد صرف عليه السلام ديناراً بعشرة دراهم وأخذ يأتي النبي ﷺ لعشرة أيام يناجيه ويتحدث معه ويتصدق كل يوم بدرهم^(٢). وأخيراً حينما امتنع المسلمون عن مناجاة رسول الله ﷺ خشية التصدق، نسخ الله حكم الصدقة وجاء في الآية التالية: ﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَانِكُمْ صَدَقَتٍ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٣).

المناجاة مع الله في الروايات وعُرف المتدينين

غالبًا ما تُستعمل المناجاة - في عُرفنا وآدابنا الدينية - في مورد النجوى وكلام الإنسان الخاص مع الله عز وجل، حيث الحالة الروحية الخاصة والظروف الخارجية تستدعي أن يتكلم الإنسان مع الله بصوت منخفض. فحينما يريد الإنسان أن يعترف بذنوبه أمام الله سبحانه، فإنه يعترف بها

(١) سورة المجادلة، الآية ١٢.

(٢) الحويزي، نور الثقلين، الجزء ٧، الصفحة ٣٩٩.

(٣) سورة المجادلة، الآية ١٤.



بصوت منخفض؛ إذ لا يُحب أن يُطلع الآخرون على عيوبه ومعاصيه؛ لذلك فهو لا يذكر معاصيه بصوت عالٍ أبدًا خشية افتضاح أمره على الملأ.

وكذلك يجري حوار الغرام بين العاشق والمعشوق بصورة رمزية خاصة، وحينما يقف العبد العاشق بين يدي معشوقه ومعبوده، يبدأ بمناجاته همسًا بصوت خفيض، وطبيعة هذه الحوارات الغرامية المُفعمة بالحب لا تستدعي الصياح والصوت المرتفع بحيث يسمع الآخرون ما يجري بين المتحاورين.

وفي مقابل المناجاة يُطلق «الدعاء» على الصوت المرتفع والصياح حينما ينادي شخصٌ آخرَ من بعيد، أو من قريب، لكن ليس بقصد إيصال صوته إلى الطرف المقابل، بل بدافع آخر، من قبيل أن يصرخ الشخص بصوت عالٍ لإراحة نفسه وتفريغ ما يعتل في قلبه من شحنات عاطفية. وعلى هذا فحينما يُنادي الإنسان ربّه ويناشده بصوت عالٍ رجاءً أن يخلّصه من الابتلاءات والمصاعب التي غرق في خضمّها، نجده يصيح بألم وحرقة منادياً ربّه لينقذه من تلك الابتلاءات والآلام.

ويقابل هذا المصطلح مصطلح «الدعاء» الذي يتضمّن مفهومًا عامًا ومعنىً واسعًا، فالدعاء يُطلق على الطلب بأي لغةٍ كان ومهما كانت كَيْفِيَّتُهُ، سواء صَدَرَ من بعيد أم من قريب، وسواء كان بصوت مرتفع أم بالهمس.

وفي مُستهل المناجاة الشعبانية استُعملت المصطلحات الثلاث «الدعاء» و«الدعاء» و«المناجاة»، إذ يقول المعصوم عليه السلام: «وَأَسْمَعُ دُعَائِي إِذَا دَعَوْتُكَ، وَأَسْمَعُ نِدَائِي إِذَا نَادَيْتُكَ، وَأَقْبِلْ عَلَيَّ إِذَا نَاجَيْتُكَ»^(١).

(١) الشيخ عباس القمي، مفاتيح الجنان، المناجاة السبائية.



وقد أخبرنا رسول الله ﷺ أن موسى عليه السلام قال في مناجاته مع الله: «يَا رَبِّ أَبْعِدْ أَنْتَ فَأَنَا دَيْكَ، أَمْ قَرِيبٌ فَأَنَا جَيْكَ؟ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: يَا مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ، أَنَا جَلِيسٌ مِّنْ ذِكْرِنِي»^(١).

وفي رواية أخرى عن أمير المؤمنين عليه السلام في فضائل شهر رمضان والمناجاة فيه قوله: «بَشِّرْ أَهْلَهَا الصَّائِمُ فَإِنَّكَ فِي شَهْرِ صِيَامِكَ فِيهِ مَفْرُوضٌ وَنَفْسُكَ فِيهِ تَسْبِيحٌ وَنَوْمُكَ فِيهِ عِبَادَةٌ وَطَاعَتُكَ فِيهِ مَقْبُولَةٌ وَذُنُوبُكَ فِيهِ مَغْفُورَةٌ وَأَصْوَاتُكَ فِيهِ مَسْمُوعَةٌ وَمُنَاجَاةُكَ فِيهِ مَرْحُومَةٌ»^(٢).

وفي توضيح جملة: «وأصواتك فيه مسموعة» ينبغي أن يُقال إنه أحياناً يتكلم الطفل أو السفيه أو الإنسان الوضع كلاً ما بين جمع من الناس فلا يلتفت إلى كلامه منهم أحدٌ. وحينئذ يُقال إن كلامه لم يُسمع، أي إن شخصاً لم يهتم بكلامه. وكذلك من الممكن أن لا يهتم الله بما يطلبه العبد ولا يعتني به نتيجةً للفاصل والحجاب الذي أحدثته ذنوب ذلك العبد العاصي فصارت حائلاً بينه وبين الله. ولكن الباري عز وجل كريمٌ يمنح عباده في أيام خاصة مباركة رحمةً عامّةً، وتلك الأيام من قبيل شهر رمضان المبارك، وقد وعدّهم بأن يشملهم بلطفه ورحمته الواسعة، ويستمع إلى أصواتهم ويلتفت إلى طلباتهم ويستجيب لهم.

وهذه العناية الإلهية تحكي عن أهميّة المناجاة وتأثيرها في أيام معيّنة، وكما ورد في الروايات فإنه بالإضافة إلى شهر رمضان المبارك والأيام الخاصة، هناك أوقات معيّنة من اليوم - كوقت السحر - تحظى فيها المناجاة مع الله بأهميّة بالغة وعناية والتفات إلهي خاص.

(١) البحر العاملي، وسائل الشيعة، الجزء ١، أبواب أحكام الخلوة، الباب ٧، الصفحة ٣١١، الحديث ٨٢٠.

(٢) الشيخ الصدوق، فضائل الأشهر الثلاثة، الصفحة ١٠٩.



وفي هذا المضممار يقول الإمام الصادق عليه السلام: «وَإِنْ الْعَبْدَ إِذَا تَخَلَّى بِسَيِّدِهِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ [الْمُظْلِمِ] وَنَاجَاهُ أَثَبَّتَ اللَّهُ النُّورَ فِي قَلْبِهِ، فَإِذَا قَالَ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ، نَادَاهُ الْجَلِيلُ جَلَّ جَلَالُهُ: لَيْتَكَ عَبْدِي سَلَنِي أُعْطِكَ وَتَوَكَّلَ عَلَيَّ أَكْفِكَ. ثُمَّ يَقُولُ جَلَّ جَلَالُهُ لِمَلَأْتِكَ: يَا مَلَأْتِكَ، انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي فَقَدْ تَخَلَّى بِي فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ وَالْبَطَّالُونَ لَاهُونَ وَالْغَافِلُونَ نِيَامٌ أَشْهَدُوا أَنِّي غَفَرْتُ لَهُ»^(١).

حاجة الإنسان إلى المناجاة مع الله

الإنسان بطبعه يُحِبُّ مقابلة الشخصيات العظيمة واللقاء بهم بصورة خاصة، والكلام معهم على انفراد. فالتلميذ يُحِبُّ أن يجتذب انتباه أستاذه، ومن هنا نجده يتَّجه نحوه بعد انتهاء الدرس لي طرح عليه أسئلته بشكل خاص. وبالإضافة إلى الفرص التي تمنحها الشخصيات الكبيرة لعامة الناس، فينتفع الجميع ببركة وجودهم، يُحِبُّ الإنسان أيضاً أن ينال شرف الأنس والصحة الخاصة معهم، وأن يلتقيهم في خلوة متحدّثاً إليهم حديثاً خاصاً ومستفيداً من محبتهم ولطفهم.

إن الحوار الخاص مع الشخصيات الكبيرة أمرٌ مطلوبٌ ويحظى بأهميّة كبيرة عند الإنسان. فإذا قيل لأحدنا أن قائد الثورة الإسلامية الإمام الخامني عليه السلام منحك فرصةً لتزوره، وأن يكون لك معه لقاء خاص، فإن الفرحة - حينئذٍ - لن تَسعه، وسيبدأ - حينها - يعدُّ الساعات لينال شرف لقائه ورؤيته عن كثب والارتواء من نعيم عذب كلامه.

(١) المحذت النوري، مستدرک الوسائل، الجزء ٥، الصفحة ٢٠٧.



ولا ريب أن المؤمن والشخص الذي يُدرك عظمة الله ومقام رحمانيته ونعمه التي لا تُحصى، يُدرك أيضًا لذة النجوى والحوار الخاص معه سبحانه، ويسعى دائمًا وراء فرصة تتوفّر فيها الخلوة، وخاصّةً في شهر رمضان المبارك الذي هو ربيع الدعاء والمناجاة، ليتحدّث مع ربّه، وينشغل بتلاوة الأدعية من قبيل دعاء الافتتاح ودعاء أبي حمزة الثمالي، وبذلك يقوّي ويوطّد أواصر المحبة والعشق بينه وبين معبوده.

إن الذين يعيشون الغفلة لم يذوقوا طعم الحديث مع المعبود؛ ولذلك لا يرغبون بالخلوة مع الله ومناجاته، لكن المؤمنين حقًا يعلمون جيّدًا ما هي لذة الحوار مع الله، وما هو المقام والمكانة التي ينالها الشخص إذا دعاه الله إلى لقاءه ووفّقه للخلوة معه ونال شرف محاورته حوارًا خاصًا يسوده الحُب.

وقد ذُكرت بعض الروايات العوامل التي توفّق الإنسان للمناجاة مع الله والخلوة بالمعبود والأنس به، ومنها ما ورد في حديث قدسي عن رسول الله ﷺ: «إِذَا عَلِمْتُ أَنَّ الْغَالِبَ عَلَى عَبْدِي الْإِسْتِغَالَ بِي نَقَلْتُ شَهْوَتَهُ فِي مَسْأَلَتِي وَمُنَاجَاتِي»^(١).

والإنسان بطبعه ميالٌ نحو الأمور الدنيويّة والشؤون الحيوانية الهابطة، لكن عندما تتّجه أغلب اهتماماته نحو الله، فإن الله سيُشمله بلطفه وعنايته، ويهبه لذة المناجاة والحديث معه، كما أنه سوف يهتدي لأن تُصبح مناجاة الله والخلوة به أبرز وأقوى ورغباته. وعلى العكس حينما تكون أكثر أوقات الإنسان واهتماماته منحصرةً في الأمور الدنيوية ومتعتها، وسيطر على قلبه حُب الدنيا والتعلّق بها، ويُهيمن عليه التفكير

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ٩٣، الباب ١٣، الصفحة ١٦٢، الحديث ٤٢.



في أنواع الملابس وأصناف الطعام، ولا يكون له هم سوى اقتناء منزل فخم والوصول إلى مكانة أرفع، والتسلية والترفيه ومشاهدة الأفلام التي تسليه، فسوف يُحرّم من لذة المناجاة مع الله.

عوامل الحرمان من المناجاة مع الله

نظرًا إلى عظمة المناجاة مع الله وأهميّة الارتباط بالمعبود وتأثيرهما في سعادة الإنسان الدنيوية والأخروية، والخسارة التي يُمنى بها المرء نتيجة للحرمان من هذا التوفيق الإلهي الكبير، يجب معرفة العوامل التي تؤدي إلى عدم التذاذ الإنسان بمناجاته مع الله وحرمانه منها.

تناولت بعض الروايات هذه العوامل ومنها ما ورد في حديث المعراج الذي ذَكَرَ أحدَ عوامل الحرمان من نيل المناجاة مع الله، فقد جاء في هذا الحديث خطاب من الله سبحانه لحبيبه رسول الله ﷺ قائلاً: «يا أحمد لو صَلَّى العبدُ صلاةَ أهلِ السماءِ والأرضِ، ويصومُ صيامَ أهلِ السماءِ والأرضِ، ويَطْوِي مِنَ الطعامِ مِثْلَ الملائكةِ، وَلَبَسَ لباسَ العاري، ثُمَّ أَرَى فِي قَلْبِهِ مِنْ حُبِّ الدُّنْيَا ذَرَّةً أَوْ سُمْعَتَهَا أَوْ رِئَاسَتَهَا أَوْ حُلِيَّهَا أَوْ زِينَتَهَا لَا يُجَاوِرُنِي فِي دَارِي، وَلَأَنْزَعَنِّي مِنْ قَلْبِهِ مَحَبَّتِي، وَلَأُظْلِمَنَّ قَلْبَهُ حَتَّى يَنْسَانِي وَلَا أَذِيْقُهُ حَلَاوَةَ مَحَبَّتِي»^(١).

وقد ورد في أخبار نبي الله داود عليه السلام أن الله خاطبه قائلاً: «مَا لِأَوْلِيَائِي وَالْهَمِّ بِالدُّنْيَا إِنَّ الْهَمَّ يَذْهَبُ حَلَاوَةَ مُنَاجَاتِي مِنْ قُلُوبِهِمْ»^(٢).

(١) المصدر نفسه، الجزء ٧٤، الباب ٢، الصفحة ٣٠، الحديث ٦.

(٢) المصدر نفسه، الجزء ٨٢، الباب ٦١، الصفحة ١٤٣، الحديث ٣٦.



إن الأشخاص الذين تعلقت قلوبهم بالدنيا لا ينبغي لهم توقّع الالتذاذ بالمناجاة مع الله. فهؤلاء حتى لو شغلوا أنفسهم بالدعاء والمناجاة فغاية رجائهم استجابة طلباتهم وتلبية حاجاتهم وغفران ذنوبهم، وطوال الدعاء والمناجاة يسيطر عليهم الملل والكسل، فلا ينالون من لذة المناجاة مع الله شيئاً.

وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أن مما أوحى الله إلى نبيه داوود عليه السلام: «لَا تَجْعَلْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَالِمًا مَفْتُونًا بِالدُّنْيَا فَيَصُدَّكَ عَنْ طَرِيقِ مَحَبَّتِي، فَإِنَّ أَوْلَنِكَ قُطَاعَ طَرِيقِ عِبَادِي الْمُرِيدِينَ. إِنَّ أَدْنَى مَا أَنَا صَانِعٌ بِهِمْ أَنْ أَنْزِعَ حَلَاوَةَ مُنَاجَاتِي عَنْ قُلُوبِهِمْ»^(١).

(١) الكليني، الكافي، الجزء ١، باب المستأكل بعلمه والمباهي به، الصفحة ٤٦، الحديث ٤.



المقال الثاني

تجليات الرضوان الإلهي والمناجاة مع الله

مناجاة الله مع عباده

(أ) مناجاة الله مع الأنبياء

طرحنا فيما سبق سؤالاً يرتبط بمناجاة الإنسان مع الله وهو: مع أن أسمى النجاحات وأفضل الفرص تتوفّر للإنسان في ظل المناجاة مع الله والحوار الخاصّ معه وتأتي نتيجةً للانتفاع من لذة مناجاته، فلماذا يوجد أشخاص ليس لديهم رغبة أو دافع للمناجاة مع الله، وما هو عامل الحرمان من المناجاة مع الله؟

وقلنا في الجواب: يستفاد من الروايات أن التعلّق بالدنيا والارتباط بملذّاتها هو أهمّ عامل يؤدّي إلى الحرمان من المناجاة مع الله والمسارّة معه ويتسبب في عدم إدراك لذة الحوار مع الله. وعليه فطريق نيل شرف إدراك لذة المناجاة مع المعبود هو الخلاص من حبّ الدنيا وعدم الوقوع في فخّ لذاتها الفانية.

والآن حان وقت الكلام حول مسألة مناجاة الله مع الناس المصطفّين وعباده المخلصين.





يُستفاد من الروايات الكثيرة أن الله يناجي بعض عباده ويسأزهم. ولا ريب أن الأنبياء الإلهيين هم من أوائل الذين يناجيهم الله، ويعدّ وحيه إلى بعضهم مناجاةً لهم. ومن هؤلاء نبي الله موسى بن عمران عليه السلام الذي اختصّ بلقب كليم الله، فقد كان مخاطبًا في مناجاة الله مرارًا وتكرارًا. وقد ذهب عليه السلام مرات عدة إلى جبل الطور من أجل عبادة الله، وكان ينشغل هناك لأيام طويلة تمتدّ أحيانًا لأربعين يومًا يمضيها في العبادة ومناجاة الله، وقد استفاد كثيرًا من المناجاة الإلهية، وقد ذكّرت بعضها الأحاديث القدسية التي تتحدّث عنه عليه السلام، كما تحدّث القرآن الكريم أيضًا عن مكثه أربعين يومًا في جبل الطور للعبادة والمناجاة المتبادلة مع الله، حيث جاء في القرآن ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنٍ مِيقَتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾^(١).

ب) مناجاة الله مع غير الأنبياء

يمكن تصوير حوار الله مع غير الأنبياء بصورتين:

الصورة الأولى: هي كلام الله مع جميع الناس، ويمكن وصف هذه الصورة - مسامحةً - بأنها مناجاة الله مع الإنسان، وتوضيحها هو أن الله منح العقل لجميع الناس، والعقل يُدرك بعض الحقائق ويرشد الإنسان إلى أمورٍ حسنةٍ وأخرى قبيحة، وعلى أساس الإدراك الذي لديه يوجّه أحكامًا إلى الإنسان، فيأمر الإنسان بأعمالٍ وينهاه عن أخرى، والحقيقة أن الله يتحدّث مع الإنسان عن طريق العقل، وتشخيص مدركات العقل وما يناله من إلهامات فطرية إنما هي إرشادات إلهية ينالها الإنسان عن طريق



العقل. وهذا النحو من الحوار الإلهي يشمل جميع العقلاء، ولا يختص بشخص دون آخر.



وأما الصورة الثانية المستفادة من الروايات فهي: مناجاة وكلام الله مع الخاصة من عباده والمتميزين منهم، فنظرًا لما يتمتع به هؤلاء من قابليات وطاقات نفسية حصلوا عليها بجهودهم، اصطفاهم الله ودعاهم إلى خلوته والنجوى معه. ولا ريب أن هؤلاء الثلاثة من خواص عباد الله الذين اصطفاهم سبحانه لمناجاته الخاصة لهم مراتب سامية، وكل واحد منهم بحسب درجته عند الله ومرتبته، يكون أقرب إليه سبحانه وينتفع بنحو أكبر من مناجاته مع الله.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في إحدى خطبه المشتملة على معارف نقيّة ذات مضامين قيّمة، بعد أن يتلو قوله تعالى: ﴿رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾^(١): «وَمَا بَرِحَ لِلَّهِ عَزَّتْ أَلَاؤُهُ فِي الْبُرْهَةِ بَعْدَ الْبُرْهَةِ وَفِي أَرْزَامِ الْفَتَرَاتِ عِبَادٌ نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ وَكَلَمَتِهِمْ فِي ذَاتِ عَقُولِهِمْ»^(٢).

وفي ضوء كلام أمير المؤمنين عليه السلام فإن الله سبحانه يناجي عباده الخاصين من داخل عقولهم. ورغم أن عامّة الناس يتمتعون بالعقل ويدركون به بعض المسائل والحقائق، وفي الواقع فإن الله يهديهم بواسطة العقل نحو الإدراكات العقلانية، لكنهم لا يتمتعون بالإلهامات الإلهية والإشراقات الربّانية.

(١) سورة التور، الآية ٣٧.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٢.



ولتوضيح طريقة حوار الله الخاصّ مع عباده الخاصّين بواسطة العقل يجب القول إننا جميعاً في ظل قوّة العقل الذي منحه الله إلينا نمتلك في أذهاننا القدرة على ترتيب المقدمات والاستنتاج منها. لكن ترتيب المقدمات والاستنتاج منها ليس مقدوراً لجميع الناس في جميع الموارد، فأحياناً يقوم البعض بترتيب المقدمات التي يعلمها الآخرون، ويصنعون منها استدلالاً ليس في مقدور الآخرين صناعته، ويكون هذا الاستدلال ونتيجته التي توصّلوا إليها مقبولاً عند الجميع.

ومن هنا فإن ترتيب المقدمات الذهنيّة يتمّ عبر الطرق المحدّدة والمعهودّة أو بالاستفادة من المخزونات القبلية وتداعي المعاني مثلاً، ويؤدّي إلى الحصول على النتيجة ضمن عملية محدّدة.

لكن أحياناً يفشل ذهن الإنسان في ترتيب المقدمات والحصول على نتيجة منها، وفجأةً ودون سابق استعداد يخطر في ذهن شيء يمهّد للإنسان طريق الاستدلال والحصول على النتيجة العلمية.

وعلى أي حال فإن الله يتحدّث بواسطة إلهاماته، وإخطاراته، وإشراقاته مع خاصّة عباده، وهذه الإلهامات والإخطارات يمنحها سبحانه لهؤلاء العباد على شكل تلقّيات معنويّة خاصّة علمية وعقلانية، وأما سرُّ تلقّي واستثمار هذه الخصائص المعنويّة والعلمية التي لا تتحقّق عبر الطرق العادية، فهو ذكر الله الدائم، والتوجّه بخضوع وإخلاص لا شائبة فيه نحو المعبود. وهذا المعنى - أي التوفيق لنيل العناية الإلهية الخاصّة وحوار العشق الإلهي مع المعبود - عبّرت عنه المناجاة الشعبانية أوضح تعبير، حيث يقول أمير المؤمنين (عليه السلام): «إِلَهِي وَاجْعَلْني مِمَّنْ نَادَيْتُهُ فَأَجَابَكَ، وَلَا حَظَّتْهُ فَصَعِقَ لِجَلَالِكَ، فَنَاجَيْتُهُ سِرّاً وَعَمِلَ لَكَ جَهراً»^(١).

نتيجة مناجاة الله مع الإنسان وتجلي عظمته

ورد في الفقرة المذكورة من المناجاة الشعبانية أن الله ينادي عباده، و«النداء» يستعمل حينما يتحدث شخصان متباعداً فيدعو أحدهما الآخر. إذاً بلحاظ المباشرة بين الله وعباده [وإلا فبلحاظ السخية هو حاضر معهم] ينادي الله عباده بعبارات من قبيل «يا أَيُّهَا النَّاسُ» و«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا»، ويدعوهم إلى طاعته. وفي هذه الصورة حينما يلبي المخاطبون النداء الإلهي ويكونون بصدد أداء الأوامر الإلهية، تشملهم حينئذ العناية الإلهية ونظرته الخاصة، فيبلغون مراتب سامية في مسير عبودية الله.

ومن هنا يكون معنى كلام المعصوم عليه السلام: إلهي واجعلني ممن ناديت ودعوته إليك فأجابك، وبالنتيجة ممن شملتهم عنايتك وملاحظتك الخاصة، وصار لائقاً لأن يقف في ساحة حضرتك وبين يدي تجلي جلالك وعظمتك، فصار مصعوقاً بسبب إدراكه حضورك لينسى نفسه.

ونحن نعلم أن الله يراقبنا وأننا في حضرته وهو ينظر إلينا، لكن هناك فارق كبير بين أن يشعر الإنسان بوجود مَنْ يراقبه من بعيد أو من وراء الكثير من الحُجُب، وبين أن يشعر أن هناك شخصاً إلى جانبه واضحاً عينه في عينه. فإذا حصلت هذه المعرفة عند الإنسان بأن يُدرك أن عناية الله ولطفه الخاص يشملانه، فسوف تصيبه الدهشة والصعقة من عظمة هذا الالتفات الإلهي ولذة التواجد في حضرته. كما أن نبي الله موسى عليه السلام أصيب بالدهشة إثر تجلي الله، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ ارْجِعْ أُنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرْنِي وَلَكِنِ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرُنِي فَلَمَّا تَجَلَّى



رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾.

نعم، الإنسان المطيع لأوامر الله والذي يعيش حالة التسليم له بكل وجوده، ينظر الله إليه نظرة خاصة، وحينما يتلقى هذا العبد العناية والالتفات الخاص من معبوده فإنه يُصاب بالدهشة من شدة البهجة ويغفل عن نفسه. وفي هذه المرحلة التي يصبح فيها لائقًا لنيل مقام الجلال والعظمة الإلهية، وينسى كل ما سوى الله في ظل هذه المعرفة، فإن الله ينجيه ويساره. ويسعى العبد بكل وجوده للحفاظ على الأسرار الإلهية والمناجاة معه، فلا يفرط بشيء منها ولا يفضح أسرار خلوته بمعبوده، لكن تجليات النجوى والتعاليم الإلهية الخاصة تظهر على سلوكه وتكتسب ظهورًا عينيًا.

حوار الله مع عبده المحبوب في الجنة

في حديث المعراج المشتمل على مناجاة الله وكلامه مع أحب الخلق إليه النبي الخاتم ﷺ، يقول الله سبحانه حول مقام وشأن مخاطبيه والذين ينالون نظره وعنايته الخاصة في الجنة: «يا أحمد إن في الجنة قصرًا من لؤلؤ فوق لؤلؤ، ودرة فوق درة، ليس فيها قصم ولا وصل، فيها الخواص أنظر إليهم كل يوم سبعين مرة، وأكلهم كل ما نظرت إليهم، وأزيد في ملكهم سبعين ضعفًا. وإذا تلذذ أهل الجنة بالطعام والشراب تلذذ أولئك بذكري وكلامي وحديثي»^(١).

(١) سورة الأنعام، الآية ١٤٣.

(٢) بحار الأنوار، الجزء ٧٧، الباب ٢، الصفحة ٢٣، الحديث ٦.



ولا ريب أن حقائق عالم الآخرة تختلف عن حقائق عالمنا، ومن هنا فنحن عاجزون عن الوصول إلى صورة واضحة المعالم عن حقائق ذلك العالم، وجميع تصوراتنا وإدراكاتنا وخيالنا لا يمكنها أن تكشف لنا حقيقة ذلك العالم.

وبعبارة أخرى نحن نستطيع عبر حواسنا الخمس أن نتواصل مع بعض موجودات هذا العالم وأن نحصل على تصوّر لألوانها، وأشكالها، وخواصّها. لكننا لا يمكننا بحالٍ الإحساس بـ حقائق ذلك العالم؛ لأن حقائقه بعيدة المنال ولا سبيل لأن تنالها حواسنا. ومع ذلك فإن أوصاف وخصائص عالم الآخرة التي حدّثتنا عنها النصوص الدينية من آيات وروايات توصلنا إلى صورة لا تخلو من غموض لذلك العالم، ومن خلال أوجه الشبه المحدودة بين ذلك العالم وعالمنا هذا، وكذلك بمقارنة نِعَم ذلك العالم مع هذا العالم الترابي، نستطيع أن نحصل على صورة ضبابية غامضة عن ذلك العالم.

إن إحدى ميزات أهل الجنّة وخصائصهم التي ذكرها الله في هذا الحديث، والتي نعجز عن إدراكها، هي أنّ أحدهم يمتلك قصرًا عظيمًا كل طابق منه مبني من اللؤلؤ من صنف واحد، وهذا اللؤلؤ في غاية الشفافية ولا شائبة فيه وليس فيه قصمٌ ولا وصل. وليس جميع أهل الجنّة يمتلك مثل هذا القصر، وإنما يتمتّع بهذه النعمة في الجنّة الخاصّة من عباد الله وهم الذين نالوا أسمى مراتب المعرفة والقرب منه سبحانه. وربما يكون سبب نيلهم هذا القصر اللؤلؤي هو امتلاء وجودهم بالإيمان الخالص الخالي من شوائب الشّرك والتردد والرياء.

ثم يقول سبحانه وتعالى أنا أنظرُ إليهم كل يوم سبعين مرّةً وأكلهم. ونظرُ الله إلى الإنسان هو أسمى النعم الإلهية ويمثّل الحاجة الفطرية



لكل إنسان، وأقسى عذاب يبتلي به الإنسان هو حرمانه من التفات الله ونظره إليه. كما أن أكبر حاجة للطفل هي اهتمام أبيه وأمه به، وعدم اهتمامهما به وغضبهما عليه أشد عذاب له، ولذلك فإن تصرفات الطفل وحركاته المضحكة وكلامه إنما هي لجذب اهتمام الأبوين. ونحن في هذه الدنيا وبسبب انشغالنا بالأمر الدنيوية والاحتياجات المادية، لا نستطيع أن ندرك بشكل صحيح الحاجة الحقيقية للنظر الإلهي، فانشغالنا بالماديات يمنعنا عن إدراك هذه الحاجة، لكن في عالم الآخرة حيث تنتفي الاحتياجات الوهمية الفارغة، وتبرز احتياجات الإنسان الواقعية الأبدية، حينذاك ندرك عظمة الحاجة اللامتناهية للنظرة الإلهية، وفي المقابل نفهم أن الحرمان من نظر الله وعنايته هو أقسى عذاب إلهي، بل هو أشد بكثير من عذاب جهنم والاحتراق فيها.

ولهذا، يرسم الله لنا صورة العذاب الشديد الذي يناله الذين ينقضون العهد قائلاً: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١).

ينال المؤمنون في الجنة كل ما يتمنونه، ويتمتعون بأنواع لا تحصى من الطعام والشراب، وتشتملهم دائماً اللطاف الإلهية والنعم الربانية الغامرة، ولكن خاصة عباد الله المصطفين الذين أدركوا عظمة نظر الله والتفاته والكلام معه، ويعلمون أن الحرمان من ذلك هو أقسى عذاب إلهي، لهم لذة أخرى، فحينما يتلذذ سائر المؤمنون بأنواع طعام الجنة وشرابها، يتلذذ خاصة عباد الله بالكلام مع الله، وتبلغ لذتهم بذلك حدًا ينسيهم جميع طيبات الجنة وملذاتها.

أهل هذا المستوى من الإيمان كانوا قد وصلوا في الدنيا أيضًا إلى مرتبة من التقرب إلى الله بحيث يصل دعاؤهم إلى العرش دون مانع ويستجاب مباشرة. وكما أنهم يعيشون حالة العشق والوله لسماع كلام الله، كذلك يُحِبُّ الله سماع كلامهم. كما قال تعالى في حديث قدسي: «يُحِبُّ الرَّبُّ أَنْ يَسْمَعَ كَلَامَهُمْ كَمَا تُحِبُّ الْوَالِدَةُ وَلَدَهَا»^(١).

ومفاد الجملة المتقدمة هو وجود التلازم والارتباط الوثيق بين محبة العبد لله ومحبة الله له، وهذا الارتباط الثنائي يتجلى في مظاهر وتجليات المحبة لله، وعلى هذا الأساس يشير الله في بعض آيات كتابه الكريم إلى التلازم بين التفات العبد وذكره لله، وذكر الله لعبده إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾^(٢).

العاقبة الحسنة للسعي وراء رضوان الله

آية أخرى تحدّثنا عن الواصلين إلى رضوان الله الذين أدّوا تكاليفهم بإخلاص ولا يحملون هدفاً سوى نيل رضا المعبود، فهؤلاء كما أنهم راضون عن الله فهو راض عنهم، يقول سبحانه وتعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٣).

وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۖ أَرْجَعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۖ فَادْخُلِي فِي عِبْدِي ۖ وَأَدْخُلِي جَنَّتِي﴾^(٤).

(١) بحار الأنوار، الجزء ٧٧، الباب ٢، الصفحة ٢٤.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٥٢.

(٣) سورة المائدة، الآية ١١٩.

(٤) سورة الفجر، الآيات ٢٧ - ٣٠.



قد نقوم أحياناً بأفعال الخير والصالح بدافع نيل الثواب والجنة. ولكن عباد الله الخُلص لا يفعلون شيئاً إلا من أجل رضا الله، ولأن هذا العمل محبوب له سبحانه. وحتى لو لم يثيبهم جزاءً على عملهم، فإنهم يقومون به إذا علموا أن الله يحبّه وأنهم بفعله ينالون رضوانه سبحانه، فهؤلاء لا يحركهم الطمع في جزاء الله ولا الخوف من عذابه.

ولا ريب أن الشخص الساعي وراء نيل رضا الله الذي يؤدي كل أعماله لله، فإنه بالإضافة إلى نيله النعم والمواهب الإلهية الخالدة في الآخرة، فإن الله يعطيه في الدنيا أجراً ويزينه بخصال قيمة سامية. وقد ورد في حديث المعراج ذكر الخصال الثلاث التي يهبها الله للعاملين برضائه، قال تعالى: «فَمَنْ عَمِلَ بِرِضَائِي أَلَزَمْتُهُ ثَلَاثَ خِصَالٍ: أَعْرِفُهُ شُكْرًا لَا يُخَالِطُهُ الْجَهْلُ، وَذِكْرًا لَا يُخَالِطُهُ النُّسْيَانُ، وَمَحَبَّةً لَا يُؤْثِرُ عَلَى مَحَبَّتِي مَحَبَّةَ الْمَخْلُوقِينَ. فَإِذَا أَحَبَّنِي أَحَبَّنِي، وَأَفْتَحَ عَيْنَ قَلْبِهِ إِلَى جَلَالِي، فَلَا أُخْفِي عَلَيْهِ خَاصَّةً خَلَقِي، فَأَنَاجِيهِ فِي ظُلَمِ اللَّيْلِ وَنُورِ النَّهَارِ حَتَّى يَنْقَطِعَ حَدِيثُهُ مَعَ الْمَخْلُوقِينَ وَمُجَالَسَتُهُ مَعَهُمْ»^(١).

إن شكر نعمة الله أمرٌ مطلوب ومسؤولية فطرية وإنسانية، فكل شخص يجب أن يكون شاكرًا لمن يقدم له خدمة أو مساعدة. وبملاحظة أن الله سبحانه تفضل علينا بنعم لا تُعد ولا تُحصى؛ فيجب علينا أن نكون شاكرين له، رغم أننا لا نقدر على إحصاء نعمه اللامتناهية فضلًا عن شكرها حق الشكر، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢).

(١) بحار الأنوار، الجزء ٧٧، الباب ٢، الصفحتان ٢٨ و ٢٩.

(٢) سورة النحل، الآية ١٨.



نحن نعيش في غفلة عن النعم التي منَّ الله بها علينا، بل نحن لا نوّدي شكر النعم الإلهية حتى باللسان، وقد تمضي علينا ساعات ونحن منعمون بالنعم الإلهية وغافلون عنها لا نفكر فيها ولا نلتفت إلى أننا غارقون في النعم الإلهية وأن علينا مسؤولية إنسانية توجب شكرها. ولكننا مهما سعينا إلى شكر النعم الإلهية التي منَّ الله بها علينا فإنه سبحانه سيفيض علينا نعمًا أخرى أكثر، ويؤدّي السعي الخالص لشكره إلى زيادة عنايته ولطفه سبحانه، وتنعم الإنسان بقدر أكبر من النعم الإلهية المادية والمعنوية التي لا حصر لها.

ونظرًا إلى أن إدراك النعم الإلهية وشكرها شكرًا واعيًا هو من الكمالات الكبيرة التي يهبها الله لعبده، فإن أول خصلة يتلطف بها الله سبحانه على عبده المخلص الساعي إلى رضا المعبود، هي معرفة مقام شكره عن وعي وإيمان لا يشوبه جهل بعظمة النعم الإلهية. ولأننا لا نحيط علمًا بكل النعم الإلهية التي مُنحت لنا، فشكرنا محدود قليل يصحبه جحود كثير. وحينما ندرك نعمةً من النعم ونوّدي شكرها، نغفل عن نعم أخرى كثيرة، مما يعني أن شكرنا مصحوب دائمًا بالغفلة والجهل بسائر نعم الله. ولكنه سبحانه منح المخلصين من عباده سعةً وجوديةً كبيرةً ومعرفةً به وبنعمه التي لا تُحصى؛ لذلك نجدهم لا يغفلون لحظةً عن نعمة المادية والمعنوية ويسعون جاهدين لأداء شكرها.

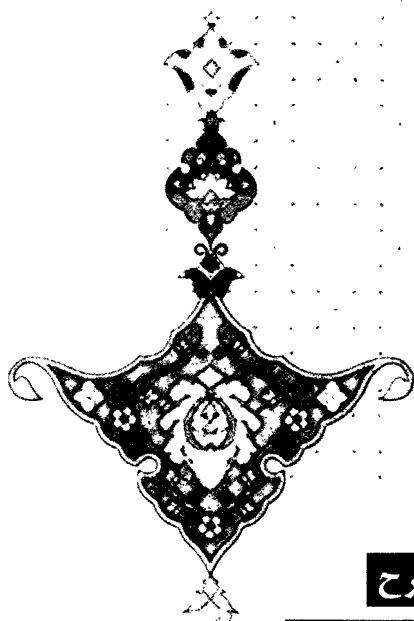
الخصلة الثانية التي يمنحها الله للسالكين في طريق رضوانه هي نظره الدائم إليهم، فهم في هذه الدنيا غارقون في ذكره لا يغفلون عنه لحظة. والتوجّه إلى الله صعب علينا جدًّا، وحينما نخصّص دقائق قليلة من يومنا للصلاة أو الدعاء والمناجاة فإن قلوبنا تكون منشغلةً عن الله، بل نحن نعيش حالة الغفلة عنه، وكلما سعينا لا يمكننا طرد الغفلة عن قلوبنا، ولا نستطيع أن نذكر الله ذكرًا خالصًا. وذلك خلافًا للمؤمن الذي



شمّله لطف الله وعنايته وامتلاً قلبه بعشق الله وحبّه، فإنّه لا يمكنه نسيان الله ولا الخروج من ظل رحمته. وقد منحه الله التفاتاً وذكراً لا يشوبه النسيان والغفلة؛ ولذا فإن هذا العبد لا يغفل عن ذكر معبوده أبداً. فهو عاشق لله وكيف ينسى العاشق معشوقه!.

الخصلة الثالثة التي يهبها الله سبحانه لمن يرضى بإرادته هي أنه يغرس محبته في قلبه فلا يرجح محبة أحد على محبة الله، فتملاً محبة الله عليه قلبه فلا يبقى فيه موطن للآخرين. وإدراك محبة الله الكاملة أمر صعب، فمن الصعب جداً أن نتصوّر أن لا نحب شيئاً أو شخصاً سوى الله، فضلاً عن أن نحب الله حباً حقيقياً ولا نحب ما سواه. وهذه الموهبة والمقام الرفيع لا يناله إلا أحبّاء الله وأولياؤه، وبينما تتعلّق قلوب الآخرين بحبّ الدنيا وحطامها التافه، تنال قلوب أولياء الله الحبّ الإلهي الأصيل الذي لا بديل عنه، ولعظمة هذا الحبّ وسعته لا يبقى في قلوبهم مجال لأيّ محبة تافهة غير إلهية.

وحينما يحمل المؤمن العامل برضا الله في قلبه كل هذا الحبّ لمعبوده، فإن الله سبحانه بدوره سيحبّه ويفتح عين قلبه على رؤية جلاله وعظمته، فيُدْهَش لما يشهده من الجلال الإلهي. وحينها سوف يعرّفه على خاصّة خلقه ممن جهلهم الآخرون، ويوفّقه لرفقتهم ومجالستهم والانتفاع بمعارفهم. ويمنحه فضائلهم وكمالاتهم. ومثل هذا العبد يقف في أوج مراتب ودرجات السمو والعروج إلى الكمال الإنساني فيصل إلى مرتبة لا ينقطع الله فيها عن مناجاته ومحادثته، وبذلك ينال من اللذة ما يجعله مُعْرِضاً عن محاوراة الناس ومجالستهم، إلا في الموارد التي يريدها الله، أو التي أمره فيها بمعاشرة الآخرين ومحادثتهم والسعي لقضاء حوائجهم.



شرح

مناجاة التائبين



المقال الثالث

سبب اعتراف المعصومين عليهم السلام بالقصور

وَرَدَتْ في مناجاة التائبين وسائر المناجيات والأدعية وكذلك في القرآن الكريم^(١) عباراتٌ قد يلوح من ظاهرها ارتكاب المعصوم عليه السلام المعصية. وبالالتفات إلى اعتقادنا بعصمة الأنبياء - ومنهم النبي الخاتم عليه السلام - والأئمة المعصومين عليهم السلام والسيدة فاطمة الزهراء عليها السلام، وكذلك بالالتفات إلى أنهم كانوا معصومين منذ الولادة ولم يصدر منهم أي ذنب، بل يؤمن الكثيرون أنهم لا يصدر منهم حتى ترك الأولى، فحينئذٍ يُطرح سؤالٌ أساسيٌّ مفاده: لماذا وردت في العبارات المشار إليها نسبة المعصية إليهم، وفي موارد أخرى طُلِبَ منهم الاستغفار أو كانوا يتوبون ويتضرعون ويستغفرون، وكيف تنسجم نسبة المعصية والاستغفار إليهم مع مقام العصمة الثابت لهم؟



والسؤال الآخر هو أن رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين يشفعون لأتباعهم يوم القيامة، وطبق بعض الروايات فإنهم يحضرون الإنسان ساعة

(١) كما ورد في حق النبي: ﴿فَأَضْرِبْ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [المؤمن، الآية ٥٥]؛ وكذلك قوله تعالى في حق النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: ﴿فَأَعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد، الآية ١٩].



الاحتضار ونزع الروح وكذلك في الليلة الأولى في القبر أو ليلة الوحشة، ويرفعون عنهم عذاب النزع والوحشة. بل ورد في بعض الروايات أن أمير المؤمنين عليه السلام «قسيم الجنة والنار»^(١)، وأن الجنة والنار بيده، فكل من يراه لائقاً يدخله الجنة، وكل من لا يراه لائقاً يدخله النار، ومع هذه المكانة كيف يبكي عليه السلام من شدة العذاب الإلهي ويتأوه منه؟ ألا يعلم هؤلاء المعصومون كيف سيعاملهم الله يوم القيامة؟ ومعها كيف وعدوا الآخرين بالشفاعة؟

والسؤال الثالث هو أنه ورد في بعض مناجيات المعصومين عليهم السلام تعابير لا تنسجم مع العاصي العادي، فضلاً عن هؤلاء العظماء الذين كانوا في أسمى المراتب. وكمثال لذلك ما قاله الإمام السجاد عليه السلام في دعاء أبي حمزة الثمالي: «فَمَنْ يَكُونُ أَسْوَأَ حَالاً مِنِّي إِنْ أَنَا نُقِلْتُ عَلَى مِثْلِ حَالِي إِلَى قَبْرِي، لَمْ أَمْهَدْهُ لِرَقْدَتِي وَلَمْ أَفْرُشْهُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ لِضَجْعَتِي»^(٢).

فالعاصي العادي لا يقول حين الاستغفار إنه لا يوجد من هو أسوأ حالاً مِنِّي، فلماذا يعبر الإمام السجاد عليه السلام بمثل ذلك في مناجاته؟

فيجب العثور على جواب شافٍ لهذه الأسئلة.

وقد عُرضت عدّة أجوبة في هذا المجال بعضها مناسب ومقنع بخلاف البعض الآخر.

وعلى كل حال سنتعرّض لبيان بعضها فيما يأتي.

(١) المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ٧، الباب ٨، الصفحة ٢٣٢، الحديث ٣.

(٢) مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة الثمالي.



الجواب الأول

إن هذه التعبيرات ليست ناظرة أبداً إلى أحوال وسلوك هؤلاء العظماء الواصلين إلى مقام العصمة، وإنما هي تتناسب مع حال العصاة، إذاً هي في الواقع إنما صدرت منهم من أجل تعليم الآخرين. وقد علّمنا الأئمة المعصومون عليهم السلام في هذه الأدعية والمناجيات كيف ندعو ونتضرّع إذا أردنا التوبة، وفيها تعليم للعصاة المذنبين كيفية الكلام مع الله تعالى ليغفر لهم ذنوبهم.

تقييم الجواب

يمكن من خلال دراسة الأدعية التوصل إلى أن بعضها كان لمجرد تعليم الآخرين، ولم يكن ناظرًا إلى أحوال القائل والمعلّم، من قبيل الأدعية التي علّمها المعصومون لأتباعهم كي يقرؤوها في مناسبات وظروف خاصة. لكن الكثير من الأدعية والمناجيات ليست كذلك، وإنما يخبر فيها المعصوم عن حاله هو. فرسول الله صلى الله عليه وآله والأئمة الأطهار عليهم السلام وكذلك سائر الأولياء والأنبياء يغرقون أحياناً في البكاء أثناء الدعاء والمناجاة إلى حدّ أن يُغمى عليهم. ومن الواضح أن مثل هذه الأدعية المصحوبة بالبكاء والأنين لا يمكن أن تكون لمجرد تعليم الآخرين، ولا شك أنها نابعة من سويداء قلوب هؤلاء العظماء وتصف حالهم. فقد كان الوجد يبلغ بأمر المؤمنين عليهم السلام أثناء مناجاة الله مبلغاً عظيماً فيأخذه البكاء إلى حدّ يُغمى عليه، ولا ريب أن مثل هذه الحالة لا يمكن أن تكون تصنعاً وتمثيلاً من أجل تعليم الآخرين. وقد أمر الله نبيه الأكرم صلى الله عليه وآله في القرآن بالاستغفار^(١)، وكذلك ما ورد في الحديث القدسي من أن الله قال

(١) سورة محمد، الآية ١٩.



لموسى عليه السلام: «هَبْ لِي مِنْ عَيْنِكَ الدَّمْعَ، وَمِنْ قَلْبِكَ الْخُشُوعَ، وَمِنْ بَدَنِكَ الْخُضُوعَ»^(١).

لقد ورد في بعض الروايات أن الله طلب من نبيه أن يسقط أمامه على التراب، وأن يمزغ وجهه فيه ويتملق له خضوعاً لعظمته، من قبيل ما ورد خطاباً لعيسى عليه السلام: «وَأَعْلَمْ أَنَّ سُورِي أَنْ تُبْصِصَ إِلَيَّ»^(٢).

و«بصص» أي: حرّك الكلب ذنبه لصاحبه، فهو يتملق ويتحبّب لصاحبه ويقوم بمسح وجهه بالأرض ولحق قدم صاحبه ويهزّ له ذيله من أجل اجتذاب انتباهه. فكما أن الكلب يُظهر أمام صاحبه منتهى الخضوع والتذلّل والتملّق، فإن الله سبحانه يريد من عيسى عليه السلام أن يُبدي له تمام الخضوع والتملّق أيضاً.

وكذلك ورد في رواية أن أمير المؤمنين عليه السلام أراد من ولده الإمام الحسن عليه السلام أن يبكي على أخطائه^(٣). وورد في القرآن من خطاب الله سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ وَعَلَيْكَ وَبِهِدْيِكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾^{(٤) (٥)}.

(١) الديلمي، إرشاد القلوب، الجزء ١، الباب ٢٢، الصفحة ٩٣.

(٢) الكليني، أصول الكافي، الجزء ٢، الصفحة ٥٠٢، الحديث ٣.

(٣) المحذّث النوري، مستدرك الوسائل، الجزء ١١، الباب ٥١، الصفحة ٣٨٩، الحديث ٢٥.

(٤) سورة الفتح، الآيات ١ - ٢.

(٥) قال العلامة الطباطبائي: «ليس المراد بالذنب في الآية هو الذنب المعروف وهو مخالفة التكليف المولوي، ولا المراد بالمغفرة معناها المعروف وهو ترك العقاب على المخالفة المذكورة، فالذنب في اللغة - على ما يُستفاد من موارد استعماله - هو العمل الذي له تبعه سيئة كيفما كان، والمغفرة هي الستر على الشيء، وأما المعنيان المذكوران المتبادران من لفظي الذنب والمغفرة إلى أذهاننا اليوم أعني مخالفة الأمر المولوي المستتبع للعقاب وترك العقاب عليها فإنما لزامهما بحسب عرف المشرّعين. وقيام النبي ﷺ



فأتضح أن اعتراف المعصومين عليه السلام بالذنب وتوبتهم إلى الله واستغاثتهم به لم تكن لمجرد تعليم الآخرين، وأنهم حقاً أظهروا مثل تلك الحالات والكلام في محضر الله سبحانه، ولم يكن كلامهم وسلوكهم تصنعاً أو غير مناسب لمقامهم وشأنهم.

الجواب الثاني

من الواضح أن الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام ما كانوا يرتكبون ذنباً ولا يفعلون حراماً شرعياً يستحقون عليه العقاب، ولم تصدر منهم أي مخالفة للأوامر الإلهية كي يتوبوا عنها. لكن بما أنهم كانوا في أعلى مراتب القرب الإلهي وغارقين في عظمة كبرياء الحق ومنهمكين بذكره، وبما أن مستوى معرفتهم ومنزلتهم يقتضي التوجه والاتصال الدائم بحضرة الحق، فإنهم كانوا كلما تطلبت حاجاتهم الجسدية القيام بأفعال من قبيل الأكل والشرب ومعاشرة الناس يعدّون ذلك معصيةً كبيرةً صادرة عنهم، ويتوبون عن تلك الأفعال ويستغفرون الله منها. ولتوجيه هذا الكلام يمكن الاستفادة من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله إذ يقول: «وإنه ليُغان على قلبي فأستغفرُ الله في اليومِ سبعينَ مرّةً»^(١).

بالدعوة ونهضته على الكفر والوثنية فيما تقدّم على الهجرة وإدامته ذلك وما وقع له من الحروب والمغازي مع الكفار والمشركين فيما تأخر عن الهجرة كان عملاً منه صلى الله عليه وآله ذا تبعه سيئة عند الكفار والمشركين وما كانوا ليغفروا له ذلك ما كانت لهم شوكة ومقدرة، وما كانوا لينسوا زهوق ملتهم وانهدام سنتهم وطريقتهم، ولا نارَات من قتل من صناديدهم دون أن يشفوا غليل صدورهم بالانتقام منه وإمحاء اسمه وإعفاء رسمه، غير أن الله سبحانه رزقه صلى الله عليه وآله هذا الفتح وهو فتح مكة أو فتح الحديبية المنتهي إلى فتح مكة فذهب بشوكتهم وأحمد نارههم، فستر بذلك عليه ما كان لهم عليه صلى الله عليه وآله من الذنب وأمنه منهم». العلامة

الطباطبائي، تفسير الميزان، الجزء ١٨، الصفحتان ٢٥٣ و ٢٥٤.

(١) المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ٦، الباب ٣، الصفحة ١٨٢.



ويمكن الاستفادة من قول رسول الله ﷺ: «حَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقَرَّبِينَ»^(١)، لإيضاح أن استغفار المعصومين ﷺ وتوبتهم إنما كانت عن الأفعال العادية التي ينبغي للمقربين من الله تركها.

وعليه، فبالرغم من أنه لم يصدر من المعصومين ﷺ أي ذنب أو فعل يتنافى مع عصمتهم، لكنهم بما يتناسب مع شأنهم ومقامهم السامي صَدَرَ منهم التقصير بحسب ما تقتضيه الضرورة؛ ولذلك فإنهم كانوا يتوبون ويستغفرون ويطول بكاؤهم بسببه.

ولزيادة إيضاح الأمر تصوّروا أن شخصيةً عظيمةً حضرت مجلساً فدخل طفلٌ أو شخص ساذج وقام بعمل سخيف أو قال كلاماً أحمق، فنجد الحاضرين في المجلس لا يلتفتون إليه ويتغافلون عنه، ويرون أن سلوك ذلك الطفل أو الأحمق ناشئٌ من نقصان عقله. ولكن إذا صدر من أحد الأتباع أو المريدين المحترمين لتلك الشخصية العظيمة أي تصرف يوحى بأدنى إهانة لتلك الشخصية العظيمة، كما لو مشى مثلاً أمامه أو جلس في مقابله أو أدار له ظهره، أو تكلم كلاماً غير لائق، فرغم أن ذلك لا يُعدُّ إهانةً، لكنه لا يليق بتلك الشخصية العظيمة، فسوف يؤاخذ ويقال له لماذا لم تُراعِ نهاية الأدب في هذا المجلس. ومن هنا فإن الأشخاص ذوي المكانة الرفيعة - أحياناً - يؤاخذون المقربين منهم بسبب زلل أو خطأ بسيط صدر عنهم، مع أنهم لو صدر أضعافه عن غيرهم ممن هم أقل شأنًا لغضوا الطرف عنه.

نموذج آخر: قد ينشغل الإنسان - أثناء الصلاة - بالتفكير في مشاكل الحياة ومصاعبها. ورغم أنه يقف بين يدي الموجود ذي القوة المطلقة وهو الله سبحانه لكنه يغفل عنه، ويبقى قلبه منصرفاً لاهياً عنه، ولكنه

(١) المصدر نفسه، الجزء ٢٥، الباب ٦، الصفحة ٢٠٥، الحديث ١٦.



مع ذلك لا يُؤَاخَذ ولا تُعَدُّ صلاته استخفافاً وتمرداً ومخالفةً للأمر الإلهي. وفي هذا المجال تُنقل حكاية عن المرحوم الآخوند الكاشي^(١) لا يخلو نقلها هنا من فائدة، فقد نُقل أنه ذات يوم كان جالساً في باحة مدرسة «صدر» وشاهدَ أحد القرويين القادمين إلى أصفهان لبيع منتجاته اللبنية وشراء ما يحتاجه من حاجيات، وقد قَصَدَ هذا القروي المدرسة بعد أن أتمَّ عمله للاستراحة وأداء الصلاة، ولكنه كان حين رآه الآخوند مهرولاً إلى حوض الماء حيث توضأ وصلى بسرعة شديدة، فسأله الآخوند: هل هذه التي صليتها تُعَدُّ صلاة؟! فأجابه القروي: لا. فقال الآخوند: فما هي إذا؟ فقال القروي: أنا أعلم أن ما قمتُ به لم يكن صلاةً، ولكنني فقط أحببتُ أن أقول لله إنني لستُ متمرداً على أوامرك. وحينما سمع المرحوم الكاشي هذا الكلام أجهش بالبكاء وقال: إن صلاتك أفضل من صلاتنا.

على أي حال نحن نراعي في صلاتنا الأحكام الظاهرية لنقول لله سبحانه إننا لسنا متمردين على أوامرك ولسنا نواجهك بالمحاربة، ولكن هذه الصلاة نُؤدِّيها فقط لإسقاط التكليف، وهي بعيدة كل البعد عن الصلاة المقبولة والصلاة التي تتضمَّن حضور القلب والتوجُّه الكامل للمعبود فضلاً عن رعايتها الأحكام الظاهرية؛ ولذا فإذا صلى أحد أولياء الله مثل صلاتنا، فإنها سوف لن تُقبل منه وسيؤاخذ حينها مؤاخذهً شديدةً عليها. فهذه الصلاة التي نفخر بها ونأمل أن تُنجينا من العذاب الإلهي، هي بنفسها إذا صدرت عن أولياء الله تُعتبر جرأةً على الله لعدم رعاية الشروط اللازمة وعدم حضور القلب والتوجُّه الكامل للمعبود. وعلى هذا الأساس نفهم مضمون بعض الروايات وهو أن الشخص الذي لا يتوجَّه

(١) أحد العلماء الكبار وأولياء الله الصالحين، كان يسكن في غرفة في مدرسة «صدر أصفهان» وله الكثير من الكرامات.



في صلاته إلى الله ولا يؤدّي صلاته بحضور قلب، فكأنما استهزأ بالله، إذ كيف يمكن لشخص أن يصدّق بأن الله أكبر من كل شيء لكنه لا يحسب له حساباً حتى في الصلاة ويتعلّق قلبه بكل شيء إلا بالله!

إدّاً فالأفعال العبادية الرائعة التي نقوم بها ونفتخر بأدائها، لو صدرت بنفس ذلك المستوى من أولياء الله فإنهم سيستغفرون الله منها ويتوبون عنها، بل وسيكون بكاءً مرّاً بسببها.

وعليه فإن أنبياء الله وأوليائه المعصومين رغم أنهم لا يعصون تكاليف الله بل يسعون لأن لا تشتمل صحيفة أعمالهم حتى على ترك الأولى أيضاً، لكنهم ربّما شغلّتهم شؤون الحياة الدنيا عن أداء حقّ وظيفة العبودية بما يتلاءم ومستوى معرفتهم، فلا تسمح شؤون حياتهم بأن يكونوا دائمي الذكر له سبحانه، وأحياناً تقتضي الضرورات - وبما أنهم بشر - القيام بأمور قليلة الشأن من قبيل قضاء الحاجة، ولذلك كله هم يشعرون بالخجل ويعتبرون هذا معصيةً ويرون أنفسهم مقصرين دائماً؛ ولذلك ينيبون ويتوبون إلى الله.

يقول الإمام الخميني الراحل (رحمة الله تعالى عليه) في تبرير هذا الشعور: إن المريض أو من كُسرت رجله ولا يمكنه النهوض من الفراش أو أن يثني قدميه، إذا زاره شخص عظيم الشأن لعيادته، فهو وإن كان معذوراً لكنه مع ذلك يشعر بالخجل لأنه عاجز عن القيام له وأداء الاحترام، وسيعتذر له بشدّة رغم عجزه. وكذلك أولياء الله بالنسبة للأفعال التي هم مضطرون للقيام بها من جهة، ومن جهة أخرى تكون تلك الأفعال بالشكل الذي لا يمسح لهم الحياء بفعلها أمام الآخرين، فهم في غاية الخجل من القيام بها أمام الله سبحانه، ويشعرون بالذنب والتقصير بسببها، رغم أنه لا بدّ لهم من القيام بها لأنها من ضروريات ومتطلبات الحياة الماديّة ولا فكاك منها.



تقييم الجواب الثاني

٥٧



حاصل الجواب الثاني هو: بما أن أولياء الله يتمتعون بإدراك تام لعظمة معبودهم، ولهم معرفة كاملة به، فإن هذا الإدراك وتلك المعرفة يؤديان إلى أن يعيشوا دائماً في حالة من الإحساس بالتقصير والذنب تجاه عظمة الله. وهذا الجواب إلى حد ما يرشدنا إلى فهم سبب توبة أولياء الله واستغفارهم وبكائهم، لكن يبقى السؤال قائماً حول الأفعال التي هي من لوازم الحياة الدنيوية، ولا تقصير لهم فيها مطلقاً، فكيف تكون هذه الأفعال بهذا القبح في عيون أولياء الله، ونراهم سيكون لهذا الحد خشية العقاب عليها حتى أنهم يُعْمَى عليهم بسببها، أو تصدر منهم عبارات من قبيل: «فَمَنْ يَكُونُ أَسْوَأَ حَالاً مِنِّي إِنْ أَنَا نُقِلْتُ عَلَى مِثْلِ حَالِي إِلَى قَبْرِي»، أو يقولون: «اللهم إِنِّي كُلَّمَا قُلْتُ قَدْ تَهَيَّأْتُ وَتَعَبَّأْتُ وَقُمْتُ لِلصَّلَاةِ بَيْنَ يَدَيْكَ وَنَاجَيْتُكَ أَلْقَيْتَ عَلَيَّ نُعَاسًا إِذَا أَنَا صَلَّيْتُ وَسَلَّيْتُ مُنَاجَاةَكَ إِذَا أَنَا نَاجَيْتُ؟»^(١).

الجواب الثالث

يرى الإمام نفسه أباً للأمة، ويرى أن جميع أتباعه أبناء له؛ المطيع منهم والعاصي، ويرى نفسه مسؤولاً عنهم جميعاً. كما أنه في يوم القيام تُدعى كل أمة بإمامها، ومنهم الشيعة إذ يُدعون بإمامهم، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ فَمَنْ أُوِّيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾^(٢).

(١) مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة الثمالي.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٧١.



وكذلك فإن الأيوين ينسبان خيانة وسوء فعل الأبناء إلى أنفسهم، ويعتذران عما بدر من أبناءهما رغم أنهما ليسا مذنبين.

والإمام حاله كذلك فهو يرى نفسه مسؤولاً عن أتباعه ويُنزّل شأنه إلى مستوى العصاة من أتباعه ويضع نفسه موضعهم ويتكلّم بلسانهم ويرى فعلهم فعله، ورغم أنه معصوم لكنه يتوب بلسان أتباعه.

تقييم الجواب الثالث

إن دراسة الأدعية والمناجيات تكشف لنا عن أن التوبة عندهم ﷺ كانت بصورة جادة وحقيقية، والاستغفار والإحساس بالذنب والقصور والتقصير كان موجوداً لدى الأئمة المعصومين ﷺ، وأن لديهم حالات واقعية جادة تحمل تعابير حاكية عن القصور والتقصير، ولذلك تشتمل أذعيتهم ومناجياتهم على القَسَم والتضرّع والتوسّل إلى الله وطلب العفو والمغفرة منه. ومن المستبعد جداً صدور مثل هذه الحالات والتعابير عن الشخص الذي يرى نفسه مسؤولاً عن الآخرين ويعتذر نيابةً عنهم.

الجواب الرابع

للإنسان مراتب وجودية مختلفة المستويات، والذين وصلوا إلى المراتب العالية من الكمال والقرب الإلهي تكون مراتبهم الوجودية أقوى وأشدّ، وتوجد في الإنسان لكل مرتبة من المراتب الوجودية رغبات ومتطلّبات اقتضائية بما يتناسب مع تلك المرتبة. فإحدى مراتب الإنسان الوجودية هي المرتبة الحيوانية وتتناسب مع هذه المرتبة احتياجات من مثل الحاجة إلى الغذاء، التي تُظهر عنده الرغبة في تناول الطعام. هذه الحاجة تظهر عند الإنسان منذ الولادة، وتوجد في المقابل احتياجات



حيوانية لا يمكن إدراكها منذ الولادة وفي فترة الطفولة، بل تظهر في الإنسان بعد أن يعبر عدّة مراحل من النمو، مثل الشهوة الجنسية التي تنشأ من أجل بقاء النسل والتكاثر، فهذه الشهوة تصل إلى قمة ظهورها حينما يصل الإنسان إلى مرحلة البلوغ الجنسي.

ومن الطبيعي أن جميع الناس - وحتى الأنبياء الإلهيين - باعتبار أنهم بشر عندهم هذه الاحتياجات الحيوانية والنباتية ومقتضياتها، وهذه الاحتياجات تظهر في قسم من مرتبتهم الوجودية.

وثمة في الإنسان مرتبة وجودية أخرى هي المرتبة العقلانية، وهي أعلى من المرتبة الحيوانية، وهي التي يتوفر الإنسان بسببها على إمكانية إدراك الأمور الحسنة والسيئة وما ينبغي فعله وما لا ينبغي، بالإضافة إلى الميول الحيوانية والاحتياج إلى الطعام والملابس والشهوة الجنسية التي كانت من نتائج المرتبة الحيوانية. يصل الإنسان في هذه المرتبة - أي العقلانية - إلى مرحلة البلوغ من خلال نمو مدركاته العقلية والفكرية.

وهناك مرتبة أعلى من المرتبتين السابقتين، وهي المرتبة الروحية الخاصة، التي تظهر إثر التكامل المعنوي ونيل الكمال المطلوب، وتتجلى أعلى درجات هذه المرتبة في الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام، فهم في هذه المرتبة ينالون الحقائق والمعارف التوحيدية الكاملة التي لا يمكن لسواهم الحصول عليها. ونتيجة تلك المرتبة والمعرفة فإنهم ينصرفون عن الاهتمام بالدنيا ولا يهتمهم بعد ذلك من أمرها شيء غير الأنس بالله والخلة بالمعبود، ويستشعرون الألم والحزن بسبب اضطرابهم إلى الاشتغال بالأمور الدنيوية والارتباط بالناس والحديث معهم والحرمان من توفيق الحوار مع معبودهم؛ ولذلك نراهم يسعون إلى الخلاص من معاناة الانشغال بغير الله ونيل لذة الحوار مع المعبود، ومن هنا نجد رسول



الله ﷻ يشعر بالتعب بسبب انشغاله بالشؤون الدنيوية والابتعاد قليلاً عن العبادة وإدراك حضور معبوده، فيطلب من بلال أن يؤذن للصلاة قائلاً: «أرحنا يا بلال»^(١).

ولا شك في أن بعض الناس - ممن نالوا تربيةً صحيحةً، وتعلموا في مدرسة الأنبياء والأئمة المعصومين ﷺ الأوفياء - قد حققوا بعض مراتب ومقامات هؤلاء العظماء (الأنبياء والأئمة) وحصلوا شيئاً من معارفهم الجليلة، وهؤلاء يأتي في قمة برامجهم واهتماماتهم ذكر الله والدعاء الخالص للمعبود، ولا يفضلون على مناجاة الله أي لذة.

من هؤلاء الذين تربوا في مدرسة الأنبياء المرحوم الشيخ محمد حسين الأصفهاني قدس سره الذي ينقل لنا آية الله بهجت رحمه الله بعض أحواله، التي منها أنه كان ملتزماً بقراءة زيارة عاشوراء وأداء صلاة جعفر الطيار كل يوم، وأنه كان قد وضع برنامجاً عبادياً للسنة كلها يلتزم به بشكل يومي، وعند حلول الليل من كل يوم وانتهاء برنامج العبادي والقيام بمحاسبة نفسه على أعماله، كان يضع رأسه على الوسادة ويبكي بكاءً شديداً حتى يبللها. هذه الأحوال إنما تشير إلى ما بلغ قدس سره من مراتب عالية في المعرفة وإلى ما قطع من مدارج الكمال والرقي المعنوي، وإن إدراك هذه المستوى بعيد عن آفاق فهمنا، فضلاً عن أن نعيش مثل تلك التجربة.

وقد روي أن رسول الله ﷺ قال: «بكى شعيب رحمه الله من حب الله عز وجل حتى عمي، فرد الله عز وجل عليه بصره، ثم بكى حتى عمي فرد الله عليه بصره، فلما كانت

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ٧٩، الباب ١، الصفحة ١٩٣.



٦١



الرابعة أوحى الله إليه: يا شعيب إلى متى يكون هذا أبداً منك؟ إن يكن هذا خوفاً من النار فقد أجرتك، وإن يكن شوقاً إلى الجنة فقد أبحتك.

فقال: إلهي وسيدي أنت تعلم أنني ما بكيت خوفاً من نارك، ولا شوقاً إلى جنتك، ولكن عقد حبك على قلبي فلست أصبر أو أراك، فأوحى الله جلّ جلاله إليه: أما إذا كان هذا هكذا فمن أجل هذا سأخدمك كليمي موسى بن عمران^(١).

ومن المعلوم أن بلوغ تلك المراتب العالية له لوازم منها أن يُعدّ التوجّه إلى غير المحبوب ذنباً وإن لم يكن ذلك التوجّه اختيارياً. ومن بلغ هذه المرتبة العالية من القرب الإلهي فلا يمكنه أن يغفل لحظة عن الأنس بمعبوده، فهو شبيه بمن التقى محبوبه بعد فراق طويل وجلس معه في مجلس خاص مستأنساً بوصاله، فلو فكّر في ذلك المجلس بنفسه أو بأي شيء غير محبوبه فسوف يُلام على ذلك لأنه لم يعرف قدر مجالسة المحبوب، وعلى الأقل سيشعر بالخجل أمام نفسه ويلومها بسبب تفكيره - حتى وإن كان من غير اختياره - بغير معبوده ومعشوقه، وسيكون منه عندها التضرّع والبكاء والاستغفار.

وبلحاز اختلاف الأفق المعرفي ودرجات الكمال الموجود بيننا وبين أولياء الله، فإن بعض الحالات والسلوكيات التي تبعث فينا سعادة كبيرة وتُعدّ بالنسبة إلينا ذات قيمة عالية، هي بنفسها تُعدّ بالنسبة إلى أولياء الله سلوكيات وحالات ممزوجة بالقصور والتقصير، ويرون أنفسهم بسببها مستحقّين للمؤاخذة ومن هنا نراهم يستغفرون ويتوبون.

(١) المصدر نفسه، الجزء ١٢، الباب ١١، الصفحة ٣٨٠، الحديث ١.



وقد روي أن نبي الله داوود عليه السلام خطر في ذهنه لحظة أن الله لم يخلق من هو أعلم منه، وحينئذٍ وضعه الله أمام امتحانٍ صعبٍ للغاية، وأرسل إليه ملكين على صورة رجلين هبطاً^(١) من سطح محرابه ونزلاً إليه قائلين: ﴿خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ۝﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ۝ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۝^(٢)

وحينما لم ينجح داوود عليه السلام في الامتحان الإلهي ولم يراعِ موازين القضاء والحكم، وحكم بين المتخاصمين دون أن يطلب من المدعي دليلاً على دعواه وقبل أن يسمح للمدعى عليه الدفاع عن نفسه، ندم على ما فعل وأمضى أربعين يوماً ساجداً باكياً لا يرفع رأسه من السجود إلا في وقت الصلاة، إلى أن تقرَّح جبينه وسالت الدماء من عينيه^(٣)، حتى شمله العفو الإلهي، وجعله الله خليفةً في الأرض، ﴿فَعَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ ۝﴾ يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا الْحِسَابَ ۝^(٤)

(١) المصدر نفسه، الجزء ١٤، الباب ٢، الصفحة ٢٤، الحديث ٣.

(٢) سورة ص، الآيات ٢٢-٢٤.

(٣) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ١٤، الباب ٢، الصفحة ٢١، الحديث ١.

(٤) سورة ص، الآيات ٢٥-٢٦.



٦٣



وحاصل الجواب الرابع هو أن للإنسان مراتب وأبعادًا وجوديةً مختلفة، وأن من خصوصياته أنه يستطيع في أي حال التركيز على إحدى تلك المراتب والأبعاد وتوجيه انتباهه إليها.

ومنه نفهم أن الإنسان البالغ درجات الكمال النهائي وأسمى مراتب القرب الإلهي إذا وجّه انتباهه إلى مقام النبوة، والإمامة، ومقام وساطة الفيض، الذي هو أعلى موهبة إلهية، فإنه يكون من أحواله عند التوجّه إلى هذه المرتبة العالية أن يقول: «أنا قسيم الجنة والنار»^(١)، وهو في هذه الصورة يُخبر عن الموهبة والمرتبة العالية التي تَفَضَّل الله بها عليه.

ولكن هذا الإمام نفسه حينما يلتفت إلى منشئه وهو النطفة الحقيرة الفاقدة للشعور التي لا تُعَدُّ شيئًا، وإلى أنه قد تَرَبَّى وتقدّم إلى أعلى المراتب بفضل اللطف الإلهي يقول: أنا تلك النطفة الحقيرة وكل ما عندي من كمال وجمال ونعم فهي منك يا ربّ.

وكذلك حينما يلتفت إلى مقام الحيوانية، وهي العنصر المشترك بين جميع الناس ومنشأ الغرائز والنفس الأمارة وإغواء الشيطان، يقول: إلهي أنت منحتني مقام العصمة وحفظتني من المعصية والطغيان، فلولا لطفك وفضلك لكان حالي حال الآخرين، ولكنت واقعًا في أسرٍ وساوس الشيطان وهوى النفس، ولسقطتُ في مستنقع المعصية.

وحينما يتأمل في فقره الذاتي ويرى أن ذاته منشأ جميع أنحاء النقص، والمحدودية، والفقدان، وفي المقابل يرى الله منشأ الغنى كله والكمالات أجمع، فإنه ينسب النقص كله إلى ذاته ويقول: إلهي أنا

(١) الكليني، أصول الكافي، الجزء ١، الصفحة ١٩٧، الحديث ٢.



الجاهل الفقير، وأنت يا إلهي مَن منحني الحياة ووهبني العقل ورزقني
مقام العصمة وحَفَظَني من الانحراف والزلل.

إن الذين وصلوا إلى مقام القرب ونالوا جميع مراتب المعرفة الإلهية
والكمال الإنساني وحظوا بتلك الرحمات الإلهية قَدَّمُوا لنا تعاليمَ تربويةً
منها: يجب على الإنسان أن لا يرى نفسه شيئاً يُذكر، وينبغي له أن ينسب
جميع الأمور الحسنة والكمالات إلى الله سبحانه وتعالى؛ لأنه عند ذلك
سيدرك أنه فقير محض وفي نهاية الذلة والفاقة والمسكنة، وسيؤمن أنه لا
يملك شيئاً ليتفاخر به بل كل ما عنده عارية وأمانة إلهية. وعندما يلتفت
إلى أن فقره الذاتي هو منشأ الجهل، والجهالة، والمعصية، والفساد،
سيقول: إلهي أنا في معرض المعصية والفساد، فاحفظني بلطفك من
المعصية والانحراف. وهناك الكثير من الإشارات في الآيات والروايات إلى
هذه الدرجة من المعرفة، منها ما علّمه الله سبحانه لنبيه ﷺ قائلاً: ﴿مَا
أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ
لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾^(١).

وبهذه الأجوبة ترتفع الشبهات والأسئلة المرتبطة بتوبة
المعصومين عليهم السلام واستغفارهم واعترافهم بالمعصية والتقصير أمام الله،
ويتضح أن خوف الأنبياء وسائر المعصومين من العذاب الإلهي، وبكاءهم،
وتوبتهم وإنابتهم إلى الله، وحالاتهم وتصرفاتهم، كانت واقعية، لا تصنعاً
لمجرد تعليم الآخرين.



المقال الرابع مكانة التوبة ومراحل تحقّقها

مفهوم التوبة

قبل البدء بشرح المناجاة الأولى من المناجيات الخمسة عشر للإمام السجاد عليه السلام وهي «مناجاة التائبين»، لا بأس بأن نبحث أولاً حول مفهوم التوبة.



«التوبة» في اللغة هي الرجوع. وفي الاصطلاح والعرف هي عبارة عن الرجوع عن المعصية إلى طريق الصواب، وبعبارة أخرى: هي الرجوع عن حالة الابتعاد عن الله والوقوع في المعصية إلى أحضان القرب والتقرب الإلهي، والنتيجة هي ترك المعاصي في الحال والتصميم على تركها في المستقبل.

قال الراغب الأصفهاني: «التوبُ (وهو تعبير آخر عن التوبة) تركُ الذنب على أجمل الوجوه، وهو أبلغ وجوه الاعتذار، فإن الاعتذار على ثلاثة أوجه: إما أن يقول المُعتذر لم أفعل، أو يقول فعلت لأجل كذا (وهو



في الواقع يريد تبرير فعله)، أو فعلت وأسأت وقد أقلعت. ولا رابع لذلك، وهذا الأخير هو التوبة»^(١).

والتوبة تُنسب أحياناً إلى العبد، وفي هذه الصورة تُتعدّى بـ«إلى»، وتكون بمعنى رجوع العبد إلى الله بالاستغفار وترك المعصية. وأحياناً تُنسب إلى الله، وفي هذه الصورة تُتعدّى بـ«على»، وهي بمعنى قبول توبة العبد ورجوع الله إلى عبده بإفاضته ورحمته ولطفه.

أدلة وجوب التوبة

تقتضي الفطرة الإنسانية الحركة في طريق الله والسير على الصراط المستقيم والقيام بأعمال الخير. لكن أحياناً تؤدي العوامل الشيطانية إلى انحراف الإنسان عن مسيره إلى الله والابتعاد عن الطريق الذي ترسمه الفطرة التي أودعها الله في الإنسان، وتدفع الإنسان إلى فعل الشرّ وارتكاب المعاصي. وفي هذه الحالة تكون التوبة بمعنى الرجوع إلى المسير الصحيح والطريق الذي حدّده الله للإنسان والاستجابة لنداء الفطرة.

ولا ريب في أن التوبة والرجوع عن المعاصي والزلل واجبٌ عقلاً، وأدلة وجوب التوبة عقلاً هي:

١. وجوب شكر المنعم: فالتوبة تتضمن شكر المنعم؛ لأن العصيان والتمرد على الأوامر الإلهية مصداق بارز لنكران النعمة والكفر بها، وأفضل شكر لله هو إطاعته والخضوع لأوامره، ومن أجل العودة إلى شكر الله يجب على الإنسان أن يتوب أولاً.

(١) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، الصفحة ١٦٩.



٢. لزوم دفع الضرر: إنَّ أكبر ضرر يصيب الإنسان هو الابتلاء بالعذاب الإلهي نتيجةً لعصيانهِ سبحانه، ومن هنا يجب على الإنسان التوبة دفعًا لهذا الضرر الخطير.

وكذلك تجب التوبة في الشرع، وقد دلَّت على وجوبها الآيات والروايات الكثيرة، وفيما يلي نُشير إلى جانب منها باختصار:

بعد أن يوصي الله سبحانه المؤمنين بالحجاب أمام الرجال غير المحارم وبأن لا يُظهروا زينتهنَّ إلا لمحارمهن، يقول تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١).

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾^(٢).

وفي موضع آخر يتحدث عز وجل عن الذين تُقبل توبتهم: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(٣).

وقد وَرَدَ في رواية عن مُعَاوِيَةَ بْنِ وَهَبٍ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ (عليه السلام) يَقُولُ: «إِذَا تَابَ الْعَبْدُ تَوْبَةً نَّصُوحًا أَحَبَّهُ اللَّهُ فَسَتَرَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ».

فَقُلْتُ: وَكَيْفَ يَسْتُرُ عَلَيْهِ؟

(١) سورة النور، الآية ٣١.

(٢) سورة التحريم، الآية ٨.

(٣) سورة النساء، الآية ١٧.



قَالَ: «يُنْسِي مَلَكَهُ مَا كَتَبَا عَلَيْهِ مِنَ الذُّنُوبِ وَيُوجِي إِلَى جَوَارِحِهِ
اِكْتُمِي عَلَيْهِ ذُنُوبَهُ وَيُوجِي إِلَى بَقَاعِ الْأَرْضِ اِكْتُمِي مَا كَانَ يَعْمَلُ عَلَيْكَ
مِنَ الذُّنُوبِ فَيَلْقَى اللَّهَ حِينَ يَلْقَاهُ وَلَيْسَ شَيْءٌ يَشْهَدُ عَلَيْهِ بِشَيْءٍ مِنَ
الذُّنُوبِ»^(١).

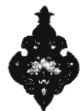
أداء التوبة

نظرًا لأهمية التوبة ودورها في تصحيح سلوك الإنسان وتغيير مصيره،
فمن المناسب أن نتعرف على خلفية نشوء التوبة لنرى في أي الظروف
والأحوال تبرز عند الإنسان إرادة التوبة، وما هي الأمور التي تقف مانعًا
أمام تحققها.

لا ريب أن التوبة ليست أمرًا قهريًا، وإنما هي اختيارية إرادية. ومن
الطبيعي أن ليس من السهل تحقق إرادة التوبة والتصميم عليها.

وتوضيح ذلك: ثمة أمورٌ تتحقق إرادتها بسهولة، كإرادة الكلام مثلاً،
فالإنسان قد يريد - وبسهولة - الكلام كما قد يريد بسهولة السكوت،
ومثل هذه الإرادة لا تحتاج إلى مؤونة ومقدمات خاصة. لكن أمورًا من
قبيل الصلاة وتلاوة القرآن ليست كذلك، ولا تتحقق إرادتها فعلها بسهولة
عند الإنسان. وحين يقوم الإنسان بتحليل حالاته النفسية فإنه يفهم
أن إرادة جميع الأعمال لا تتحقق على نسقٍ واحد. فالإرادة - بمعنى
التصميم والعزم - هي من أفعال النفس، أو هي كيفية نفسانية تظهر
بعد التصوّر، والتصديق، والشوق. بمعنى: أن الإنسان - وفي المرحلة
الأولى - يتصوّر عملًا، ثم يصدّق بفائدته، ثم بعد هذين العلمين تنشأ

(١) الكليني، أصول الكافي، الجزء ٢، الصفحة ٤٣٠.



عنده حالة من الشوق إلى القيام به، وبعد اشتداد الشوق تتحقق إرادة ذلك الفعل، فتبدأ عضلات الجسم بالحركة للقيام به.

وبه اتضح أن المقدّمة الأولى والأرضية الممهّدة لظهور الإرادة هي العلم، فما لم يطلع الإنسان بشكل كامل على شيء فلا يمكن أن تنشأ عنده الرغبة فيه ولا أن تظهر إرادته. ومثال ذلك أن الإنسان حينما يقرأ في الصحف أو يسمع في المذياع أو يشاهد في التلفاز برامج تتحدّث عن فوائد الخضروات والفواكه وتأثيرها في الوقاية من السرطان، ويصدّق بهذه الفوائد، فإنه سيسعى إلى الإكثار من تناولها وجعلها جزءاً من نظامه الغذائي.

فمجرد العلم والتصديق بالفائدة لا يكفي إذا لوجود الإرادة والعزم عند الإنسان، بل من أجل تحقيق الإرادة يُشترط - ومضافاً إلى ما تقدّم - وجود الرغبة عند الإنسان في تناولها، وحينئذٍ تنشأ لديه إرادة الانتفاع منها.

ثم إن الإنسان قد يعلم أحياناً بشيء ويصدّق بفائدته وتتحقق عنده الرغبة فيه إلى حدّ ما، لكنه مع ذلك لا تنشأ عنده الإرادة والعزم على فعله. والسبب في ذلك هو أن رغبته ليست قويّة بالقدر الكافي، بل توجد عنده رغبة أشدّ للقيام بعمل آخر، وإرادة الفعل الآخر تقف مانعاً عن تحقيق إرادة هذا الفعل. فمثلاً يعلم الإنسان بفوائد الخضراوات، لكن بما أن لذّة تناول المشويات والأطعمة الدسمة أشدّ فإنه يفضّلها على الخضراوات، وبشكل طبيعي عندما يواجه الإنسان لذّتين فإنه يؤثر ويرجّح اللذّة الأقوى. نعم في بعض الحالات، ونتيجةً لجريان العادة، قد يرجّح الإنسان العمل ذا اللذّة الأقل، بل والفاقد للذّة المعقولة، على العمل ذي اللذّة الأشدّ، من قبيل المدخّنين فإنهم في شهر رمضان المبارك يباشرون إفطارهم بالتدخين، حتى قبل تناول طعام الإفطار، ونراهم يفضّلون الطعم المرّ والرائحة الكريهة للسيجارة على الأطعمة الحلوة اللذيذة ذات الروائح الزكيّة.



إن السبيل إلى تحقّق إرادة التوبة هو أن ينشأ عند الإنسان أولاً العلم بضرر المعاصي، والعلم بقيمة التوبة ودورها، وفي المرحلة الثانية يقوّي هذا العلم والاتّفات في نفسه ولا يدعه يخمل ويذهب إلى زاوية النسيان.

ومعلوم أن التصديق بضرر بعض الأعمال لا يتحقّق بسهولة: حيث يعتقد أغلب الناس، مثلاً، أن التدخين مضرّ، واعتقادهم هذا ناتج عن اطلاعهم على نتائج البحوث التي أجراها الأطباء وأثبتت ضرر التدخين، مضافاً إلى تكرار بيان هذه الأضرار عبر مختلف وسائل الإعلام. أما ضرر الذنوب، أو على الأقل بعضها، فليس بواضح للجميع، وخاصةً مع ملاحظة لذة المعصية في بعض الموارد وكون ضررها غير محسوس، فإن الإنسان عاجزٌ عن أن يصدّق بسهولة وجود الضرر فيها. وهذا التصديق والمعرفة إنما يتحقّقان بمطالعة الآيات والروايات ومراجعة الأدلة العقلية.

إذاً ففي الخطوة الأولى من التوبة يجب أن يتّضح للإنسان ضرر المعصية وفائدة التوبة، وبدون مثل هذا الوضوح سوف لن تظهر إرادة للتوبة عند الإنسان.

عَدَّ بعض العلماء - كالفيض الكاشاني قَدْ سَمِعْتُهُ - العلم بضرر المعصية جزءاً من التوبة، واعتبر أن التوبة تتكون من العلم وحالة التألم والندم، ومن فعل الإنسان بما يعتقد أنه في هذا المجال. والعلم عبارة عن معرفة عِظَم ضرر المعاصي وإدراك أنها تشكّل حجاباً بين العبد والمعبود. فحينما ينال الإنسان هذه المعرفة ويتيقّن من ضرر المعاصي، فسيملأ الحزن قلبه، ويهيمنُ الندمُ على وجدانه، فيعزم ويقرّر أن لا يلوّث نفسه



بالمعصية ويلتزم بأن لا يعود إليها طوال حياته، ويحاول القيام بما يتدارك به المعاصي التي صدرت منه في الماضي^(١).

وعلى أي حال فسواء عَدَدْنَا العلم والتَّأْلَم والندم على الفعل القبيح جزءاً من التوبة أم قلنا إنها من مقدّمات التوبة، وأن التوبة هي العزم على ترك المعصية وتدارك المعاصي الماضية والعزم على تجنّب المعصية في المستقبل، فالتوبة تتم ضمن عملية تبدأ بالعلم بضرر المعصية والمنافع والمصالح التي يحصل عليها الإنسان جرّاء التوبة وتدارك المعاصي، ثم حالة الندم من السلوك القبيح الصادر في الماضي، وأخيراً العزم والإرادة على ترك المعصية وتدارك المعاصي التي ارتكبتها الإنسان في الماضي.

(١) الفيض الكاشاني، **المحجبة البيضاء**، الجزء ٧، الصفحة ٥، ونص عبارته هو: «اعلم أنّ التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتزم من ثلاثة أمور مرتبة: علم وحال وفعل، فالعلم أوّل والحال ثانٍ والفعل ثالث، والأوّل موجب للثاني والثاني موجب للثالث إيجاباً اقتضاه أطراد سعة الله في الملك والملوكوت، أمّا العلم فهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجاباً بين العبد وبين كلّ محبوب، فإذا عرف ذلك معرفةً محقّقةً بيقينٍ غالبٍ على قلبه ثار من هذه المعرفة تألّم للقلب بسبب فوات المحبوب، فإنّ القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألّم، فإن كان فواته بفعله تأسّف على الفعل المفوّت فيسمّى تألّمه بسبب فعله المفوّت لمحجوبه ندماً، فإذا غلب هذا الألّم على القلب واستولى انبعث من هذا الألّم في القلب حالة أخرى تسمّى إرادةً وقصداً إلى فعلٍ له تعلّق بالحال وبالماضي والاستقبال، أمّا تعلّقه بالحال فبالترك للذنوب الذي كان ملائماً له، وأمّا بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنوب المفوّت للمحبوب إلى آخر العمر، وأمّا بالماضي فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء إن كان قابلاً للجبر، فالعلم هو الأوّل وهو مطلع هذه الخيرات، وأعني بهذا العلم الإيمان واليقين، فإنّ الإيمان عبارة عن التصديق بأنّ الذنوب سموم مهلكة، واليقين عبارة عن تأكّد هذا التصديق وانتفاء الشكّ عنه واستيلانه على القلب، فيشمر نورُ هذا الإيمانِ مهما أشرق على القلب ناز التدم فيتألّم به القلبُ حيث يبصر بإشراق نور الإيمان أنّه صار محجوباً عن محبوبه كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمةٍ فيسطع النور عليه بانقشاع سحبٍ أو انحسار حجابٍ فرأى محبوبه وقد أشرق على الهلاك فتشتعل نيران الحبّ في قلبه فتنبعث تلك النيران بإرادته للانتهاض للتدارك، فالعلم والندم والقصد المتعلّق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي ثلاثَةٌ معانٍ مرتبةٌ في الحصول يُطلق اسم التوبة على مجموعها، وكثيراً ما يُطلق اسم التوبة على معنى التدم وحده ويُجعل العلم كالسابق والمقدّمة والترك كالثمرة والتابع المتأخّر».



التوبة علاجٌ ضروريٌ لقضاء العمر في معصية الله

عادةً ما يكون الشخص الذي يتوخى السلامة مراعيًا الإرشادات الصحيّة، ويسعى دائمًا إلى تناول الطعام الصّحي، واجتناب الأطعمة الملوّثة وغير الصالحة. وإذا علم أنه تناول طعامًا مسمومًا أو فاسدًا ومَرِضَ بسببه، فإنه يحزن كثيرًا لإهماله وتناوله الطعام الفاسد الذي عرّض صحّته للخطر.

وكذلك الشخص الذي يعلم ضرر المعصية ويعلم أنّها كالسمّ المهلِك تمرّض روح الإنسان، فإنه يندم على فعلته، ويأسى على ثروة عمره التي أضاعها هباءً مقابل شيء لم ينله. فالإنسان يمكنه أن يُجري معاملةً مع الله في قبال عمره، وأن ينتفع من دقائقه بإنفاقها بعبادة الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخدمة الآخرين، وأن يحصل مقابل دقائق يقضيها في العبادة على أجرٍ أخروي لا يُحصى، ورضوانٍ إلهي لا يمكن تقييمه بالمعايير المادّية والدنيوية. وعليه فإن الشخص القادر على إمضاء وقته بعبادة الله، ويحصل مقابل ذلك على الجَنّة ونعيمها الأبدي الذي لا يُحصى، ألا يشعر بالندم والحزن إذا أمضى ساعةً من عمره الثمين في المعصية ومشاهدة الأفلام الإباحية، وضيّع هذه الثروة العظيمة التي لا ثمن لها إلا الجَنّة ونعيمها الخالد؟

الشخص الذي أضاع عمره الغالي بلا ثمن، بل وجلب لنفسه الغضب الإلهي الذي يوجب استحقاق العذاب الإلهي في الآخرة ما لم يتب، يجب عليه أن يندم كثيرًا على ما صدر منه. وأول علامة لهذا الندم هي أن لا يستمر في فعله القبيح ويعزم على أن لا يعود لمثله في المستقبل وأن لا يُفسد سعادته الدنيوية والأخروية. وكذلك عليه أن يسعى إلى تدارك الأعمال القبيحة التي صدرت منه وأن يسعى إلى تنظيف قلبه ودفتر أعماله من تبعات المعاصي وأضرارها. وإذا كان قد قصر في أداء صلاته أو صومه، فعليه أن يسارع إلى قضاء ما فاتته، وإذا كان قد اعتدى على مال الآخرين عليه ردّه إليه.



٧٣



وإذا ندم الشخص وتاب عن فعله القبيح، لكنه أوكَل تدارك نتائج ذلك الفعل إلى المستقبل، فلا شك في أنه لا يُعَدُّ تائبًا توبةً حقيقية، بل لعله لم يصدّق ويدعن بضرر المعصية والخسائر الناجمة عنها. لأننا لو فرضنا أنه وُضع أمامنا طعام مسمومٌ - مثلاً - فهل يمكن أن يحدث عاقلٌ نفسه بتناول هذا الطعام اليوم، مع نية الامتناع عن تناوله غدًا؟ إن الإنسان العاقل سيأبى أن يتناول حتى لقمةً واحدةً من هذا الطعام المسموم، لعلمه بأن ذلك يعرّض حياته للخطر. إلا أن يكون غارقًا في مستنقع الشيطان، كالمدمنين على المخدرات، فهؤلاء رغم يقينهم بأضرارها الجسدية والنفسية والمصائب والويلات التي يتعرّضون إليها بسببها لا يستطيعون الإقلاع عن تناول هذه السموم الفتاكة المدمرة للإنسان والأسرة والمجتمع!!

موانع التوبة

يجب علينا جميعًا بذل الجهد لكي لا نبتيلى بآفة التسويف وتأخير التوبة، وإذا ما ابتلينا بهذه الآفة الخطيرة وضاعت منّا الفُرص وأتلفنا عُمرنا الثمين، ولم نتدارك الخسائر المعنوية الناتجة عن المعاصي بسبب التسويف وتأجيل التوبة يومًا بعد آخر، فيجب علينا حينئذٍ السعي لعلاج هذه الآفة^(١).

(١) يقول المرحوم الفيض الكاشاني حول التسويف: «وأما تسويف التوبة فيعالجه بالفكر في أن أكثر صياح أهل النار من التسويف؛ لأنّ المسوّف يبيّن الأمر على ما ليس إليه وهو البقاء فلعله لا يبقى، وإن بقي فلا يقدر على الترك غدًا كما لا يقدر عليه اليوم، فليت شعري هل عجز في الحال إلا لغلبة الشهوة، والشهوة ليست تفارقه غدًا، بل تتضاعف؛ إذ تتأكد بالاعتیاد، فليست الشهوة التي أكدها الإنسان بالعادة كالتّي لم يؤكدها، وعن هذا هلك المسوّفون؛ لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين ولا يظنون أن الأيام متشابهة في أن ترك الشهوات فيها أبدًا شاقّ، وما مثال المسوّف إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة فأراها قويّة لا تنقلع إلا بمشقة شديدة فقال: أخرها سنة ثم أعود إليها وهو يعلم أن الشجرة كلّما بقيت ازداد رسوخها، وهو كلّما طال عمره ازداد ضعفه فلا حماقة في الدنيا أعظم من حماقته». المصدر نفسه، الصفحة ١٠١.



إننا رغم إدراكنا أهمية الكثير من الأمور - سواء فيما يرتبط بالتوبة أو بالأعمال الأخرى من قبيل الدراسة - نؤخر أحياناً القيام بها، وتؤدّي بنا وسوسة الشيطان إلى عدم الاستفادة الصحيحة من العمر، وبالأخص من بين تلك الأمور فنحن نقصّر في أمر التوبة. حيث نندرّع في مرحلة الشباب بأن من حقنا الاستمتاع بتلك المرحلة من العمر ولذاتها، فنرتكب المعاصي والذنوب فيها، ثم نُمني أنفسنا ونعدها بالتوبة في مرحلة الشيخوخة. وإننا قد نفقد أحياناً القدرة على التفكير في التوبة نتيجةً للغرق في مستنقع الذنوب واللذات الدنيوية، ويكون أصل الكلام على التوبة وترك الملذات والشهوات مرفوضاً وغير مستساغ. ولا بد في حالة كهذه أن نبحث عن الأمر الذي يقف عقبةً ومانعاً أمام التوبة ويؤدّي إلى الغلظة عنها.

ويمكن إرجاع العوامل التي تسدّ طريق الفلاح والإنابة - أي: موانع التوبة - إلى عاملين هما:

١. هوى النفس: الذي يقف عقبةً أمام السمو والتقدّم، ويعيق الصعود إلى قمم المعنويات الشامخة، كما قال رسول الله ﷺ: «أَعْدَى عَدُوَّكَ نَفْسُكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ»^(١).

فالأشخاص الذين سقطوا في مستنقع المعصية وغرقوا فيه، ولم يشغلوا بالهمم بالتفكير في سلوكهم القبيح وما ينتظرهم من حساب في الآخرة، إنما منعهم هوى النفس من الانتفاع من الرحمة والفيض الإلهي.

٢. الأمانى البعيدة: التي تجعل الإنسان خيالياً، ولا تدع له فرصةً للتفكير والتأمل الصحيح في الطريق الطويل الصعب الذي عليه أن

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ٧٠، الباب ٤٥، الصفحة ٦٤، الحديث ١.



٧٥



يسلكه مستقبلاً، ذلك الطريق الذي يخبرنا عنه أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً: «آه مِنْ قِلَّةِ الزَّادِ وَبُعْدِ السَّفَرِ وَوَحْشَةِ الطَّرِيقِ وَعِظَمِ الْمَوْدِ»^(١).

ومن أجل أن ينال الإنسان توفيق التوبة ويتمكن من تجاوز العقبات الصعبة التي تحول دونه والتوبة، فعليه أولاً الاستعانة بالله، وثانياً التوسل بأولياء الله الصالحين والأئمة المعصومين عليهم السلام، وتقوية ارتباطه بهم. ولا ريب أن الشخص الذي يرتبط قلبه بأولياء الله ويجعل محبتهم أكبر ثرواته، عند علمه أن قلب إمام العصر عليه السلام يتألم من ذنوبه، فسوف تزداد دوافعه إلى التوبة وترك المعاصي وتقوى إرادته بذلك.



المقال الخامس أداء التوبة

الالتفات إلى ضرر المعاصي

يتوقف دافع الإنسان نحو التوبة على إدراكه أضرار المعصية وفوائد التوبة ودورها في صيانة الإنسان من الذنوب وتدارك الخسارة الناجمة عنها. ويختلف الناس في مستوى إدراكهم أضرار المعصية، فكل شخص يُدرك تلك الأضرار بما يتناسب مع مستواه المعرفي.

فالبعض - على فرض إدراكهم أضرار المعاصي وتنبيههم إليها - يقتصر إدراكهم هذا على الأضرار المادية للمعصية، وقلما يُعيرون اهتماماً للأضرار المعنوية. فهؤلاء لا يدركون من أضرار المعصية سوى الأضرار الجسدية التي تظهر على شكل أمراض وضعف في الجسم، مع أن الآفات والأضرار النفسية في أغلب المعاصي تكون أشد من الجسدية، وهي من قبيل الحيرة، والضياع، والكآبة، والخمول وفقدان التركيز. إن القسم الأكبر من الناس يتنبّه إلى الأمراض الجسدية ويسعى إلى علاجها ويتجاهل الأمراض الروحية التي لها من النتائج الخطيرة أكثر مما للأمراض الجسدية. هؤلاء لا يفكرون في شدة ألم ومعاناة المذنبين الروحية، ولا



ينظرون إلى أهل التقوى والمؤمنين بالله حقًا الذين يعيشون حياةً خاليةً من هذه الأمراض والآفات، وينعمون بالاستقرار النفسي وراحة البال، فلا تؤثر عليهم مصاعب الحياة أدنى تأثير، بل يعيشون في ظلّ الاعتماد على الله بسلامة وعافية، ويخوضون أشدّ المصاعب صابرين دون شكوى، ويتجاوزون العقبات باستقامة وثبات. إنّ هؤلاء المؤمنين الصادقين يحافظون على وقارهم وسكينتهم الروحية وصلابة إرادتهم أمام سيل المصائب والمصاعب الشاقة، مما يدفع من يراهم في حالهم هذا إلى العجب.

تختلف حال المؤمنين عن غيرهم من الناس، الذين قد تصيبهم أدنى مشكلة تواجههم بشديد الانزعاج وتُفقدتهم السيطرة على أنفسهم فيصدر منهم سلوكٌ أو كلامٌ غير متّزن، فتجد المؤمنين الصادقين مواظبين دائمًا على ضبط أنفسهم في كل الظروف، فلا يخرج الواحد منهم جراء إساءةٍ تعرّض إليها عن طوره، وليس ذلك لأنهم لا يدركون قبح فعل الآخرين، بل لعدم اكتراثهم لمثل هذا السلوك، واعتبارهم إياه ناشئًا عن جهل الآخر، وهو في نظرهم مما لا يليق بشأنهم الانفعال إزاءه.

إن الواحد منا ليفقد السيطرة على نفسه لو أهانه شخصٌ في مجلسٍ عام، ولو لم يردّ عليه بعنف، فعلى الأقل سيغضب منه ويلومه ويعتفه، وليس كذلك حال المؤمنين الصادقين، فإنك تجدهم في مثل هذه الحالات يحافظون على هدوئهم النفسي ووقارهم ورباطة جأشهم، ويجيء ردّ فعلهم تجاه إهانة الآخرين ردًا بناءً تربويًا. ومن هنا يجب أن نعدّ طمأنينة البال ورباطة الجأش والثبات من النعم الإلهية العظيمة التي تجعل الإنسان مستقرًا، لا يضطرب ولا يتزلزل أمام مصاعب الحياة وحوادث الأيام.



هذه الصفات كثيرًا ما نجدُها عند العلماء والشخصيات الدينية الكبيرة، الذين يمتَّعون بالسكينة ورباطة الجأش والصلابة في ظل توكُّلهم على الله، ومن بين هؤلاء كان المرحوم آية الله السيد رضا بهاء الديني رحمته الله، الذي كان يمتَّع بسكينة كبيرة، وكان كالجبل الأشم لا تهزّه أشدُّ المصاعب والأحداث الجسام، ولا تتسرَّب إلى نفسه ذرَّة من الاضطراب والتزلزل. وقد شهدناه في أحداث المجزرة التي ارتكبها نظام الشاه في الخامس عشر من خرداد (عام ١٩٦٣م)، حين فَقَدَ أغلبُ المجاهدين الثوريين صبرَهم وتحملَهم، كان رغم الألم الذي يعتصر قلبه الكبير صابرًا محتسبًا، لما كان يمتلكه من إيمان قويٍّ، فلم يفقد هدوءه ووقاره ورباطة جأشه في تلك الأحداث الجسام.

المعصية والسقوط عن مرتبة الإنسانية والحرمان من الهداية الإلهية

إن من الآثار الدنيويَّة للمعصية السقوطُ عن مرتبة الإنسانية إلى حضيض الحيوانية وتجاهل القيم الإنسانية السامية. وفي توضيح ذلك نقول:

إن إصرار الإنسان على المعصية يؤدِّي إلى ضرب فطرته السليمة التي فطره الله عليها، وتشويه وجدانه الحيّ، تلك الفطرة التي تدعو الإنسان إلى استشعار عذاب الضمير متى ما صدرت منه أية معصية أو تقصير، سواء كان ذلك بارتكاب معصية أو بالإقدام على عمل يخالف القيم الأخلاقية العامة. تلك القيم التي لا يعدُّ الإيمان بالله والدين شرطًا لقبولها والالتزام بها، بل يعتبرها حتى غير المؤمنين من مقومات الإنسانية ومميزاتها. فأداء الحقوق والوفاء بالعهود والوعود تعتبر عند عموم الناس - وحتى غير المؤمنين - قيمًا ينبغي الالتزام بها والسعي إلى المحافظة عليها، ولو أن أحدًا منهم أتى بما يخالف هذه القيم فإنه يتألم ويسعى إلى تدارك تقصيره.



فالوقوع في المعاصي والمفاسد والغرق في مستنقعها والإصرار عليها يؤدي إلى أن يفقد الإنسان حتى هذا المستوى من الالتزام الأخلاقي، وتؤدي المعاصي إلى مسخ شخصيته الإنسانية، فيتحول إلى حيوان غارق في الشهوات مجرّد من أي فضيلة.

وإن من آفات وعواقب المعصية والإصرار عليها كذلك الحرمان من الهداية التكوينية الإلهية الخاصة.

وتوضيح ذلك يتوقف على معرفة أن الهداية الإلهية على أنواع خمسة، إليك بيانها.

أنواع الهداية الإلهية

١. الهداية التكوينية العامة: تعمّ هذه الهداية الكون أجمع، وتشمل كل ظواهر العالم، ولا تختص بالإنسان وحده، وتتحقّق هذه الهداية طبقاً للهدف الذي أراده خالق الوجود والغرض من خلق هذه الظواهر، فهو يهديها لكي تصل إلى الهدف الذي خلّقت من أجله.

وقد أشار الله سبحانه إلى هذه الهداية التكوينية العامّة بقوله: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾^(١).

٢. الهداية الفكرية الشاملة لجميع الناس: منّح الله سبحانه الناس جميعاً قوّة التفكير التي بها يهتدون إلى تشخيص الأمور الحسنة من السيئة، ويميزون الفضائل من الرذائل المنافية لها.



٣. الهداية الفطرية: يُظهر الله الكثير من الحقائق للإنسان بواسطة قوّة الفطرة، ويمنحه بها قدرة تمييز الأمور الحسنة من القبيحة والسيئة. فعلى أساس الفطرة يرى الإنسان أموراً - كالعدل، وشكر النعمة، والصدق، والحق، وغيرها - لاثقةً وحسنة، ويرى أموراً أخرى - كالظلم وكفران النعمة - قبيحةً ومنافية للقيم.

٤. الهداية التشريعية: تتمظهر هذه الهداية في ميدان سلوك الإنسان الاختياري، وفي هذا الميدان بعث الله على مرّ التاريخ أفضل وأكفأ عباده رُسلاً أو أنبياء إلى الناس لدعوتهم إلى التوحيد وترك عبادة الطاغوت: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾^(١).

ولا يخفى ما للهداية التشريعية من أهمية بالغة، فلا يمكن مقارنة أهميتها بسائر أنواع الهداية، بل إن أهميتها أكبر من الهداية الفطرية وذلك لأنه:

أولاً: نطاق الهداية الفطرية أضيق من الهداية التشريعية، والكثير مما ينبغي فعله وما لا ينبغي، والأوامر التي تؤدّي إلى الكمال في أبعاد حياة الإنسان المختلفة هي أعلى من أفق الهداية الفطرية.

وثانياً: لولا وجود الهداية التشريعية، لفقدت الهداية الفطرية دعامتها، ولخسرت تأثيرها مقابل العوامل المساعدة على إضلال الإنسان، سواء كانت عوامل خارجية أم داخلية.



٥. الهداية التكوينية الخاصة: هذه الهداية بدورها تنقسم إلى

قسمين:

القسم الأول: خاص بالأنبياء وأولياء الله، وقد ورد التعبير عنها في القرآن الكريم بمصطلح «الاجتباء» و«رفع الدرجات»، في مثل الآية الكريمة: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ إِنَّ تَوْفِينَا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(١)، وكذلك ورد في آية أخرى قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾^(٢).

والقسم الثاني: هو الهداية التكوينية الخاصة التي تختص بالمؤمنين ولا نصيب لغير المؤمنين فيها. والهداية التكوينية الخاصة تُستعمل في القرآن في مقابل الضلالة، وقد بينت الكثير من الآيات الكريمة أنها تابعة لمشيئة الله وإرادته، ومن تلك الآيات ما ورد في سورة إبراهيم: ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(٣). وهذه الهداية هي نوع من التغير والتحول الروحي والباطني في الإنسان يوجد الله فيه تبعاً لظروف خاصة، وبواسطته تتوفر عنده الأرضية والقابلية على تلقي الكمالات الأخلاقية والمعنوية السامية.

حرمان العصاة من الهداية الخاصة

الهداية الإلهية الخاصة الواردة في سورة الحمد في آية ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، والتي نطلبها من الله يومياً عدة مرات، تختص بأهل التقوى

(١) سورة آل عمران، الآية ١٧٩.

(٢) سورة الأنعام، الآية ٨٣.

(٣) سورة إبراهيم، الآية ١٤.



والإيمان، أما أهل المعصية فمحرومون منها، كما لا تشملهم ألطاف أولياء الله.

فنحن في غفلة عن الدور الكبير لأولياء الله، والمؤمنين، والشهداء - حتى بعد رحيلهم عن الدنيا - وعن ما يقدمونه - بفضل الله وبركته - وما يمكن أن يقدموه من خدمات لعباد الله، وعن دعواتهم المستجابة عند الله سبحانه. ومن نماذج ذلك بقاء هذه الثورة والانتصارات المتوالية التي حققتها، والذي يرجع الفضل فيه إلى بركة أولياء الله والشهداء وما قدموه. والنموذج الأهم هو ما ثبت عندنا من أن الله سبحانه وتعالى يفيض علينا من أطافه ببركة الأئمة الأطهار عليهم السلام والوجود المبارك لإمام العصر عليه السلام، وبواسطة ذلك يحفظنا من كيد الأعداء.

وهنا لا بد أن نسأل أنفسنا: هل يليق بنا بعد علمنا بكل ذلك أن نعمل ما لا يُرضيهم، وأن لا نسير على الدرب الذي أرشدونا إليه؟ بخاصة الأشخاص الذين يتحملون مسؤولية قيادة الناس، فإن أي زلل أو انحراف منهم يؤدي إلى إضلال الآخرين عن جادة الهداية، فالواحد من هؤلاء إذا عمل ما يخالف تعاليم مواليهم وصار سبباً لانحراف وضلال الآخرين هو أولى من غيره بالخجل والندم.

كما أن قبح الانحراف والسلوك غير اللائق الصادر عن الشخص المنسوب إلى إمام العصر عليه السلام ومن يتحمل مسؤولية هداية عباد الله أكبر بكثير من قبح ذلك السلوك فيما لو صدر من شخص عادي لا نسبة له إلى الإمام سلام الله عليه.

نحن نؤمن بأن الوجود المقدس لولي العصر عليه السلام هو مجرى الفيض الإلهي، ففي كل آن يجري الفيض واللفظ الإلهي على عباد الله ببركة وجود الإمام، ومن هذه الألفاف ما دلّت عليه الشواهد



القطعية والأخبار المتواترة من أنه ﷺ يفيض على الناس من إمداده الغيبي بواسطة العلماء وأصحابه. فإذا ما حرم الإنسان نفسه من محبة ورعاية ودعاء هذا الإمام الرؤوف نتيجةً لما ارتكبه من معاصٍ وذنوب، فالإمام ﷺ سيبعده ويطرده بدلاً من أن يلتفت إليه، أفلا ينبغي لمثل هذا أن يبكي على نفسه - نتيجة ذلك - حسرةً؟

إن أولياء الله وأحباءه يتمتعون دائماً برحمات الله، وينالون السكينة والطمأنينة بفضل عناية الله ورحمته، وببركة أنسهم بالمعبود، وذلك ما نعجز عن إدراكه. بينما يُحرم أهل المعصية والذنوب من هذه الرحمة وهذا الأنس.

ما تقدّم ذكره هو الآفات والأضرار والخسائر الفردية الناجمة عن المعصية في الدنيا، وبالإضافة إلى هذه الآفات الفردية، تؤدّي المعاصي إلى آفات وأضرار اجتماعية أيضاً. فالشخص الذي يكذب مثلاً يفقد قيمته في المجتمع، ولا يعتمد الناس عليه ولا تُقبل شهادته وكلامه، وبنحو عام فإن العصاة في المجتمع ليس لهم دور إيجابي وهم بمنزلة العضو المشلول والمتعفن.

شدة الأضرار الأخروية الناتجة عن المعاصي

مضافاً إلى الأضرار والآفات الدنيوية الناجمة عن المعصية، هناك آفات وأضرار أخروية أيضاً، وهذه الأضرار أكثر استمراراً وأشدّ بأضعاف مضاعفة من الأضرار الدنيوية، وبمراجعة القرآن الكريم نجد الكثير من الآيات القرآنية تتحدث عن شدة عذاب الآخرة وعقاب الذنوب فيها. وقد تحدّث



الله سبحانه في بعض الآيات عن أنواع عذاب الآخرة وشدته^(١)، وأوضحت بعض الآيات أن الكفار والمشركين لهم عذاب خالد يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾^(٢).

وكذلك فإن أسمى لذة ونعمة ينالها أهل الجنة هي الأنس بالله والحديث معه ونظره إليهم، وفي حديث المعراج يبين سبحانه وتعالى هذا الأمر، فقد جاء في الحديث: «فيها الخواصُّ أنظرُ إليهم كلَّ يوم سبعين مرَّةً وأكلهمُ كلَّما نظرتُ إليهم»^(٣). فأهل المعصية محرومون في القيامة من هذه اللذة.

إن أشدَّ العذاب في الآخرة وأقساه هو الحرمان من الحديث مع الله وخسران نظره والتفاته. إن مبلغ ظمأ الإنسان يوم القيامة إلى مسامرة الله ومحادثته لهو أشدُّ بكثير من ظمأ الشخص الذي يموت عطشاً وهو بحاجة إلى جرعة ماء تنقذه من الهلاك. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٤).

إن الإنسان قد يغرق في عالم شهوات الدنيا وملذاتها وبيتلي بمشاكل الحياة فيؤدِّي به ذلك إلى غفلة كبيرة تمنعه عن إدراك الخسارة الكبرى التي ستلحقه نتيجةً لارتكاب المعصية، فهو بالإضافة إلى كونه

(١) سورة المجادلة، الآية ١٥.

(٢) سورة البينة، الآية ٧.

(٣) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ٧٧، الباب ٢، الصفحة ٢٣، الحديث ٦.

(٤) سورة آل عمران، الآية ٧٧.



يحرم نفسه من الأنس بالمعبود الذي يناله المؤمنون الأتقياء، فإنه يُلقي بنفسه في عذاب أليم ونارٍ حارقة، كما أن الغفلة تمنعه من تدارك المعاصي والأخطاء التي ارتكبتها. أما لو عاد الإنسان إلى رشده وتاب، فإن الله سبحانه يتوب عليه ويقبل توبته، ولا يقتصر ذلك على محو سجل أعماله القبيحة ومعاصيه فحسب، بل يبذل الله سيئاته حسنات، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(١).

إن التوبة تطهر القلب من أدران المعاصي، وهي إلى ذلك تصون الإنسان من نتائج المعصية والعقوبة الإلهية أيضًا، وكما قال الامام الكاظم (عليه السلام): «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ»^(٢). وهي كذلك - بالنظر إلى ما ورد في الآية الشريفة - تؤدِّي إلى أن يبذل الله سيئات المعاصي حسنات، ولكن الجهالة أو الحماقة - بتعبير آخر - تمنع الإنسان من التوبة عن سلوكه القبيح، فيظهر في عرصة يوم القيامة بشكله القبيح القذر.

افرضوا أن مجلسًا انعقد في أحد البيوت ودُعي إليه كثير من العلماء والوجهاء، ودُعينا إليه نحن أيضًا، ولكن كان جسمنا عفناً وقدرًا وملوثًا بالأوساخ، ورائحة فمنا كريهةً تؤذي الآخرين، وهندامنا في غاية السوء، بحيث إنا لو دخلنا ذلك المجلس بهذه الحالة المُرزية لما رغب أحدٌ بالاقتراب منا بل وحتى النظر إلينا، فمن الطبيعي أن يشعروا ذلك بالخجل بحيث لا نسمح لأنفسنا بالذهاب إلى مثل هذا المجلس بهذه الحالة، فكذلك الأمر في عرصات يوم القيامة، التي تشهد محفلًا إلهيًا

(١) سورة الفرقان، الآية ٧٠.

(٢) الكليني، أصول الكافي، الجزء ٢، باب التوبة، الصفحة ٤٣٥، الحديث ١٠.



عظيمًا، وإكرامًا ربانيًا يتواجد فيه أنبياء الله ورسله وأوليأؤه الصالحون والشهداء والصديقون وهم بأجمل حلّة وأبهى منظر، يشعّ النور من وجوههم، ويرتدون أفخر الملابس، وينتشر عطر وجودهم المبارك في عرصات القيامة فيترنّح أهل الجنة نشوة وسعادةً بمشاهدة هذه المناظر الرحمانية الرائعة، وبحسب تعبير القرآن الكريم: ﴿رُجُوءُ يَوْمٍ نَاضِرٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾^(١)، فكيف للإنسان العاصي أن يدخل عرصة القيامة بمظهره القبيح وجسمه المتعفن ورائحته الكريهة المؤذية؟ وبأي منطق إذًا نؤخّر التوبة، ولا نسارع إلى معالجة أنفسنا وتطهيرها من الذنوب والمعاصي التي هي قذارات وسموم مُهلكة لأرواحنا؟ ولماذا لا ننتبه إلى حقيقة أن التوبة مضاعفًا إلى أنها تطهّر قلوبنا من المعاصي هي كذلك بنفسها عملٌ صالحٌ تَهَبُّ القلوب طهارةً ونورًا، وتُنِيرُ القلوب وتبيّض صفحات الأعمال؟

كيف نصرُّ على المعصية بغفلة وحمافة، ومع علمنا بفوائد التوبة لا نمتلك العزم والإرادة الصادقين للتوبة، فنكتفي أحيانًا بقول «أستغفر الله» ونذرف بضعة قطرات من الدموع ونستمرّ في المعصية، مع أنه لا شك في أن الإصرار على المعصية وزيادة سواد القلب وظلمته هو بنفسه عقوبة إلهية كبيرة يبتلي الله بها الغافلين ومنكري الآيات الإلهية، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٢).

إن قلب الإنسان شبيه بالمرآة، فكما أن المرآة تتكدر بالصدأ وتفقد شفافيتها، فكذلك قلب الإنسان يصدأ بالمعاصي فيصبح أسود، وحين

(١) سورة القيامة، الآيتان ٢٢-٢٣.

(٢) سورة المطففين، الآية ١٤.

يصير قلب الإنسان مظلماً، فإنه يقع أسير الشهوات الشيطانية، ويفقد الإرادة والعزم للقيام بأفعال الخير والصلاح.

ومن هنا يجب علينا التوكّل على الله والتوسّل بأوليائه الصالحين وبذل الجهود من أجل تدارك التقصير وترك المعاصي، والاستفادة من وسائل تقوية إرادة التوبة وإصلاح النفس.

ومن وسائل وعوامل العزم على التوبة من المعاصي وإصلاح النفس الأنس بالله والأدعية والمناجيات الواردة عن أولياء الدين، وخاصة الأدعية الواردة في شهر رمضان، من قبيل دعاء الافتتاح، ودعاء أبي حمزة الثمالي، والمناجيات الخمسة عشر، التي تُساعد في إزالة صدأ المعاصي ورينها عن قلب الإنسان، وتجعله صافياً من الأدران، وتخلق الأرضية المناسبة في الإنسان لإرادة التوبة والعزم الجادّ على الإنابة.



المقال السادس تحليل موانع التوبة

العوامل المشجعة على المعصية والممانعة من التوبة

تقدّم أنه من أجل خلق الدوافع القويّة للتوبة، يجب التأمل في الأضرار والخسائر الناشئة عن المعاصي، سواء الدنيوية أو الأخروية والمادية أو المعنوية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يجب الالتفات إلى أن هذه الأضرار والخسائر ترتفع وتزول عن طريق التوبة.

والآن ينبغي البحث عن الأسباب التي تمنع الإنسان رغم علمه بالأضرار والعواقب الوخيمة للمعاصي عن امتلاك الإرادة والعزم الجادّين على ترك المعصية، فما هي موانع التوبة المؤدية إلى بقاء الإنسان غارقاً في بحور المعاصي؟

بنحو عام، تنقسم العوامل الممانعة من التوبة والمشجعة على المعصية إلى قسمين: القسم الأول هو الوسواس الشيطانية والشبهات التي يُلقيها الشيطان في قلب الإنسان فتكون مانعاً عن أن يحوّل الإنسان ما يعلمه إلى عمل؛ والقسم الثاني يرتبط بضعف إرادة الإنسان، إذ حتّى





مع فرض عدم مواجهته أي شبهة، يؤدي ضعف إرادة الإنسان إلى تردده في أمر التوبة وتدارك الزلل الصادر عنه.

القسم الأول: شبهات الشيطان ووساوسه

ينبغي، في سبيل توضيح القسم الأول، توضيح أن طبيعة الإنسان قبل بلوغ مرحلة الرشد والتكامل الإنساني تكون بالأمور الحسية أشد تأثراً منها بالأمور المعنوية، فيقدم المادية على المعنوية، وحتى من بين الأمور المادية الحسية نراه يفضل ذات التأثير السريع على التي يتأخر تأثيرها ولا يظهر سريعاً. وعلى هذا الأساس يرجح الإنسان اللذات الآنية والدينية على لذات الآخرة، رغم تصديقه باللذات المعنوية واعتقاده بها، لكنه من ناحية العمل أشد تأثراً باللذات الحسية، وغير مستعدٍ للتضحية بها من أجل اللذات المعنوية. إذاً فالإنسان ما لم يبلغ مرحلة التكامل العقلاني ولم ينل تربيةً دينيةً صحيحة، فإنه يبقى خاضعاً لطبيعته الحيوانية والشيطانية، وبسبب هذا الخضوع نجده لا يضحي باللذة الحسية الدنيوية العاجلة من أجل الوصول إلى اللذة الأخروية التي هي أعظم وأسمى من هذه اللذة المادية بكثير.

١. شبهة توهم التشابه بين المصاعب الدنيوية والمصاعب والجزاء الأخروي

بالإضافة إلى كل العوامل المساعدة على المعصية والمناعة من التوبة، فإن الشيطان يوسوس للإنسان ببعض الشبهات، كأن يوحي إليه بأنه رغم استتباع الذنب للجزاء والعقوبة، وحتى مع احتمال أن يكون ذلك العقاب أشد وأطول من لذة المعصية، لكن أليست الملذات والمتع في الدنيا تكون ممزوجةً بالمصاعب والآلام، أليس الإنسان مضطراً كيما يصل إلى



اللذة لتحمل المصاعب ودفع ثمن اللذة؟ فالعامل مثلاً يعمل طوال النهار ويتعب من أجل توفير لقمة العيش وتوفير الراحة والرفاهية لنفسه ولعِياله. فكذلك علينا أن لا نتنازل عن لذة المعصية خشية العقاب، إذ كما نشقى ونتعب في العمل من أجل الراحة والرفاهية، فكذلك يجب من أجل الوصول إلى لذة المعصية تحمل عقاب الآخرة وعذابها، ولا ينبغي أن نحرم أنفسنا من لذة الذنوب والمعاصي بسبب العقوبة الأخروية.

وهذه الشبهة ناشئة من ضعف الإيمان، والجهل بأن عقوبة المعصية لا يمكن مقارنتها بلذتها، وأن الإنسان وبسبب لذة صغيرة سريعة الزوال يبتلي بعذاب طويل المدة وقد يكون خالداً.

فمن أجل دفع هذه الشبهة ينبغي على الإنسان أن يقوّي إيمانه، وأن يُمعن النظر في النسبة بين لذة المعصية والعذاب الأخروي، وأن يقارن بين اللذات الدنيوية المحدودة واللذات والنعم الأخروية الخالدة، وأن يتأمل كيف أنه يُتعب نفسه ويشقى ساعات طويلة في العمل المُضني من أجل إشباع بطنه والوصول إلى لذة تناول الطعام التي لا تدوم أكثر من دقائق، لكنه ليس مستعداً للتنازل عن لذة المعصية التافهة من أجل الوصول إلى اللذات الأخروية الأبدية والنعيم الخالد.

٢. شبهة عدم تناسب العذاب الشديد مع العدل الإلهي

الشبهة الأخرى المطروحة منذ القدم هي: هل تتلائم العقوبات الشديدة المذكورة كجزاء على ارتكاب المعاصي، مع العدل الإلهي؟ وكيف يُعاقب الله العاصي عقوبةً شديدةً وعذاباً طويلاً جزاءً ذنب لذة عابرة لم تستمر سوى بضعة دقائق؟ ولماذا يكون مقدار الجزاء والعذاب الإلهي أكبر من الذنب بكثير؟ ولماذا يُجازى الكافر الذي تمرد على أوامر الله وعصاه



لمدّة ستّين أو سبعين سنةً بعذاب خالد أبدي؟ العدل يقتضي أن يتناسب الجزاء مع العقاب، أي أن تكون العقوبة بمقدار المعصية والذنب، فالشخص الذي عصى الله سبعين عامًا - مثلاً - يجب أن يُجازى بعقاب يستمرّ سبعين عامًا على أكثر تقدير. وأساس هذه الشبهة ناشئ من تصوّر أن العقوبات الإلهية في الآخرة هي من قبيل العقوبات الاعتبارية التعاقدية التي يضعها المُقنّن بملاحظة الجُرم، فيضع عقوبةً تتناسب مع الفعل الصادر من المجرم.

ومن أجل إيضاح جواب الشبهة المذكورة والتعرّف على طبيعة العلاقة بين المعصية وجزائها الأخروي نبدأ ببيان أنواع الجزاء:

أ. العقوبة التعاقدية [الاعتبارية]: تُشرّع العقوبات والقوانين الجزائية في المجتمعات الإنسانية وفقًا لمباني خاصّة، إلهية كانت أو غير إلهية. وهذه العقوبات توضع عقوبةً للمُجرم ولمنع تكرار الجريمة من قبله أو من قبل الآخرين، وكذلك من أسباب العقوبات التشفّي وإراحة نفوس المظلومين، في الموارد التي ترتكب فيها الجريمة ضدّ الغير. ومقدار وكيفية العقوبات التعاقدية تتبع الوضع والتعاقد، ومن هنا تختلف العقوبات الصادرة بحقّ جريمةٍ واحدة بين نظام وآخر. وعلى أي حال فإن الأنظمة التشريعيّة تسعى إلى مراعاة التناسب بين الجريمة والعقاب، فتضع للجرائم المختلفة عقوبات مختلفة أيضًا تتناسب معها، فعقوبة السبّ تختلف عن عقوبة القتل مثلاً.

ب. العقوبات التي تكون أثرًا ونتيجةً وضعيّةً وتكوينيّةً للجُرم والذنب وبينها وبين الجُرم علاقةً علّيّةً والمعلوليّة، فهذه العقوبة معلولة للجُرم ونتيجة طبيعية له، وليست هي من قبيل العقوبات التعاقدية يُقال إنه يجب فيها رعاية التناسب بين الجريمة والعقاب. فهل يُقال في الشخص



الذي يأخذ سكيناً ويغرسها في عينيه ويصيب نفسه بالعمى طوال حياته مثلاً، هل يُقال عنه إنه ارتكب خطأً للحظة واحدة، فلماذا صار أعمى طوال حياته؟ والشخص الذي يلعب بالنار ويؤدّي بذلك إلى إحراق مخزن البضائع الذي يمتلكه فيحرق بذلك كل ثروته، هل يُقال عنه لماذا يُحرّم من ثروته التي جمعها بكّدّه وتعبه بسبب لحظة حماقة وطيش؟ وكذلك الحال في مجال عقوبة المعاصي، فلا ينبغي الحديث عن شدّتها ومخالفتها للعدل؛ لأن العقوبة الأخروية هي نتيجة تكوينية وقهرية للذنب في الدين، وكما أن المرض أو الموت هما من النتائج التكوينية والقهرية لتناول السمّ في الدنيا، فإن النتيجة القهرية والتكوينية لارتكاب المعصية هي الحرمان من الرحمة الإلهية والابتلاء بالعذاب الإلهي في الآخرة. كذلك أيضاً توجد مثل هذه العلاقة التكوينية والقهرية وعلاقة المعلول بعلّته بين العمل الصالح الذي يرتضيه الله والجزاء الإلهي في الآخرة، فالشخص الذي يقوم بعمل خير يستمر لحظات فقط، ينال جزاءً أبدياً في الآخرة.

ج. بناءً على القول بتجسّم الأعمال في الآخرة، لا تكون العلاقة بين العمل والجزاء هناك من قبيل النوع الأول، أي التعاقدية، ولا من النوع الثاني، أي علاقة العلّة والمعلوليّة بين الجريمة والعقاب الذي يكون فيها العقاب نتيجةً وليدة لنفس المعصية. بل العلاقة الحاكمة بين الجريمة والعقاب والعذاب الأخروي هي علاقة العينية والاتّحاد، وما يُعطى في الآخرة - ثواباً أو عقاباً - للمحسنين والمسيئين إنما هو تجسّم العمل نفسه.

وبتعبير آخر: إن أعمالنا لها صورةٌ مُلكية مؤقتة فانية تظهر في هذه الدنيا على شكل كلامٍ وعمل، وكذلك لها صورة مَلَكُوتِيّة لا تفنى



بعد صدور الأعمال أبدًا. والإنسان في هذه الدنيا إنما يُشاهد الوجه المُلْكِي والظاهري للعمل، وأمَّا في الآخرة فسوف يُشاهد عملنا بصورته المَلَكُوتِيَّة الدائمة. فإذا كان عملًا جميلًا وباعثًا على اللذة فسيكون نعيمنا، وإذا كان قبيحًا وكريهًا فسوف يتجسَّم جحيمًا وعذابًا لنا. وثمة بعض الآيات تُشير إلى مسألة تجسَّم الأعمال والعينيَّة والاتِّحاد بين العمل والجزاء الأخروي؛ منها قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾^(١).

٣. توهم العفو عن جميع الذنوب ببركة الشفاعة

نحن نعتقد بأن الله سبحانه مَنَحَ بعض الأفراد مقام الشفاعة عن المذنبين ونسميهم الشفعاء، ومن هؤلاء رسول الله ﷺ وأهل بيته ﷺ إذ يشفعون لأتباعهم ومحبيهم. لكن هذا الاعتقاد قد يُساء فهمه ويُستغل استغلالًا سيئًا، بحيث يعمد الشيطان فيوسوس للإنسان بأنه لا ينبغي أن يقلق على عاقبة ذنوبه، وأنه ما عليه سوى أن يستمتع بارتكاب الذنوب وفي نهاية المطاف سوف يُشفع له وتُغفر جميع ذنوبه. أو قد تساء الاستفادة من بعض الروايات الواردة في فضل المشاركة في عزاء الإمام الحسين ﷺ ومحبة أهل البيت ﷺ - ومنها الرواية الواردة عن رسول الله ﷺ: «حُبُّ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ يَأْكُلُ السَّيِّئَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ»^(٢) - فينفذ من خلالها الشيطان ويوسوس لنا بأننا لا ينبغي أن نخشى عاقبة ذنوبنا، وأن لا نخاف من ارتكاب المعاصي والتمرد على الله،

(١) سورة آل عمران، الآية ٣٠.

(٢) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ٢٧، الباب ٣، الصفحة ١٣٦، الحديث ٦.



لأن محبة أهل البيت عليه السلام والحضور في مجالس عزاء سيّد الشهداء والبقاء عليه تغفر لنا كل ذنوبنا فنكون من الذين تنالهم شفاعته هذا الإمام العظيم.

لكن الأمر ليس كذلك، فالشفاعة لها شروط خاصّة، وهي لا تشمل كل شخص، ومن الذين لا تشملهم الشفاعته على سبيل المثال الذين يتهاونون بالصلاة؛ فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ شَفَاعَتَنَا لَا تَنَالُ مُسْتَخَفًّا بِالصَّلَاةِ»^(١).

كما يُستظهر من الآيات والروايات الواردة في الشفاعته أن شفاعته النبي الأكرم ﷺ تكون في القيامة لا قبلها، وقد جاء في رواية أن عمر بن زيد سأل الإمام الصادق عليه السلام قائلاً: «إِنِّي سَمِعْتُكَ وَأَنْتَ تَقُولُ: كُلُّ شَيْعَتِنَا فِي الْجَنَّةِ عَلَى مَا كَانَ فِيهِمْ. قَالَ: صَدَقْتُكَ كُلُّهُمْ وَاللَّهِ فِي الْجَنَّةِ. قَالَ: قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ إِنَّ الذُّنُوبَ كَثِيرَةٌ كِبَارٌ. فَقَالَ: أَمَّا فِي الْقِيَامَةِ فَكُلُّكُمْ فِي الْجَنَّةِ بِشَفَاعَةِ النَّبِيِّ الْمُطَاعِ أَوْ وَصِيِّ النَّبِيِّ، وَلَكِنِّي وَاللَّهِ أَتَخَوَّفُ عَلَيْكُمْ فِي الْبَرْزَخِ. قُلْتُ: وَمَا الْبَرْزَخُ؟ قَالَ: الْقَبْرُ مُنْذُ حِينَ مَوْتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٢).

وعلى هذا فإن العاصي وإن كانت الشفاعته تناله في القيامة، لكنها لا تشملها في عالم البرزخ، فثمة فترة طويلة جداً يبتلي فيها بالعذاب جزاءً على أعماله السيئة، وإذا لم يتب في الدنيا، فإنه على الأقل لن يستطيع الفرار من العذاب الإلهي في البرزخ.

(١) الحر العاملي، وسائل الشيعة، الجزء ٤، الباب ٦، الصفحة ٢٥، الحديث ٦.

(٢) الكليني، أصول الكافي، الجزء ٣، الصفحة ٢٤٢، الحديث ٣.



وعلى أي حال، فإن آثار المعاصي لا تُمحي بسهولة، ولا ينبغي الاستخفاف بأحكام الدين وتجاهل الأوامر الإلهية بسبب توهمات ساذجة لا أساس لها من الصحة. فهل الأحكام والتعاليم الإلهية جاءت عبثاً لكي تُمحي آلاف المعاصي ببضعة قطرات من الدموع؟ وهل أن كل دمعٍ من أي عينٍ كانت ينفع صاحبه؟ وهل يشمل العفو مثل الملعون عمر ابن سعد الذي ارتكب يوم عاشوراء هو وأتباعه كل هذه الجرائم العظيمة بحق سيد الشهداء عليه السلام وأهل بيته، ثم أخذ يبكي بعد كل ما اقترفت يدها؟! ^(١) وكذلك روي أنه بعد شهادة أمير المؤمنين عليه السلام بكى معاوية عليه! لا ريب في أن هذا البكاء ليس فيه أي نفع ولا له أي فائد.

وفي هذا المجال ورد في بحار الأنوار أنه دخل ضرار بن ضمرة الكناني على معاوية بن أبي سفيان يوماً فقال له: يا ضرار صف لي علياً فقال: أوتعفيني من ذلك؟ قال: لا أعفوك، فبدأ ضرار يعدد لمعاوية بعض صفات وفضائل أمير المؤمنين قائلاً: فأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله... وهو قائم في محرابه قابض على لحيته يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، فكأنني الآن أسمعُه وهو يقول: «يا دنيا أ بي تعرّضت أم إليّ تشوّفت؟! هيهات، هيهات غُري غيري، لا حاجه لي فيك قد بتتكَ ثلاثاً لا رجعة لي فيها، فعمرُك قصيرٌ وخطرك يسيرٌ وأملك حقيرٌ، آه آه من قله الزاد وبُعْد السفرِ ووحشة

(١) ونقل حميد بن مسلم في روايته لمقتل الإمام الحسين عليه السلام: «فوقع عليه السلام إلى الأرض على خذه الأيمن، ثم استوى جالساً ونزع السهم من حلقه ثم دنا عمر بن سعد من الحسين عليه السلام، وخرجت زينب بنت علي عليها السلام وهي تقول: ليت السماء انطبقت على الأرض، يا عمر بن سعد أقتل أبو عبد الله وأنت تنظر إليه؟ ودموع عمر تسيل على خديه ولحيته، وهو يصرف وجهه عنها». محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ٤٥، الباب ٣٧، الصفحة ٥٥.

الطريقِ وعِظَمِ الْمَوْدِ». فَوَكَّفَتْ دموعُ معاويةَ على لِحْيَتِهِ فَشَفَّهَا بِكُمِّهِ^(١).

٩٧

إن ثواب ومنزلة محبة أهل البيت عليهم السلام والقبول بولايتهم والفرح في أيام فرحهم والحزن في أيام ماتمهم، هي كلها أمورٌ واردةٌ وصحيحةٌ، لكن ينبغي الالتفات إلى أنه يجب توفير الأرضية والشروط اللازمة لنيل هذا الثواب. وذلك شبيه بما هو مذكور في الكتب الطبية من فوائد لمختلف الأدوية وتأثيرها في علاج أنواع الأمراض والآلام، فحتى لو استعمل المريض الدواء المناسب لمرضه، لكنه ما لم يراع شروط استعمال ذلك الدواء فلن يحصل على النتيجة المطلوبة، ولن يشفي ذلك الدواء مَرَضَهُ. وكذلك فيما نحن فيه، فالحصول على ثواب محبة أهل البيت عليهم السلام وثواب البكاء على سيد الشهداء مرهون برعايتنا لشروطها اللازمة، فلو كان البكاء مؤثرًا بشكل مطلق ومن دون شرط وقيد، حتى بالنسبة لأشد الناس فسقًا وأسوأهم حالًا، فإن هذا سيؤدّي إلى العفو عن ذنوبه، وسيتم التعامل مع الدين كألعبوبة يتذرّع بها المنحرفون والملوثون بالشهوات.

نحن نؤمن حقًا بأن محبة أهل البيت وولايتهم قلعَةٌ منيعة من العذاب الإلهي، لكن الذي يدخل هذه القلعة هو الشخص الذي وفر في نفسه شروط محبتهم وولايتهم عليهم السلام، وعمل بلوازم هذه المحبة والولاية. كما أن الاستفادة من قلعة التوحيد الحصينة مشروطة بولاية أهل البيت.

ومما يروى أنه حينما وصل الإمام الرضا عليه السلام إلى نيسابور في مسيره إلى خراسان اجتمع عنده العلماء وأصحاب الحديث وطلبوا منه أن يروي لهم حديثًا، فروى لهم حديثًا عن جده رسول الله ﷺ إذ قال:

(١) المصدر السابق، الجزء ٢١، الباب ١٠٧، الصفحتان ١٢٠ - ١٢١، الحديث ٢٨.



«سَمِعْتُ جَبْرِئِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: سَمِعْتُ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ حِصْنِي فَمَنْ دَخَلَ حِصْنِي أَمِنَ مِنْ عَذَابِي». فَلَمَّا مَرَّتِ الرَّاحِلَةُ نَادَانَا: «بَشُرُوطَهَا وَأَنَا مِنْ شُرُوطِهَا»^(١).

وعلى أساس هذه الرواية فإن ولاية أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ شرطٌ لدخول الحصن الإلهي والأمن من عذاب الله، لكن الأمن من العذاب الإلهي رهن الالتزام بلوازم ولايتهم واتباعهم بصدق.

وعلى هذا فإن طريق دفع الشبهات الشيطانية المانعة من التوبة، والباعثة على الإصرار على الانحراف والمعصية، هو تعلّم المعارف الإلهية بشكل صحيح، وفي ضوء هذا التعلّم يستطيع الإنسان الخلاص من فخ الشبهات والوصول الى الاعتقاد بأن الذنب - مهما كان صغيراً - يؤدّي إلى خسائر عظيمة تصيب الإنسان العاصي، ويؤدّي إلى حرمانه من السعادة.

ونظراً لأهمية العامل المعرفي ودوره البارز وَرَدَ التأكيد الشديد في تعاليمنا الدينية على لزوم تعلّم معارف الدين وفضيلته الكبيرة، ومن ذلك ما جاء في رواية عن الإمام الكاظم عَلَيْهِ السَّلَامُ: «عَالِمٌ يُنْتَفَعُ بِعِلْمِهِ أَفْضَلُ مِنْ سَبْعِينَ أَلْفَ عَابِدٍ»^(٢).

القسم الثاني: ضعف الإرادة والانفعالات الكاذبة

مضافاً إلى ضرورة توفير العامل المعرفي ودفع الشبهات والوساوس الفكرية والشيطانية التي تمنع من التوبة وتُبَرِّرُ الإصرار على المعصية،

(١) المصدر السابق، الجزء ٤٩، الباب ١١، الصفحة ١٢٣، الحديث ٤.

(٢) الكليني، أصول الكافي، الجزء ١، الصفحة ٣٣، الحديث ٨.



يجب أيضاً توفير العامل النفسي والدافع على العمل؛ لأنه كما يجب من أجل القيام بالأفعال الاختيارية توفر العامل المعرفي، يجب كذلك توفر العامل النفسي أيضاً. وكما نبهنا سابقاً فإن المقصود من العامل النفسي هو الإرادة والعزم الصادق. ومن هنا يجب معرفة موانع تحقق العامل النفسي والسعي لإزالتها. ولتوضيح هذا المعنى نستعين بالمثل التالي: بعض الناس يُدرك أهمية الاستيقاظ سَحَرًا للتعب، ويقرر أيضاً الاستيقاظ من النوم وقت السحر والانشغال بالعبادة، ثم يؤقت الساعة كي توقظه، وحينما يأتي السحر تراه يستيقظ، لكنه رغم ذلك يقول لنفسه سأنام بضعة دقائق أخرى ثم أستيقظ وأبدأ بالعبادة، فينام مرةً أخرى ويغط في نوم عميق فيخسر بذلك التوفيق لقيام السحر وأداء صلاة الليل.

ومن العوامل التي تسلب مثل هذا التوفيق من الإنسان وتمنع تحقق الإرادة والعزم الصادق للتوبة التلوُّث بأنواع الفساد الثقافي، من قبيل القصص الفاسدة، والأفلام والبرامج الملوثة المفسدة التي توضع في متناول الجميع عبر الإنترنت ووسائل التواصل الأخرى.

فمن الطبيعي أن الإنسان حينما يُشاهد الأفلام المؤثرة والمُثيرة فإنه شيئاً فشيئاً يعتاد مشاهدتها، ويصبح مثل مدمن المخدرات الذي لا يمكنه الإقلاع عن تعاطيها، ومثل هذا الشخص لا يتمكّن من ترك مشاهدة هذه الأفلام، ولو لم يُشاهد هذه الأفلام في إحدى الليالي تجده يعيش حالة اضطراب وقلق تمنعه النوم أو تؤثر عليه، ولا ريب أن اللقطات الماجنة والمُثيرة في هذه الأفلام تجرّه إلى الانحراف والتلوُّث، وتحرمه التوفيق المعنوي.

إنّ هذه الظواهر والعادات الجديدة والحديثة النشوء في العالم المعاصر، والابتلاء بالمشاكل والاضطرابات النفسية الناشئة عنها، مثلت



تحديًا أمام علماء النفس الغربيين، مما دفعهم إلى إنشاء مستشفيات ومصحاتٍ خاصةٍ لعلاج الإدمان على الإنترنت ومشاهدة الأفلام.

وعلى أي حال، فإن انتشار القنوات الفضائية والإنترنت والأفلام الفاضحة، تحوّل إلى محرقةٍ للقيم والعفاف، فألت الأمور إلى فاجعةٍ أليمةٍ ابتليت بها المجتمعات الإنسانية وخاصةً فئة الشباب، فألحقت بهم أضرارًا لا يمكن تداركها، وفتحت أمامهم طرق اللامعروف حيث تأخذهم نحو الضياع وتجمّل في أعينهم المعاصي وتروج الفساد وإيجاد الإثارات الكاذبة.

إنّ الشخص الذي جرّب نوعًا معيّنًا من الإثارة يمكنه تحديد وتشخيص مدى تأثير الإثارة بنحو عام في الآخرين حتى وإن لم يجرب بنفسه هذه الإثارة الخاصة، لكنه يُدرك تأثيرها. فلو أهان شخص مثلاً شخصًا آخر، فما دام المُهان هادئًا ولم ينفجر غضبه يمكنه السيطرة على نفسه وأعصابه، ولا يُبدي ردّة فعل تجاه تلك الإهانة، لكنه حينما يكون ضغط الإثارة أقوى من مستوى تحمّله ويثور غضبه فلن يستطيع حينها السيطرة على نفسه، وفي بعض الموارد يصدر منه تصرفٌ دون وعي واختيار مما لم يكن ليخطر في ذهنه في الحالات الطبيعية. وبالمثال المذكور يمكن تصوّر حالة الشاب الذي تقع عينه على المشاهد الماجنة شديدة الإثارة ومن ثم ابتلاء القلب بما تشاهده العين، والعاقبة المشؤومة التي تنتظره نتيجة إثارة الشهوة الجنسية وثورة غرائزه.

طُرُق السيطرة على الغرائز والإثارات النفسية

بناءً على ما تقدّم، ونظرًا إلى أن هيمنة الانفعالات النفسانية على الإنسان تؤدّي إلى انزواء العقل والفكر جانبًا، بل تُفقد التعاليم الأخلاقية والشرعية



١٠١



تأثيرها في الإنسان، فتصبح إمكانية مقاومة الإنسان في غاية الصعوبة؛ لذلك يجب علينا السعي إلى سدّ الطرق أمام نفوذ العوامل المثيرة أو المساعدة على الإثارة، وكذلك علينا أن نسعى إلى عدم الدخول في أجواء مثيرة؛ لأن الإثارة والانفعال إذا بلغا في الإنسان درجة القمة فسيكون حاله حال من يجري في طريق شديد الانحدار، فحينما يبلغ سرعته القصوى لن يستطيع التوقّف أو السيطرة على نفسه، ونتيجته ستكون السقوط في الهاوية.

ومن أجل وقاية الشخص من الانحراف الناتج عن مشاهدة الأفلام المبتذلة، يجب عليه كوقاية من أن يُشاهد تلك الأفلام أن يبتعد عن محيط المعصية وأصدقاء السوء الفاسدين الذين يوزعون مثل هذه الأفلام. ولكي لا يبتلي بالمعاصي والمفاسد الأخلاقية عليه اجتناب معاشره الفاسدين، وإذا لم يتخذ الخطوات الوقائية وأخذ بمشاهدة الأفلام الماحجة، أو وقع في المعاصي نتيجةً لمعاشره أصدقاء السوء، فإنه لن يتمكن بعدها من السيطرة على غرائزه والامتناع عن التلوّث بالمعاصي.

ولتحقيق هذا الهدف ينبغي استشارة ذوي الخبرة في المسائل الأخلاقية وعلم النفس، والاستفادة من تجارب الآخرين. وكذلك إذا تلوّث الإنسان بالمعصية نتيجةً للتساهل والغفلة، فما دامت قابلية التوبة وأرضيتها متوفرةً عنده، ولم يغرق في مستنقع المعصية والفساد بشكل كامل، فعليه أن يقطع علاقته برفقاء السوء، وأن يُتلف تلك الأفلام وأدوات الفساد التي تدفعه باتجاه الرذيلة والمعصية، وأن يسعى إلى ملء أوقاته بالأعمال النافعة من قبيل المطالعة والبحث، وأن يختار لأوقات فراغه التسلية الصحيحة المناسبة وأن يعاشر أصدقاء صالحين.

وبعبارة أخرى: إنَّ الإنسان عامّة، والشاب خاصّة، حينما يواجه كثير من عوامل الشيطان والانحراف، من قبيل مصاحبة رفقاء السوء وإمضاء الوقت بالكلام الفارغ والمزاح الممجوج، ومشاهدة الأفلام الساقطة التي تُثير فيه الشهوات وتدفعه باتجاه ارتكاب المعصية، وتسلب منه إرادة المقاومة أمام المعصية، فهناك عاملان لردعه عن ذلك: العامل الأول هو الابتعاد عن أجواء المعصية ومعاشرة الأشخاص الملوّثين المشجّعين عليها، وتجنّب سائر العوامل التي تُثير الشهوة والغضب وتقوّي دوافعه نحو الانحراف. والعامل الثاني هو تقوية الإرادة الإيجابية في نفسه والعزم البناء، من قبيل معاشرة الأشخاص الصالحين، وتلاوة القرآن الكريم، ومطالعة كتب الأحاديث والأخلاق، والمشاركة في مجالس الوعظ والإرشاد، وحضور مجالس الدعاء والمناجاة، والأهمّ من ذلك كله السعي لنيل الأنس بالله؛ لأنَّ الإنسان إذا ذاق طعم الأنس بالله، ونال لذّة الكلام والمناجاة مع محبوبه ومعبوده، ستتصاغر جميع الجاذبيات غير الإلهية في عينه وتصبح تافهةً عنده، بل سوف لن يكون مستعدًّا - حينئذٍ - لأنَّ يفسح المجال أمام الشيطان ليلج حريم قلبه ولو حتى للحظة واحدة.



المقال السابع

البحث عن الرحمة الإلهية (١)

حياء العبودية ودوره في التوبة والاحتراز عن المعاصي

إنَّ معرفة الإنسان بالعاقبة المهلكة للمعاصي في الدنيا والآخرة تُثير فيه حالة الخوف من الإقدام على ارتكابها، وتُثير فيه بالإضافة إلى ذلك شعورًا بالخجل والحياء لما في ارتكاب المعاصي من تمرّدٍ على طاعة أوامر الله ونكرانٍ لِنِعَم خالق الكون التي لا تُحصى. وكلّما زادت معرفتنا بالله سبحانه، ووظائف العبودية، ونطاق النعم الماديّة والمعنويّة التي وهبنا البارئ تعالى إياها، وعاقبة السلوك القبيح، فإن هذا الشعور بالخجل والحياء سيزداد عندنا، وسيمنعنا عن مجازاة إحسانه العقيم ولطفه ونعمه التي لا تُحصى بالعصيان، ولا ريب أن الشعور بالخجل والحياء سواء أمام الله أو أمام الناس فيه ميزة إيجابية ومؤثّرة وراذعة تعود جذورها إلى فطرة الإنسان. ومن المعلوم اليوم أن التيارات الأخلاقية الماديّة والمنحرفة ترى أن الخجل والحياء حالة انفعالية ناشئة عن ضعف الإنسان، وبنحو عام تدمّه وتنصح الناس بإزالته من أنفسهم^(١).



(١) ينظر بعض علماء النفس الغربيين إلى الخجل والحياء نظرةً سلبيةً فيقولون إنَّ الإحساس بالخجل ناشئ



وفي المقابل ترى الثقافة الإسلامية أن الخجل والحياء خصلتان أصيلتان وقيمتان، ومن هنا فإن عبارة «عديم الحياء» في ثقافة المسلمين تُعدُّ إهانة وسباً، بينما في الثقافة المنحرفة والعارية عن الفضائل الإنسانية يرى عبید الدنيا والملوثون بالشهوات أن عدم الحياء نوع من الكمال الذي يفتخرون به!

وعلى أي حال، إن الشخص الذي يحمل فطرةً إلهيةً حيّة، حينما ينظر إلى معاصيه وذنوبه ويدرك أن النعم التي جعلها الله بين يديه صارت وسيلةً لتمردّه وعصيانه ومخالفته لأوامر معبوده، فسوف يشعر بالخجل والحياء أمام الله. ومن هنا ورد في الدعاء الذي يُقرأ عقب زيارة الإمام الرضا (عليه السلام): «رَبِّ إِنِّي أَسْتَغْفِرُكَ اسْتَغْفَارَ حَيَاءٍ»^(١).

دور الخوف والرجاء في نيل الرحمة الإلهية

يجب على الشخص الذي صدرت منه المعصية والزلل، وبالإضافة إلى إحساسه بالخوف من عاقبة المعصية وملاحظته آثارها الوخيمة وكذلك شعوره بالخجل من الله، أن يتحلّى بالأمل بعفو الله ورحمته اللامتناهية. كما ينبغي علينا جميعاً الالتفات إلى حقيقة أن الله نفسه قد دعانا إلى التوبة ووعد العبد النادم بالعفو، وحذّرنّا سبحانه من القنوط واليأس من رحمته قائلاً: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(٢).

عن جذب الانتباه والظهور أمام الآخرين والوقوع تحت طائلة انتقادهم، وهو شعور أساسه احتقار الذات في كل مورد وتقديّمها على أنها لا تتّصف بالجدارة. انظر: جين مدلتون موز، روائشناسي شرم وكناه [علم نفس الحياء والذنب]، ترجمة شهلا ارزنگ، الصفحة ٢٨.

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ١٠٢، الباب ٥٤، الصفحة ٥٦، الحديث ١١.

(٢) سورة الزمر، الآية ٥٣.



إنَّ إدراك أن الله سبحانه قادر على سلب النعم التي منحها للإنسان كالصحة والعافية، وكذلك قادر على حرمان الإنسان من النعيم الأبدي في الجنة وابتلائه بالعذاب الخالد، والأشدّ من ذلك كله ابتلاء العبد بالابتعاد عن رحمته، إن كل هذه الأمور تُثير في الإنسان حالةً من الهلع.

وفي مقابل ذلك فإن معرفة حقيقة أن الله قادر على الصفح عن زلل الإنسان وزيادة نعمه عليه، وأن ينعمه في الآخرة بالنعم الأبديّة، تعيد إليه الرجاء. وبتعبير آخر: إن معرفة أن سعادة الإنسان وشقاءه في الدنيا والآخرة هي بيد الله، تخلق في الإنسان حالتين نفسيّتين هما «الخوف» و«الرجاء».

وصحيح أن حالة الخوف والانكسار والخجل تتضادّ مفهومًا مع حالة الرجاء، ولكن يمكن اجتماع هذين الأمرين في الإنسان لأن متعلقهما مختلف.

إن وجود حالات الخوف، والانكسار، والأسف، والندم على العمر الذي مضى هدرًا في المعاصي، وفي مقابله الرجاء بالله تعالى، يمكن الإنسان من تدارك زلله وتقصيره، ويجعله مستعدًّا لتلقّي الرحمة الإلهية، تلك الرحمة النازلة دون انقطاع، وإذا تعرّض الإنسان لها وتلقّاها انتفع بها. فالله سبحانه لا يقطع رحمته المتواصلة ولا يطرأ أي تغيير على صفة الرحمانية فيه عزّ وجلّ، وإنما التغيير يطرأ على حالتنا نحن، وعلى هذا الأساس فحينما نقع تحت شعاع التغيير والتحوّل الإيجابي، نصبح مستعدين لتلقّي الرحمة الإلهية، كما ربّما يشملنا الغضب الإلهي إثر التغيير السلبي والانحراف الذي يحدث لنا. وحينما ننسب في بعض تعابيرنا العاميّة بعض حالاتنا الخاصّة إلى الله، فهذه النسبة من باب التسامح فنقول: «وأخيرًا جاءت رحمة الله، ولقد رحمنا الله أخيرًا، لقد



تصالح الله معنا، أو لقد غضب الله علينا»، إذ نحن الذين نتغيّر وحالاتنا هي التي يطرأ عليها التغيّر، أما الله سبحانه فلا سبيل للتغيّر والتغيّر إليه أصلاً؛ كما قال أمير المؤمنين (عليه السلام) في مطلع إحدى خطبه الشريفة: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ تَسْبِقْ لَهُ حَالٌ حَالاً»^(١).

إشارة إلى مراتب التوبة والاستغفار من المعصية

يرتبط مستوى تلقينا للرحمة الإلهية، أو كيفية قبول توبتنا، ارتباطاً وثيقاً بكمية وكيفية التحوّل المعنوي الذي يطرأ على أنفسنا، ومقدار الندم الذي يعترينا، وكذلك مستوى ما نرجوه من الرحمة الإلهية. وكلّما كانت توبة الإنسان أقوى وأرسخ، كلّما مُحيت الآثار التشريعية والوضعية للمعاصي وزالت بنحو أكبر. وذلك شبيه بالثوب الأبيض الناصع الذي تلوث بقطرة من الدم فتنجس، فأحياناً يُطهّر بإزالة عين النجاسة ولكن يبقى عليه لون الدم، وفي هذه الحالة يصبح ذلك الثوب طاهراً، لكنّه لم يصبح نقياً من أثر الدم بشكل كامل. أما لو غُسل ذلك الثوب بموادّ منظّفة قوية، فسوف يزول أثر الدم، أي البقعة الحمراء أيضاً، ولن يبقى أي أثر للدم على الثوب. فالتائب أحياناً تؤدّي توبته إلى مجرّد نجاته من العذاب والعقاب، ولكن لا تزول الآثار الوضعية للمعصية بشكل كامل، ولكنه لو طوى جميع مراحل التوبة والاستغفار وبذل جهده في رفع جميع آثار المعصية، فإنه بالإضافة إلى زوال الآثار التكليفية، تزول معها الآثار الوضعية أيضاً، فيصبح كمن لا ذنب له أصلاً. وانطلاقاً من هذه النقطة فقد ورد في الروايات عرض لمراحل التوبة والاستغفار، وبتحقّقها بشكل كامل تتجسّد التوبة والاستغفار بالشكل الكامل.



١٠٧



ومن جملة ما ورد قول أمير المؤمنين عليه السلام في جواب من قال: «أستغفر الله»، وتبيينه شروط الاستغفار إذ يقول: «ثَكَلْتُكَ أُمُّكَ! أَتَدْرِي مَا الِاسْتِغْفَارُ؟ الِاسْتِغْفَارُ دَرَجَةُ الْعَلِيِّينَ، وَهُوَ اسْمٌ وَقَعَ عَلَى سِتَّةٍ مَعَانٍ: أَوَّلُهَا النَّدَمُ عَلَى مَا مَضَى، وَالثَّانِي الْعَزْمُ عَلَى تَرْكِ الْعُودِ إِلَيْهِ أَبَدًا، وَالثَّالِثُ أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ حُقُوقَهُمْ حَتَّى تَلْقَى اللَّهَ أَمَلَسَ لَيْسَ عَلَيْكَ تَبَعَةٌ، وَالرَّابِعُ أَنْ تَعْمَدَ إِلَى كُلِّ فَرِيضَةٍ عَلَيْكَ ضَيْعَتَهَا فَتُؤَدِّيَ حَقَّهَا، وَالْخَامِسُ أَنْ تَعْمَدَ إِلَى اللَّحْمِ الَّذِي نَبَتَ عَلَى السُّحْتِ فَتُذِيْبَهُ بِالْأَحْزَانِ حَتَّى تُلْصِقَ الْجِلْدَ بِالْعَظْمِ وَيَنْشَأَ بَيْنَهُمَا لَحْمٌ جَدِيدٌ، وَالسَّادِسُ أَنْ تُذِيقَ الْجِسْمَ أَلَمَ الطَّاعَةِ كَمَا أَذَقْتَهُ حَلَاوَةَ الْمَعْصِيَةِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَقُولُ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ»^(١).

كما أن الشخص الذي تناول السم، فإن أول خطوة لإنقاذ حياته هي إجراء غسيل لمعدته لإخراج السم من جسمه، لكن من أجل تلافي جميع أعراض السم يجب اتخاذ خطوات علاجية أخرى. فكَذَلِكَ الشَّخْصُ الَّذِي أَكَلَ حَقُوقَ الْآخَرِينَ دُونَ وَجْهِ حَقٍّ، أَوْ لَمْ يَرْعَ الْحُرْمَاتِ الْإِلَهِيَّةَ وَتَجَاوَزَ حُدُودَهَا، فَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ التَّوْبَةُ وَالنَّدَمُ فِي الْمَرَحَلَةِ الْأُولَى، وَمُضَافًا إِلَى ذَلِكَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّبَعَ التَّعَالِيمَ الْوَارِدَةَ فِي الْكُتُبِ الْأَخْلَاقِيَّةِ وَالْفَقْهِيَّةِ لِكَيْ يَتَخَلَّصَ مِنْ جَمِيعِ أَعْرَاضِ الْمَعْصِيَةِ وَالتَّمَرُّدِ عَلَى الْأَمْرِ الْإِلَهِيِّ.

ولذا فمن أجل أن يصبح التائب مستعدًا لتلقي الرحمة الإلهية، عليه أن يوجد ويقوِّي في نفسه حالة الإحساس بالحزن، والنَّدَمُ، وَكَذَلِكَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَقْطَعَ الرَّجَاءَ وَالْأَمَلَ بِالرَّحْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَيَحَافِظَ عَلَى هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ بِصُورَةٍ مُتَوَازِنَةٍ.



ومن الطبيعي أنه يجب عليه الالتجاء إلى الساحة الإلهية والحديث مع الله سبحانه بتضرّع وأنين طالبًا رحمته.

والمستفاد من أدعية ومناجاة أئمتنا المعصومين ومنها مناجاة التائبين أن أول مرحلة في التوبة هي الاعتراف بالذنب، وهذا الاعتراف ناشئ عن التنبه إلى آثار المعاصي الخطيرة وحالة الحزن والأسى التي تعتري الإنسان وتتجلى فيه تبعًا لها.

* * *

انتهينا إلى هنا من طرح بعض البحوث التي تُعدّ مقدّمةً للدخول في شرح المناجاة، وحن الآن وقت البدء بدراسة مناجاة التائبين.

«إِلَهِي، أَلْبَسْتَنِي الْخَطَايَا ثَوْبَ مَذَلَّتِي،
وَجَلَّلَنِي التَّبَاعُدُ مِنْكَ لِباسَ مَسْكَنَتِي،
وَأَمَاتَ قَلْبِي عَظِيمُ جِنَايَتِي، فَأَخِيهِ
بِتَوْبَةٍ مِنْكَ يَا أَمَلِي وَبُغْيَتِي، وَيَا سُؤْلِي
وَمُئَيَّتِي».

الآثار الخطيرة للمعصية

في مقام التوبة وإظهار الندم من الأخطاء والمعاصي يُشير الإمام السَّجَّاد (عليه السلام) إلى ثلاثة من آثار المعصية هي كالتالي:

١. الذلُّ والهوان في الدنيا والآخرة:



١٠٩



يعيش أولياء الله أعزَّةً في الدنيا والآخرة، عند الله وأمام الآخرين، ولكن من تلوَّث بالمعصية، يرتدي لباس الذلِّ والهوان، ويعيش في الدنيا والآخرة حقيراً لا قيمة له. ومن هنا يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إِيَّاكَ أَنْ تَسْتَسْهَلَ رُكُوبَ الْمَعَاصِي فَإِنَّهَا تَكْسُوكَ فِي الدُّنْيَا ذِلَّةً وَتُكْسِبُكَ فِي الْآخِرَةِ سَخَطَ اللَّهِ»^(١).

الذنب علامة الخضوع للشيطان، ومن هنا يتمكن من استعباد روح الإنسان وشخصيته ويحوِّله إلى شخص حقير ذليل. وفي مقابل ذلك تجعل العبودية لله وإظهار الذلَّة أمامه الإنسان عزيزاً.

وقد ورد في المصادر الإسلامية ذكر لباسين للإنسان من باب الاستعارة هما: لباس الذلَّة والخنوع الذي ترتديه روح الإنسان نتيجةً لارتكاب المعاصي، والآخر لباس العزَّة الذي تتزيَّن به روح المرء عبر التقوى واجتناب المعصية، ولا ريب أن اللباس الأفضل لروح الإنسان هو لباس العزَّة والتقوى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾^(٢).

إنَّ الأشخاص الذين تلوَّثوا بالدنيا، ومنعتهم شهواتها ولذاتها عن مزاولة الأمور المعنوية، إنَّ أولئك لا يُدرِّكون معنى الذلَّة والمهانة المعنوية. فهؤلاء يُدرِّكون فقط الذلَّة والمهانة الدنيوية، وهي أدنى بكثير من الذلَّة المعنوية. وعلى هذا الأساس نراهم يبذلون جهودهم وفقاً لما تصوِّره لهم أوهامهم من أجل الوصول إلى عوامل العزَّة والعظمة الدنيوية الوهميَّة.

(١) المحدث النوري، مستدرک الوسائل، الجزء ١١، الباب ٤١، الصفحة ٣٣٩، الحديث ١٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٢٦.



أما أهل البصيرة والذين استنارت قلوبهم بالنور الإلهي فيعلمون جيداً أن أسمى وأعلى مراتب العزة والرفعة هي العزة عند الله، تلك العزة التي ينالها عباد الله المخلصون الطائعون لأوامره، أولئك الذين قدّموا وجودهم كله لله سبحانه على طبقٍ من الإخلاص والعبودية.

ومن أبرز رواد العزة في الساحة الإلهية الشهداء الذين ضحّوا بأرواحهم في سبيل الله وترسيخ القيم الإلهية الخالدة. وهؤلاء وإن كانوا قد ماتوا - بحسب الظاهر - ودُفِنَت أجسادهم تحت التراب وتلاشت، ولكنهم عند الله منذ اللحظة الأولى لاستشهادهم، يجلسون على مائدته الخالدة إلى جانب أنبيائه وأوليائه، يروون غليل أرواحهم بمشاهدة الأنوار الإلهية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزِّقُونَ﴾^(١).

يعيش العصاة في هذه الدنيا حالة الحرمان من العناية واللفظ الإلهي بسبب آثار المعاصي الوخيمة، فتُسلب منهم حالة الدعاء والعبادة، ويعيشون حالة الحيرة والضياع بلا ملجأ يأوون إليه. وبعد الموت أيضاً حينما يقابل هؤلاء العصاة الوجوه النورانية للسالكين في رضوان الله الذائبين في حبه والمنعمين بالأنس معه ممن غمرهم كرم محبوبهم ومعبودهم، يشعرون بمنتهى الخجل والندم، فيعودون للنظر إلى أنفسهم التي غرقت في ذل المعاصي وشقائها فصارت ذواتهم عفنة كريهة، حينئذٍ يتمنى أحدهم لو كان تراباً ولا يبتلي بهذا العقاب الأليم والجزاء الرهيب.

(١) سورة آل عمران، الآية ١٦٩.



٢ . الابتعاد عن الله:

١١١



المعاصي تؤدّي إلى ابتعاد الإنسان عن الله شيئاً فشيئاً وإلى زيادة المسافة التي تفصله عنه، ومع كل ذنب يصدر عن الإنسان فإنه يبتعد قدماً عن الله، وبزيادة ارتكاب المعاصي والذنوب والغرق في مستنقع الخطايا يصبح الإنسان غريباً عن الله، ونتيجةً هذا الابتعاد والغربة عن الله الذلّة والمسكنة. قال أمير المؤمنين (عليه السلام): «إِلَهِي إِنْ كَانَتْ الْخَطَايَا قَدْ أَسْقَطَتْني لَدَيْكَ، فَاصْفَحْ عَنِّي بِحُسْنِ تَوَكُّلي عَلَيْكَ، إِلَهِي إِنْ حَطَّئْتُي الذُّنُوبَ مِنْ مَكَارِمِ لُطْفِكَ، فَقَدْ نَبَّهْنِي اليَقِينُ إِلَى كَرَمِ عَطْفِكَ»^(١).

٣ . موت القلوب:

إنّ الأشخاص الذين استعبدت المادّة قلوبهم، ولم يتجاوز فكرهم حدود المحسوسات وعالم الطبيعة، يرون انحصار الموت بالموت الجسدي. لكن الواقع غير ذلك، فالإنسان يمتلك نوعين من الحياة والموت، أحدهما الحياة والموت الجسديين، والآخر الموت والحياة الروحانيين. وقد ورد في القرآن الكريم التعبير أحياناً بكلمة «خَتَمَ» وأحياناً بكلمة «طَبَعَ» وأمثالهما للتدليل على موت القلب، من قبيل قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٢)، و﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾^(٣).

(١) مفاتيح الجنان، المناجاة الشعبانية.

(٢) سورة البقرة، الآية ٧.

(٣) سورة النحل، الآية ١٠٨.



ونتيجة الموت الروحي والإنساني هي أن الشخص وإن كان يعيش ويتحرك مثل الأنعام، لكنه لا نصيب له من الفضائل الإنسانية السامية، ولا يدرك القيمة الإلهية الرفيعة، ولا يسير نحو المقصد الإنساني الأصلي والهدف النهائي، أي القرب الإلهي. وبما أنه تخلف عن أصله ومقصده الأصلي نجده يعيش الحيرة والضياع، ولا يدري أي طريق يختار، ولا يعرف مصلحته أين، وما الذي ينفعه وما الذي يضره. وأسوأ بلاء يصيب الإنسان هو الوقوع في عبودية النفس ورق الأنانية، فحيث لن يستطيع تشخيص ما فيه خيره مما فيه شره، ولا ما فيه صلاحه مما فيه فساد، وبسبب ترسخ الظلمة في أعماق وجوده، لن تنفعه نصيحة الناصحين ولن يؤثر فيه وعظ الواعظين. ومن هنا يحدثنا القرآن الكريم عن عاقبة موتى القلوب المنقطعين عن الهداية الإلهية قائلًا: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(١).

الإنسان الفاقد للحياة الروحية والإنسانية هو أسير الأهواء والشهوات وقابع في سجن الأهوام، ومبتلى بحب المناصب الدنيوية والأمور الاعتبارية، إلى درجة أنه إذا دخل مجلساً ولم يلق الاحترام الذي يتوقعه ولم يستقبله الحاضرون بالتهليل ولم يجلسوه في صدر المجلس يشعر بانزعاج شديد. ومثل هذا الشخص يتعلق قلبه بالمنصب والرئاسة إلى درجة أنه إذا خسر منصبه في يوم من الأيام تضطرب حياته ويخسر معنوياته ويتصور أن ذلك نهاية الدنيا. فهو يشعر بمنتهى السعادة لما يلقاه من مديح الناس وخضوعهم أمامه وتبجيلهم إياه ومناداته بألقاب

كبيرة، لكن لا يفكر أبدًا في القيام بعمل يُفرح قلب الإمام الحجة عليه السلام ويجعله راضيًا عنه.

ويجب الالتفات إلى أن قلب الإنسان لا يموت دفعةً واحدة، وإنما يفقد الإنسان حياته الروحية بالتدريج رويدًا رويدًا. ومن هنا فحينما يرتكب الإنسان الذنب لأول مرة فإنه يشعر بالألم والندم، لكن بعد ارتكاب الذنب الأول يصبح أكثر استعدادًا لارتكاب الذنب الثاني. إذًا فما لم يتصدَّ الشخص للنفس الأمارة وأثرت وساوس الشيطان فيه، فسوف يُقدم على الذنب الثاني، وسينخفض في هذه الحالة مستوى ندمه وتألمه. وأخيرًا حينما يزداد مستوى ارتكابه للمعاصي والذنوب سيصل إلى مرحلة يجد نفسه سعيدًا بارتكاب المعاصي فضلًا عن عدم ندمه وتألمه، وهذا هو موت القلب. قال الإمام الباقر عليه السلام في بيان هذا المعنى: «مَا مِنْ عَبْدٍ إِلَّا وَفِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ بَيَاضَاءُ، فَإِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا خَرَجَ فِي النُّكْتَةِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ؛ فَإِنْ تَابَ ذَهَبَ ذَلِكَ السَّوَادُ، وَإِنْ تَمَادَى فِي الذُّنُوبِ زَادَ ذَلِكَ السَّوَادُ حَتَّى يُغَطِّيَ الْبَيَاضَ، فَإِذَا غَطَّى الْبَيَاضَ لَمْ يَرْجِعْ صَاحِبُهُ إِلَى خَيْرٍ أَبَدًا، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾»^(١).

من الطبيعي أن موت القلب ليس مرضًا عصبيًا على العلاج، وطريق العودة إلى حياة القلب والنجاة من موته هو ذكر الله، والتوبة والرجوع إليه سبحانه، وعبر هذا الطريق تُفتح أبواب الرحمة الإلهية أمام الإنسان، ومع عودة القلب للحياة مرةً أخرى تنهمر على قلب الإنسان البركات والفيوضات المعنوية.

* * *



«فَوَعِزَّتْكَ مَا أَجِدُ لِدُنُوبِي سِوَاكَ
غَافِرًا، وَلَا أَرَى لِكُسْرِي غَيْرَكَ جَابِرًا،
وَقَدْ خَصَعْتُ بِالْإِنَابَةِ إِلَيْكَ، وَعَنُوتُ
بِالِاسْتِكَانَةِ لَدَيْكَ».

التوبة والإنابة وسيلة نيل الرحمة الإلهية

الفقرة أعلاه من مناجاة الإمام السَّجَّاد (عليه السلام) تُفصح عن حقيقة أن باب الرحمة الإلهية مفتوح دائمًا أمام العباد الخاطئين، وأن الله وحده هو القادر على أن يغمر بفيض رحمته القلوب التي احترقت بلهيب المعاصي فيبردها. وقد منح الله في الكثير من آيات كتابه العزيز الأمل لعباده الخاطئين بالعفو والرحمة، ومن تلك الآيات التي أَمَّنَ الله بها عباده قوله: ﴿قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(١).

ثم يُشير الإمام (عليه السلام) إلى بعض شروط الدعاء والمناجاة مع الله، يعني الإنابة، والخضوع والاستكانة.

و«الإنابة» في اللغة مثل «التوبة» بمعنى الرجوع إليه سبحانه، والندم على المعاصي، وأما معناها الاصطلاحي فقد ورد في المفردات: «النوب: رجوع الشيء مرةً بعد أخرى. يُقال: ناب نوبًا ونوبة، وسُمي النحل نوبًا لرجوعها إلى مقارها، ونابته نائبة أي: حادثة من شأنها أن تنوب دائبًا، والإنابة إلى الله تعالى: الرجوع إليه بالتوبة وإخلاص العمل»^(٢).

(١) سورة الزمر، الآية ٥٣.

(٢) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، الصفحة ٨٢٧.



١١٥



ويقول الشيخ النراقي في ذلك: «اعلم أن الإنابة هو الرجوع عن كل شيء مما سوى الله، والإقبال على الله تعالى بالسر والقول والفعل، حتى يكون دائماً في فكره وذكره وطاعته، فهو غاية درجات التوبة وأقصى مراتبها، إذ التوبة هو الرجوع عن الذنب إلى الله والإنابة هو الرجوع عن المباحات أيضاً إليه سبحانه، فهو من المقامات العالية والمنازل السامية»^(١).

ويقابل الخضوع والاستكانة أمام المخلوق ومن أجل الدنيا - الذي ظاهره الذلة وفقر الكرامة وباطنه الخسران والهلاك - الخضوع والاستكانة أمام الساحة الربوبية، الذي ظاهره إبداء الذلة لكن باطنه العزة والكرامة الإنسانية، وما يُعطي الإنسان سموّ والعزة هو الخضوع والتواضع والانكسار أمام الله سبحانه، ومقام التوبة لا يناله إلا الخاشعون في محضره تعالى والخاضعون له، وأما من يستكبر أمام الله ويرى نفسه عظيماً، فلن ينال فضيلة التوبة أبداً.

* * *

«فَإِنْ طَرَدْتَنِي مِنْ بَابِكَ فَبِمَنْ أَلُوذُ،
وَإِنْ رَدَدْتَنِي عَنْ جَنَابِكَ فَبِمَنْ أَعُوذُ، فَوَا
أَسْفَاهُ مِنْ خَجَلْتِي وَافْتِضَاحِي، وَوَا لَهْفَاهُ
مِنْ سُوءِ عَمَلِي وَاجْتِرَاحِي».

(١) محمد مهدي النراقي، جامع السعادات، الجزء ٣، الصفحة ٨٨.



المقال الثامن

البحث عن الرحمة الإلهية (٢)

لسان الاسترحام والتوبة إلى الله

تظهر التوبة عند الإنسان بعد أن يلتفت إلى عظمة الله سبحانه ولزوم عبوديته، والخوف من عاقبة الذنوب وما تؤذي إليه من خسائر تصيب الإنسان نتيجة للأخطاء التي ارتكبها، ورجاء فضل الله ورحمته. وهنا يجب على الإنسان أن يتحدث مع الله بلسان الاسترحام. وهو ما نشاهده في الأدعية والمناجيات، وهذا اللسان له ميزات خاصة، ويقوم على أساس اعتراف الإنسان بعجزه وفقره الذاتي وحاجته الشديدة إلى الله المتعال وما يمثله ذلك من تمهيد الأرضية لتلقي الرحمة الإلهية.

كما يجب الالتفات إلى أننا عاجزون عن إدراك ذات الله وصفاته إدراكاً تاماً، والنتيجة هي أننا لا يمكننا أن نصل إلى فهم صحيح لعلاقتنا مع الله، وأن المفاهيم التي نستعملها فيما يرتبط بالله وعلاقتنا به هي نفس المفاهيم التي نستعملها فيما يرتبط بالناس وعلاقتنا بهم، ولكن بعد تجريد العلاقات الإنسانية من النقص والضييق ننسبها إلى الله سبحانه، وفي مقام التفاهم - ومنه مقام الكلام مع الله - تجدنا مضطرين





إلى استعمال المفاهيم المحدودة التي لا تكشف بأي وجهٍ عن كُنه الصفات الإلهية وحقيقتها.

ومن هنا نجد الإمام الباقر عليه السلام يتصدّى لتبيين حقيقة عجزنا عن إدراك ذات الله وصفاته، وأن المفاهيم التي نستعملها في هذا المجال إنما هي من صناعة ذهننا المحدود الناقص، ولا يمكنها بحالٍ أن تكشف عن حقيقة الذات الإلهية وصفاتها قائلاً: «كُلُّ ما مَيِّزْتُمُوهُ بأوهامِكُمْ في أَدَقِّ مَعَانِيهِ مَخْلُوقٌ مَصْنُوعٌ مِثْلُكُمْ مَرْدُودٌ إِلَيْكُمْ، وَلَعَلَّ النَّمْلَ الصِّغَارَ تَتَوَهَّمُ أَنَّ لِلَّهِ تَعَالَى زُبَانِيَّتَيْنِ فَإِنَّ ذَلِكَ كَمَالُهَا وَيَتَوَهَّمُ أَنَّ عَدَمَهَا نُقْصَانٌ لِمَنْ لَا يَتَصَفُّ بِهِمَا، وَهَذَا حَالُ الْعُقَلَاءِ فِيمَا يَصِفُونَ اللَّهَ تَعَالَى بِهِ»^(١).

فالإنسان يقيس الله بنفسه، وينسب إليه من الأحوال والصفات ما يجده في نفسه، ولكن بعد تنقيته من الشوائب، مثاله، أن الإنسان منا إذا ما رأى شخصاً بائساً يعاني الصعاب ويعيش حالة الشقاء ويحتاج إلى المساعدة، فإنه يجد في نفسه حالةً من العطف والشفقة عليه ودافعاً لرحمته ومد يد العون إليه، بل يشعر أن قلبه يحترق ألماً لأجله، فحالة الرحمة والشفقة هذه ينسبها الإنسان إلى الله، لكن بعد تنقيتها من النقائص والقيود فيقول: الله يرحم عباده، ظناً منه بأنه يفهم معنى الرحمة الإلهية. ومن جهة أخرى إذا قابل شخصٌ إحساننا له بالعداوة ونكران الجميل، فإننا نتتابنا حالة من الغضب، فحالة الغضب هذه ننسبها إلى الله ونقول: إذا جازى شخص كل هذه النعم الإلهية بالنكران والعصيان فإن الله يغضب عليه، ظناً منا أننا نفهم حقيقة معنى الغضب الإلهي.

(١) المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ٦٩، الباب ٣٧، الصفحة ٢٩٢، الحديث ٢٣.

وقد وردت هذه التعبيرات عدة مرات في القرآن الكريم أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(١).

فمثل هذا التعبيرات وأنحاء التوصيف وإن لم تكن تتناسب مع الصفات الإلهية الواقعية، وكانت لبيان علاقات الناس فيما بينهم فحسب، لكن بما أننا لا نُدرك كُنه الذات الإلهية وحقيقتها، ولا نستطيع فهم حقيقة علاقتنا مع الله، فلا سبيل أماناً سوى استعمالها.

ومن الطبيعي أن أنبياء الله وأوليائه - الذين بلغوا أعلى مراتب الكمال، وأزال الله عنهم الحُجب فاستطاعوا مشاهدة شيء من الحقائق الإلهية، ونالوا معرفةً حضوريةً بذلك - يمكنهم في هذا المجال مشاهدة وإدراك حقيقة علاقاتهم مع معبودهم.

مراحل الاسترحام

الآن وبعد أن فهمنا أنه في مقام الاسترحام وطلب العفو والرحمة من الله، يجب أن نتحدث بلسان التذلل والالتماس والخضوع لنصبح بذلك مستعدين لتلقي رحمته، يجب أن نوضح المراحل التي يجب على العبد المرور بها في مقام الاسترحام وطلب الرحمة الإلهية.

توجد هنا - وبنحو عام - خمس مراحل وهي:

المرحلة الأولى: إظهار حالة العجز والضعف: كما أنه من الطبيعي أن يتأثر الناس عندما يرون شخصاً ضعيفاً أو عاجزاً فتثار فيهم حالة من



الشفقة والعطف، فكذلك من يطلب رحمة الله، عليه أن يُظهر عجزه أمام الله سبحانه.

المرحلة الثانية: بملاحظة أن إظهار العجز والبؤس لا فائدة منه أمام من ليس في يده من الأمور شيء ولا يمكنه مد يد العون إلى الإنسان، كذلك في ضوء الاعتقاد بأن الله قادرٌ على كل شيء، وبيده القدرة المطلقة وهو القادر على مساعدتنا، فيجب - في مقام الاسترحام - أن نعترف بقدرة الله المطلقة وأن نُبدي عجزنا عن نفع أنفسنا قائلين: «يا إلهي ليس بيدنا شيء وأنت القادر على إصلاح ما أَفْسَدْتَهُ خطايانا ومعاصينا، وليس بيدنا شيء لتعويض العُمر المنصرم والفرص الضائعة والأخطاء التي ارتكبتها والخسائر التي لحقتنا بسببها»، فالله وحده هو القادر على تعويض كل ذلك ومنحنا فرصة تعويض وتدارك ما فاتنا من فرص. ومن هنا ولكي نوَفِّر أكبر فرصة لتلقّي الرحمة الإلهية يجب بالإضافة إلى إظهار العجز والبؤس أن نعترف بقدرة الله على غفران أخطائنا ومعاصينا والتعويض عنها.

المرحلة الثالثة: قد يكون الشخص قادرًا على القيام بعمل ما، لكنه لا يبادر إلى فعله؛ لأنه بالإضافة إلى القدرة يُشترط أيضًا توفّر الرغبة والإرادة للقيام به. وعليه، فيجب في مقام الاسترحام، مضافًا إلى الاعتراف بقدرة الله على غفران المعاصي والخطايا، إظهار الاطمئنان بأنه سوف يستجيب لنا ويغفر خطايانا، وأن نقول له سبحانه: «أنت الذي ستغفر معاصينا وخطايانا وتعفو عنها ولن تدع عبدك حائرًا في ساحتك». ومن أجل إيجاد الرجاء بمغفرة الله للخطايا وإظهار الاطمئنان بالعفو الإلهي، يجب علينا أن نتلو تلك الصفات الإلهية التي تقوِّي في أنفسنا حالة التذلل والمناجاة والرجاء بالله وعفوه والاطمئنان برحمته. فمثلا نناديه



١٢١



بصفات الغفور، الرحيم، العَفُوّ، الرحمان، الكريم، ولا ريب في أن ذكر صفات الجَبَّار والقَهَّار وأمثالها لا تناسب حالة التذلل والمناجاة وطلب الرحمة والمغفرة.

المرحلة الرابعة: ملاحظة أن الآخرين ارتكبوا المعاصي أيضًا ونالوا العفو الإلهي، وإذا تأملنا في أدعية ومناجاة أولياء الله سنشاهد أنهم كانوا يخاطبون الله قائلين: إلهي لستُ أُولَ من عصى وأخطأ، وليست هذه المرة الأولى التي تغفر فيها لعبد من عبادك وتغفو عنه، إلهي أنت قلت أنه كان قبلكم عصاة وخاطئون جاؤوا إلى عتبي وطلبوا عفوي وغفراني فشملتهم برحمتي وغمرتهم بعفوي، إذاً يا إلهي يا من رحمته وعفوه متواصل دائم لا حدَّ له، أعفُ عنَّا كما عفوتَ عن العصاة من قبلنا، واشملنا برحمتك وعفوك يا واسع المغفرة.

المرحلة الخامسة: أن نخاطب الله قائلين: إلهنا أنت الذي دعوتنا إليك ووعدتنا بالاستجابة والعفو قائلًا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾^(١)، وكيف يمكن أن يدعو الله عبده العاصي ويطلب منه التوبة ويوعده بأن يشملته بعفوه، ولا يعمل بما وعده؟! لا شك أن مثل هذا الظن باطل في حق الله سبحانه، وإذا دعانا الله إليه ووعد بأن يشملنا بعفوه ورحمته، فلا شك في أنه سيفي بوعده.

ونحن يجب علينا في مقام الاسترحام والمناجاة أن نذكر باللسان هذا الاعتقاد واليقين ونخاطب الله قائلين: إلهنا نحن على يقين بأنك تقبل توبتنا وتتجاوز عن خطايانا، ولا يمكن أن لا تفي بوعدك فتطرد



عبادك العصاة النادمين عن ساحتك وتلقي بهم في نار غضبك. ومن هنا نرى أمير المؤمنين عليه السلام يبين لنا هذا المرحلة بأجمل بيان قائلاً: «مَوْلَايَ، اَتَسَلُطُ النَّارَ عَلَى وُجُوهِ خَرَّتْ لِعَظَمَتِكَ سَاجِدَةً، وَعَلَى أَلْسُنٍ نَطَقَتْ بِتَوْحِيدِكَ صَادِقَةً، وَبِشُكْرِكَ مَادِحَةً، وَعَلَى قُلُوبٍ اعْتَرَفَتْ بِالْهِمَّتِكَ مُحَقِّقَةً، وَعَلَى ضَمَائِرٍ حَوَتْ مِنَ الْعِلْمِ بِكَ حَتَّى صَارَتْ خَاشِعَةً، وَعَلَى جَوَارِحَ سَعَتْ إِلَى أَوْطَانِ تَعَبُدِكَ طَائِعَةً وَأَشَارَتْ بِاسْتِغْفَارِكَ مُذْنِعَةً، مَا هَكَذَا الظَّنُّ بِكَ وَلَا أَخْبِرْنَا بِفَضْلِكَ عَنْكَ يَا كَرِيم»^(١).

الله تعالى ودعوة عباده العصاة إليه

وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالرَّوَايَاتِ، وَخَاصَّةً فِي الْأَحَادِيثِ الْقَدْسِيَةِ الْكَثِيرَةِ، دَعْوَةُ الْعِبَادِ الْعُصَاةِ إِلَى اللَّهِ، وَبَعْضُ تِلْكَ الدَّعَوَاتِ تُثِيرُ حَيْرَةَ الْإِنْسَانِ. وَمِنْ نَمَازِجِ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا^(٢).

وَفِي آيَةٍ أُخْرَى يَدْعُو اللَّهُ الْعُصَاةَ إِلَيْهِ وَيُنْهَاهُمْ عَنِ الْيَأْسِ مِنْ رَحْمَتِهِ قَائِلًا: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(٣).

وَفِي حَدِيثٍ قُدْسِيٍّ يَخَاطَبُ اللَّهُ نَبِيَهُ دَاوُودَ عليه السلام فِيمَا يَرْتَبِطُ بِشَوْقِهِ وَانْتِظَارِهِ سُبْحَانَهُ عَوْدَةَ الْعُصَاةِ وَالْخَاطِئِينَ وَالْمُبْعِدِينَ إِلَى سَاحَتِهِ وَرَحْمَتِهِ: «يَا دَاوُودُ، لَوْ يَعْلَمُ الْمُذْبِرُونَ عَنِّي كَيْفَ انتِظَارِي لَهُمْ وَرَفْقِي

(١) مفاتيح الجنان، دعاء كميل.

(٢) سورة النساء، الآية ٣٢.

(٣) سورة الزمر، الآية ٥٣.



بِهِمْ وَشَوْقِي إِلَى تَرْكِ مَعَاصِيهِمْ لَمَاتُوا شَوْقًا إِلَيَّ وَتَقَطَّعَتْ أَوْصَالُهُمْ مِنْ مَحَبَّتِي»^(١).

وفي رواية يقول الإمام الباقر عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ أَضَلَّ رَاحِلَتَهُ وَزَادَهُ فِي لَيْلَةٍ ظُلْمَاءَ فَوَجَدَهَا، فَالَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ بِرَاحِلَتِهِ حِينَ وَجَدَهَا»^(٢).

تخيّلوا رجلاً كان يركب جملاً يقطع به الصحراء القاحلة فينزل ليستريح ليلاً، وبعد أن تأخذه إغفاءة يستيقظ ليجد جمّله قد هرب وبقي وحيداً بلا راحلة ولا زاد. فيفتش هنا وهناك ولا يجد لراحلته عيناً ولا أثراً، فيملؤه شعورٌ بالقلق والخوف، ويمضي الوقت وهو على هذا الحال، وشيئاً فشيئاً يبدأ يشعر بالجوع والعطش، ويزداد شعوره هذا مع مرور الوقت، ويستولي عليه اليأس من العثور على جمّله وزاده، فيجلس على الأرض وهو على وشك الموت جوعاً وعطشاً وخوفاً. لكن فجأة تقع عيناه على خيال قادم من بعيد ويتأمل جيداً هذا المشهد فإذا به يرى جمّله وزاده وهو مقبل إليه. فهل يمكن وصف ما يشعر به من فرح وسعادة بعودة الحياة إليه ثانية؟ يقول عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ أَضَلَّ رَاحِلَتَهُ وَزَادَهُ فِي لَيْلَةٍ ظُلْمَاءَ فَوَجَدَهَا». وحينما يدعونا الله إلى التوبة وبهذا الوصف، فهل يُعقل أنه لا يقبلنا ولا يتجاوز عن خطايانا؟ حاشا لله أن يشخّ برحمته عن عبده الذي قصده وناشده بلسان التضرّع والاستغفار والعويل.

(١) المولى محسن الفيض الكاشاني، المحجة البيضاء، الجزء ٨، الصفحة ٦٢.

(٢) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ٤١، الباب ٢٠، الصفحة ٤٠، الحديث ٧٣.



إِذَا، بِنَاءً عَلَى مَا تَقَدَّمَ - وَهُوَ مَا يَتطَابَقُ مَعَ التَّعَالِيمِ الدِّينِيَّةِ أَيْضًا -
هَنَّاكَ عَامِلَانِ فِي مَقَامِ التَّوْبَةِ وَالِاسْتِرْحَامِ يَجْلِبَانِ رَحْمَةَ اللَّهِ الَّتِي وَسَّعَتْ
كُلَّ شَيْءٍ: أَحَدُهُمَا أَنْ يُدْرِكَ الْعَبْدُ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْفَقْرِ وَالذَّلَّةِ وَالْبُؤْسِ
وَأَنْ يَعْتَرِفَ بِذَلِكَ، وَالْآخَرُ أَنْ يُدْرِكَ الرَّحْمَةَ الْإِلَهِيَّةَ اللَّامْتَنَاهِيَّةَ وَيَرْجُوَهَا،
الرَّحْمَةَ الَّتِي مَهْمَا اسْتَفَادَ مِنْهَا الْعِبَادُ وَالْمَخْلُوقُونَ لَا يَنْقُصُ مِنْهَا شَيْءٌ،
تِلْكَ الرَّحْمَةُ الَّتِي لَا يَنْقُطِعُ انْتِهَارُهَا عَلَى الْمَخْلُوقَاتِ بِالإِرَادَةِ الْإِلَهِيَّةِ
التَّكْوِينِيَّةِ الْقَاهِرَةِ.

وَيَجِبُ ذِكْرُ هَذِهِ الْإِعْتِقَادَاتِ ضَمْنَ الْمَرَاهِلِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ فِي مَقَامِ
الِاسْتِرْحَامِ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ أَهْلَ الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُمْ مِنَّةٌ كَثِيرَةٌ عَلَيْنَا، وَمَنْ أَكْبَرُ تِلْكَ
الْمِنَّةِ أَنَّهُمْ عَلَّمُونَا طَرِيقَةَ الدَّعَاءِ وَالْمُنَاجَاةِ، وَكَشَفُوا لَنَا عَنْ بَدَائِعِ الدَّعَاءِ
وَالْمُنَاجَاةِ الرَّائِعَةِ لِلْمُنَاجَاةِ وَالْحَدِيثِ مَعَ الْمَعْبُودِ.

وَإِحْدَى تِلْكَ الْمُنَاجَاةِ الرَّائِعَةِ هِيَ مُنَاجَاةُ التَّائِبِينَ، وَهِيَ نَمُودَجْ
عَظِيمٌ لَطَرِيقَةِ مُوَاجَهَةِ الْعَبْدِ الْخَاطِئِ مَعَ اللَّهِ، وَفِيهَا تَعْلِيمٌ لِمَا يَنْبَغِي أَنْ
يُقَالَ مِنْ حَدِيثِ أَمَامِهِ سُبْحَانَهُ.

حَفِظَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِأَسْرَارِ عَبْدِهِ الْعَاصِي

تَقْدِمُ فِي الْجُلُوسَةِ الْمَاضِيَةِ دَرَاةَ فُقَرَاتٍ مِنْ هَذِهِ الْمُنَاجَاةِ، وَالْآنَ نَدْرُسُ
بَقِيَّةَ فُقَرَاتِهَا:

«أَسْأَلُكَ يَا غَافِرَ الذَّنْبِ الْكَبِيرِ، وَيَا جَابِرَ
الْعَظِيمِ الْكَسِيرِ، أَنْ تَهَبَ لِي مُوَبَقَاتٍ



الْجَرَائِرِ، وَتَسْتُرْ عَلَيَّ فَاضِحَاتِ السَّرَائِرِ،
وَلَا تُخْلِنِي فِي مَشْهَدِ الْقِيَامَةِ مِنْ بَرْدِ
عَقُوكَ وَغَفْرِكَ، وَلَا تُعْزِنِي مِنْ جَمِيلِ
صَفْحِكَ وَسِتْرِكَ».

في مطلع هذه الفقرة من المناجاة يصفُ الإمام عليه السلام الله سبحانه بأنه غافر الذنب الكبير، وهو ما يُصطلح عليه بـ«الكبيرة».

وهنا لا بد من القول: إن الذنب مخالفةٌ للتكليف الإلزامي الإلهي وطغيانٌ على الذات الإلهية العظيمة؛ لذا فإنه وإن كان صغيراً، فهو كبيرٌ في نظر أهل المعرفة.

بيد أنه ورد في القرآن والروايات تقسيم الذنوب إلى كبيرة وصغيرة، والتعبير بالكبيرة دليل على عظمة المعاصي، وكل ذنب اشتمل على واحد من الشروط التالية عُذُّ كبيرة:

- ١- الذنوب التي توعد الله مرتكبها بالعذاب.
- ٢- الذنوب التي تُعد في نظر أهل الشرع من الكبائر والتي جاءت الإشارة إلى فداحتها في لسان الروايات.
- ٣- الذنوب التي عدتها المصادر الشرعية أكبر من غيرها.
- ٤- وأخيراً الذنوب المصرح بها في الروايات المعتبرة بأنها من الكبائر^(١).

(١) انظر: ناصر مكارم الشيرازي، تفسير الأمل، الجزء ١٧، الصفحة ٢٥٥.



فالإمام عليه السلام يُريد من الله أن يغفر الذنوب التي تُلقِي الإنسان في مخمصة الهلكة، وأن يستر عليه الخطايا والأمر الفاضحة التي أسرها، وأن لا يفضحه على رؤوس الأشهاد. فالإنسان نتيجة للغفلة والجهل يرتكب المعاصي في السر والخلو، ويظن أن أحدًا لم يره، لكن ذلك ليس بخافٍ على الله في أي مكان أو زمان، والله شاهد على أعمال عباده، لكن بما أنه سبحانه ستار العيوب وحافظ السر، يستر عيوب الناس ومعاصيهم الخفية عن أعين الخلق.

وبتعبير آخر: إن الله يسدل للطفه وكرمه حجاب الستر بين عيوب الإنسان وبين الناس لكي يحول دون فضيحته، ولو لم تكن هذه الحفاظة الإلهية على أسرار الناس وإخفاء عيوبهم في الدنيا ولو انكشف عار الإنسان على رؤوس الأشهاد، لما تمكّن أحد أن يرفع رأسه بين الناس. وهو عليه السلام يطلب من الله أن يخفي بلطفه وإحسانه في الآخرة أسرار العبد الخاطئ كما أخفاها في دار الدنيا، وأن لا يفضحه ويذله بين عباده.

وفي الفقرة المذكورة وُصفت كلمة «الصفح» التي هي بمعنى الإعراض بوصف «الجميل» وهذا الوصف ناشئ عن أن الإعراض عن شيء قد يكون نتيجة لعدم الاهتمام به، وقد يكون نتيجة للغضب، وقد يكون نتيجة للعفو، وفي الفقرة المذكورة وَرَدَ الصّح مع وصف الجميل ليدلّ على المعنى الثالث.

كما أن هذا المعنى وَرَدَ في القرآن الكريم أيضًا في خطاب موجّه للنبي ﷺ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ فَأَصْفَحْ أَصْفَحَ الْجَمِيلِ﴾^(١).



وفي رواية عن الإمام الرضا عليه السلام وَرَدَّ أَنْ الْمَقْصُودُ مِنْ «فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ» هُوَ الْعَفْوُ وَالْمَغْفِرَةُ دُونَ مَوَازِدَةٍ وَلَوْ.

* * *

«إِلَهِي ظَلَّلْ عَلَى ذُنُوبِي غَمَامَ رَحْمَتِكَ،
وَأَرْسِلْ عَلَى عُيُوبِي سَحَابَ رَأْفَتِكَ، إِلَهِي
هَلْ يَرْجِعُ الْعَبْدُ الْأَبْقَى إِلَّا إِلَى مَوْلَاهُ؟ أَمْ
هَلْ يُجِيرُهُ مِنْ سَخَطِهِ أَحَدٌ سِوَاهُ».

العبد العاصي باحثٌ عن رأفة المعبود ومأواه

حقيقة الذنب نيرانٌ خفيةٌ تلتهم العاصي وتحرقه في الدنيا والآخرة، وتحيل بلهيبها إيمان الإنسان وروحه إلى رماد في الدنيا، وفي القيامة تحرق جميع وجوده ورصيده، ولا يُطْفِئُ لهيب هذه النيران المشتعلة إلا نسائم رحمة الله وأمطار لطفه فتجعلها بردًا وسلامًا.

وعلاقة العبد والمولى هي إحدى العلاقات القائمة بين الله والإنسان، فكل الناس عبيد والله هو مولاهم المطلق. والإمام في الفقرة السابقة يُشير إلى هذه العلاقة، ويرسم لنا أمير المؤمنين عليه السلام في مناجاته في مسجد الكوفة معالم هذه العلاقة: «مَوْلَايَ يَا مَوْلَايَ، أَنْتَ الْمَوْلَى وَأَنَا الْعَبْدُ، وَهَلْ يَرْحُمُ الْعَبْدَ إِلَّا الْمَوْلَى»^(١).

(١) مفاتيح الجنان، مناجات أمير المؤمنين عليه السلام في مسجد الكوفة.



العبد العاصي مثل العبد الغلام الذي ارتكب خطأً وهرب خشية عقوبة مولاه، لكنه لا ملجأ له ولا مأوى سوى حظيرة مولاه، ولا طريق أمامه سوى العودة إليه. فالذي يرتكب معصية هو - في الحقيقة - يهرب من تحت ولاية الله، لكنه بعد فترة يُدرك أنه أينما ذهب فهو تحت ربوبية الله، والفرار من طاعة الله لا يمنحه الحرية، بل هو في الحقيقة يحرمه من الحرية الحقيقية، وإنه بذلك يكبل نفسه بسلاسل عبودية هوى النفس والشيطان وسجنهما. وحينما يرى أن جميع الأبواب موصدة في وجهه يُوقن أنه لا ملجأ أمامه سوى ساحة الربوبية ولا طريق له سوى العودة إلى مولاه الحقيقي وعبوديته، وهذه العودة إلى حريم العبودية تتحقق بالتوبة. وحينما يرجع العبد العاصي نادماً إلى مولاه، لا يستطيع أحد أن ينقذه من سياط العقوبة سوى مولاه؛ ولذلك نجده يلتجئ إلى سيّده فيحتمي من غضبه بسيّده نفسه.

وكذلك الإنسان العاصي حينما يرجع إلى الله، فهو يعلم أنه ليس من أحد يستطيع أن يؤمن له ملجأً من غضب الله، لذا يبدأ بالتضرّع والبكاء والاعتذار لكسب رضا الله ليصبح في مأمن من غضبه. وإذا كرّر عبثاً خطاه عدّة مرّات وهرب كل مرّة ورجع بعدها، فمن الطبيعي أن لا يغفر له مولاه بسبب تكرار خطئه، وأن يعاقبه على ذلك. لكن مولانا كريم ورحيم، ورغم الخطيئة المتكررة والزلل الصادر عنا مراراً وتكراراً والعودة إليه والتوبة الضعيفة بعد كل خطأ ارتكبناه، لكنه مع ذلك ينتظر عودتنا الحقيقية وأبواب ساحة أمنه وأمانه مُشرعة دائماً في وجوهنا.



«إِلَهِىَ إِنْ كَانَ النَّدَمُ عَلَى الذَّنْبِ تَوْبَةً
فَإِنِّى وَعِزَّتِكَ مِنَ النَّادِمِينَ، وَإِنْ كَانَ
الِاسْتِغْفَارُ مِنَ الْخَطِيئَةِ حِطَّةً فَإِنِّى لَكَ مِنَ
الْمُسْتَغْفِرِينَ، لَكَ الْعُثْبَى حَتَّى تَرْضَى».

التوبة والاستغفار أو رجوع العبد العاصي إلى معبوده

إلهي أنا ذليل مسكين أمامك وأنت القادر المطلق في هذا الوجود،
وبيدك الرحمة التي وسعت كل شيء، وهل أمامي طريق إلى رحمتك
وعفوك سوى أن أتوب إليك وأستغفرك، وهل التوبة سوى الندم عن الفعل
القبیح الشائن؟ فها أنا يا إلهي الرؤوف الرحيم نادٍ نادماً.

يُستفاد من هذه الفقرة من المناجاة ومن روايات أخرى أن حقيقة
التوبة الندم على المعصية، وهذا الندم ناشئ عن قبح المعصية عند
الله ومخالفة أمره وما يُرضيه. والاستغفار - الذي هو طلب عفو الله
عن المعاصي - يُعدُّ أيضاً أحد أركان التوبة الأساسية. وكُلُّ من الاستغفار
والتوبة يُعدّان من لوازم حياء العبودية، بمعنى أن الخجل والحياء أمام
المعبود يوجب رجوع الإنسان - بعد ارتكابه المعصية - إلى نفسه
والتوسّل بالتوبة والاستغفار.

والنقطة الأخرى هي أنه ورد في التعاليم الدينية التأكيد على أن
الإنسان بعد ارتكابه المعصية يجب عليه التوبة مباشرة؛ لأن مقتضى
تقدّم رحمة الله الواسعة على غضبه، هو أن الذنب الصادر من الإنسان
لا يُكتب ولا يُسجّل عليه في دفتر وسجّل أعماله لفترة من الزمن، وبعد
مضي تلك الفترة إذا لم يُتدارك ذلك الذنب بالتوبة والاستغفار، فإنه



يُسَجَّل، وفي هذه الحالة سيكون من الصعب تدارك الذنب المُسَجَّل في سجل أعمال الإنسان وتلافيه.

وقد ورد في بعض الروايات أن تلك الفترة بين الذنب وتسجيله هي سبع ساعات، كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا إِلَّا أَجَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ سَبْعَ سَاعَاتٍ مِنَ النَّهَارِ، فَإِنْ هُوَ تَابَ لَمْ يُكْتَبْ عَلَيْهِ شَيْءٌ وَإِنْ هُوَ لَمْ يَفْعَلْ كَتَبَ [اللَّهُ] عَلَيْهِ سَيِّئَةً. فَأَتَاهُ عَبَادُ الْبَصْرِيِّ فَقَالَ لَهُ: بَلَّغْنَا أَنَّكَ قُلْتَ: مَا مِنْ عَبْدٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا إِلَّا أَجَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ سَبْعَ سَاعَاتٍ مِنَ النَّهَارِ؟ فَقَالَ لَيْسَ هَكَذَا قُلْتَ وَلَكِنِّي قُلْتُ: مَا مِنْ مُؤْمِنٍ وَكَذَلِكَ كَانَ قَوْلِي»^(١).

وقد ورد في بعض الروايات أن تلك الفترة تبلغ من الصباح إلى الليل، وهو واردٌ عن الإمام الصادق عليه السلام أيضًا: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا أُجِّلَ مِنْ غُدُوَّةِ إِلَى اللَّيْلِ، فَإِنْ اسْتَغْفَرَ اللَّهُ لَمْ يُكْتَبْ عَلَيْهِ»^(٢).

فإذا تكدّرت علاقة المحبة والعلاقة العاطفية، فإن الشخص المتسبب بتوتر تلك العلاقة عبر سلوكه غير اللائق عندما يرجع إلى رشده ويسعى إلى إصلاح ما أفسده من تلك العلاقة وتجديد أواصرها، فإنه يذهب إلى محبوبه معترفًا ويرى أنه مستحق لعتابه ولومه قائلًا له: لك الحق في لومي وتأنيبي، قل في حقي ما شئت حتى ترضى.

والإمام عليه السلام أيضًا يخاطب الله قائلًا: لك العُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وبهذه الجملة يبيّن لنا أن العاصي يستحقّ لوم الله سبحانه وعتابه.

* * *

(١) الكليني، أصول الكافي، الجزء ٢، الصفحة ٤٣٩، الحديث ٩.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة ٤٣٧، الحديث ١.



«إِلَهِي بِقُدْرَتِكَ عَلَيَّ تُبْ عَلَيَّ، وَبِعِلْمِكَ عَنِّي أَعْفُ عَنِّي، وَبِعِلْمِكَ بِي إِزْفُقْ بِي، إِلَهِي أَنْتَ الَّذِي فَتَحْتَ لِعِبَادِكَ بَابًا إِلَى عَفْوِكَ، سَمَّيْتَهُ التَّوْبَةَ فَقُلْتُ تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا؛ فَمَا عَذْرُ مَنْ أَغْفَلَ دُخُولَ الْبَابِ بَعْدَ فَتْحِهِ».

بعد أن يطلب الإمام من الله تعالى قبول توبته وأن يشملته بعفوه وأن يرفق به، يخاطبه قائلاً: أنت الذي فتحت باب العفو والتوبة في وجه عبادك، ولو لم تتمحهم هذه الهداية والرجاء، لما كان لديهم أمل في الخلاص من تبعات الذنوب والمعاصي. وإذا لم يغتنم الإنسان فرصة الاستفادة من التوبة، فهو المقصر في حق نفسه.

* * *

«إِلَهِي إِنْ كَانَ قَبِيحَ الذَّنْبِ مِنْ عَبْدِكَ، فَلْيُخْسِنِ الْعَفْوَ مِنْ عِنْدِكَ، إِلَهِي مَا أَنَا بِأَوَّلِ مَنْ عَصَاكَ فَتُبَّتْ عَلَيْهِ، وَتَعَرَّضَ لِمَعْرِوفِكَ فَجُدْتَ عَلَيْهِ».

المحاكمة والعفو من سنن اللطف الإلهي بالعباد

يتلوّث الناس بالذنوب فيما قل منها أو كثر، غير أنّ البعض منهم يلتفت إلى خطئه ويرجع إلى الله بالتوبة فيشمّله العفو الإلهي، لكن البعض



يُمضون أيامهم بالغفلة والعصيان، ويحرمون أنفسهم من المغفرة والعفو الإلهي.

وأول شخص تاب إلى الله وقبل الله توبته هو نبي الله آدم عليه السلام، ويحدثنا الإمام الصادق عليه السلام عما طلبه آدم عليه السلام من الله حين توبته، وما أعطاه الله سبحانه له قائلًا: «إِنَّ آدَمَ عليه السلام قَالَ: يَا رَبِّ سَلَّطْتَ عَلَيَّ الشَّيْطَانَ وَأَجْرِيئَهُ مِنِّي مَجْرَى الدَّمِّ فَاجْعَلْ لِي شَيْئًا. فَقَالَ: يَا آدَمُ جَعَلْتُ لَكَ أَنْ مَنْ هَمٌّ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بِسَيِّئَةٍ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ عَلَيْهِ سَيِّئَةٌ وَمَنْ هَمٌّ مِنْهُمْ بِحَسَنَةٍ فَإِنْ لَمْ يَعْمَلَهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ فَإِنْ هُوَ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا. قَالَ: يَا رَبِّ زِدْنِي. قَالَ: جَعَلْتُ لَكَ أَنْ مَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ سَيِّئَةً ثُمَّ اسْتَغْفَرَ لَهُ غُفِرَتْ لَهُ. قَالَ: يَا رَبِّ زِدْنِي. قَالَ: جَعَلْتُ لَهُمُ التَّوْبَةَ، أَوْ قَالَ بَسَطْتُ لَهُمُ التَّوْبَةَ حَتَّى تَبْلُغَ النَّفْسُ هَذِهِ. قَالَ يَا رَبِّ حَسْبِي»^(١).

وفي آخر المناجاة يذكر الإمام صفات متناسبة مع مقام الرحمة والمغفرة الإلهية، إذ يقول بإصرار ملتئمًا العفو والمغفرة من الله سبحانه:

«يَا مُجِيبَ الْمُضْطَرِّ، يَا كَاشِفَ الضُّرِّ،
يَا عَظِيمَ الْبِرِّ، يَا عَلِيمًا بِمَا فِي السِّرِّ،
يَا جَمِيلَ السَّتْرِ، اسْتَشْفَعْتُ بِجُودِكَ
وَكَرَمِكَ إِلَيْكَ، وَتَوَسَّلْتُ بِجَنَابِكَ [جَنَابِكَ]
وَتَرَحُّمِكَ لَدَيْكَ، فَاسْتَجِبْ دُعَائِي،

(١) الكليني، أصول الكافي، الجزء ٢، الصفحة ٤٤٠، الحديث ١.



وَلَا تُخَيِّبْ فِيكَ رَجَائِي، وَتَقَبَّلْ تَوْبَتِي،
وَكَفِّرْ خَطِيئَتِي بِمَنِّكَ وَرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ
الرَّاحِمِينَ».

وفي هذه الفقرة وقبل أن يذكر الإمام عليه السلام طلباته من الله يعدد خمس من صفات الله الحُسنى هي:

١. مُجِيبَ الْمُضْطَرِّ: المضطر هو الشخص الذي لا ملجأ له وأُغْلِقَتْ جميع الأبواب في وجهه، وكأنه شخص وسط نار ملتهبة لا وسيلة له لإطفائها، أو كالغريق في البحر وقد أخذته الأمواج من كل جانب ولا قدرة له على النجاة منها. لكن حينما تُغْلَقَ جميع الأبواب في وجه الإنسان، ولا يبقى في يده أية وسيلة للنجاة، ويصبح مضطراً اضطراراً لا خلاص منه، فهناك الله هو الوحيد القادر على فتح الأقفال المستعصية على الفتح، وهو الذي يفتح أبواب رحمته بوجه الإنسان البائس المضطر.

يقول الله سبحانه: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾^(١).

٢. كَاشِفَ الضُّرِّ: من الصفات الإلهية الواردة في القرآن الكريم بتعابير مختلفة هي صفة كاشف الضر، ومن تلك الآيات قوله تعالى ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢).

(١) سورة النمل، الآية ٦٢.

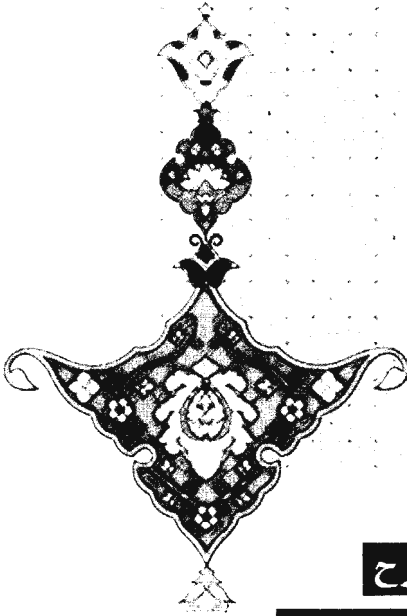
(٢) سورة الأنعام، الآية ١٧.



٣. عَظِيمَ الْبَرِّ: «الْبَرَّ» من الأسماء الإلهية الشريفة، وهو بمعنى اللطيف بعباده، ويحكي هذا الاسم عن لطف الله وإحسانه لعباده.

٤. عَلِيمًا بِمَا فِي السِّرِّ: فهو العالم بجميع أسرار الناس فلا يخفى عليه شيء، قال سبحانه في بيان هذا الأمر: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾^(١).

٥. جَمِيلَ السِّتْرِ: الله سبحانه يستر خطايا الإنسان سترًا جميلًا، ومع علمه بجميع زلات الإنسان وخطاياها، لكنه يسترها له، ولولا ستر الله سبحانه، لانكشفت أسرار الإنسان وانفضح أمره أمام الجميع.



شرح

مناجاة الشاكين



المقال التاسع

الجهاد الصعب والمستمر للإنسان مع نفسه الجامحة (١)

الشكوى من النفس الجامحة المتمردة

المناجاة الثانية من المناجيات الخمسة عشر المنقولة عن الإمام زين العابدين عليه السلام، هي مناجات الشاكين عند الله. وشكوى الإمام السجاد في هذه المناجاة ليست راجعةً إلى أمور دنيوية مادية، ولا إلى ظلم لحق به، بل شكواه المشاكل والعقبات التي تقف في سبيل أداء المسؤوليات والتكاليف، وطريق عبودية الله والتعبد له، وتُعرقل وصوله إلى الكمال الإنساني.

ومحور هذه الشكوى عبارة عن: النفس، والشيطان، والقلب الأسود

القاسي.

في الفقرة الأولى من هذه المناجاة يقول عليه السلام:

«إِلَهِي، إِلَيْكَ أَشْكُو نَفْسًا بِالسُّوءِ أَمَّارَةً،
وَالِىَ الْخَطِيئَةِ مُبَادِرَةً، وَبِمَعَاصِيكَ
مُولَعَةً، وَلِسَخَطِكَ مُتَعَرِّضَةً، تَسْلُكُ بِي
مَسَالِكَ الْمَهَالِكِ، وَتَجْعَلُنِي عِنْدَكَ أَهْوَنَ



هَالِك، كَثِيرَةَ الْعِلَلِ، طَوِيلَةَ الْأَمَلِ، إِنْ
مَسَّهَا الشَّرُّ تَجَزَّعُ، وَإِنْ مَسَّهَا الْخَيْرُ
تَمْنَعُ، مَيَّالَةً إِلَى اللَّعِبِ وَاللَّهْوِ، مَمْلُوءَةً
بِالْعَفْلَةِ وَالسَّهْوِ، تُسْرِعُ بِي إِلَى الْحَوْبَةِ،
وَتُسَوِّفُنِي بِالتَّوْبَةِ».

مصطلح «النفس الأمارة» يتكوّن من كلمتي «النفس» و«الأمارة» التي هي صيغة مبالغة من الأمر بمعنى كثيرة الأمر، ولهذا المصطلح في ثقافتنا الدينية استعمالات كثيرة، وقد ورد في القرآن الكريم أيضاً، وفي هذا المجال يحكي لنا الله سبحانه قول يوسف عليه السلام: ﴿وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنْ النَّفْسُ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١).

النفس في القرآن الكريم

رغم أن اصطلاح النفس الأمارة معروف ويُستعمل في الحوارات العرفية كثيراً، لكن ليس واضحاً جداً مصداقه وحقيقته وارتباطه بالعقل والقلب، ولماذا وضع الله هذه القوة فينا، وكيف يمكن مقاومتها ومنع تأثيرها، فهناك أنحاء من الغموض في هذا المجال. ونحن بصدد توضيح وتبيين ماهية النفس الأمارة بقدر الإمكان، وينبغي قبل ذلك أن يُقال إن القرآن عدّد للنفس ثلاث صفات، إحداها النفس الأمارة وهي عبارة عن النفس المتمردة التي تأمر الإنسان بالذنوب والعصيان، وتجّره وراءها إلى أي طريق تريد. وفي هذه المرحلة من النفس لا يمتلك العقل قوّة كافية

(١) سورة يوسف، الآية ٥٣.



١٣٩



ليسيطر على النفس المتمردة، وبسبب عدم بلوغه وضعفه نجده إما يستسلم أمام النفس، أو يخسر إذا ما حاربها.

والصفة أو المرحلة الثانية من النفس هي «اللؤامة» التي تحصل للإنسان عادةً بعد التعليم والتربية والمجاهدة. وفي هذه المرحلة إذا ارتكب الإنسان معصيةً نتيجةً لثورة الغرائز، فإنه يندم مباشرةً ويبدأ بلوم نفسه وتأنيبها، ويقرر التوبة وتدارك معصيته وتقصيره. وفي هذه المرحلة من الصراع والنزاع المحتدم بين النفس والعقل، ينتصر العقل على النفس في نهاية المطاف.

وتحظى هذه الدرجة من النفس بأهمية كبيرة إلى درجة أن الله سبحانه أقسم بها قائلاً: ﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۖ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ﴾^(١).

وأما المرحلة الثالثة، فهي النفس المطمئنة، وهي مرحلة ما بعد تهذيب النفس وتربيتها وتصفية الباطن من كل تلوث، وفيها تُدجّن الغرائز الجامحة أمام الإنسان وتصبح طيعةً له، ويصبح عنان تسيير الإنسان وتدبير أموره بيد العقل والفطرة، وتفقد النفس الأمار قدرتها على محاربة العقل. وهنا يخاطب الله سبحانه النفس المطمئنة قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۖ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۖ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۖ وَأَدْخُلِي جَنَّتِي﴾^(٢).

(١) سورة القيامة، الآيتان ١ و٢.

(٢) سورة الفجر، الآيات ٢٧ إلى ٣٠.



التعرّف على النفس الأمانة

رغم أننا نعلم إجمالاً بوجود عاملٍ في داخلنا يدعونا إلى الأعمال السيئة اسمه «النفس الأمانة»، لكننا لا نمتلك اطلاعاً كاملاً وشاملاً على طبيعة ذلك العامل وماهيته، ولا نعلم طبيعة علاقته بعقلنا وقلبنا وذاتنا. وكذلك بسبب قلة التطرّق إلى هذا البحث، فإننا لا نعلم بوضوح سبب وضع الله مثل هذه القوة فينا، وكيفية محاربتها وكبح جماحها ومنع تأثيراتها السيئة.

وإحدى الطرق لمعرفة النفس الأمانة المتوفرة أمامنا هي الطريقة العقلية، وهناك أيضاً الطريقة التجريبية المتبعة في بحوث علم النفس، لكننا لا نستطيع من خلال هذا الطريق معرفة النفس الأمانة بشكل صحيح، ولا ندرك عملية أمرها وكيفية دعوتها إلى ارتكاب المعصية وفعل السوء.

والطريق الآخر لمعرفة النفس الأمانة هو دراسة الآيات والروايات الواردة حول النفس الأمانة. وأفضل طريقة لمعرفة النفس الأمانة هي طريقة التجميع بين البحوث التجريبية، والعقلية، والتعبدية، وفي هذا المجال يمكن معرفة النفس الأمانة بنحو أفضل من خلال التأمل في الباطن والاستلهام من الآيات والروايات والاستفادة من البحوث العلمية، وكذلك التعرّف على العلاقة بين النفس والعقل^(١)، وصراع النفس مع العقل، وهو الموضوع المطروح في الكتب الأخلاقية، والاستفادة من

(١) المقصود من العقل هنا هو العقل العملي الذي يُدرك بواسطته ما ينبغي وما لا ينبغي في المجالات الأخلاقية والفقهية والقانونية، أي يُدرك ما هو مرتبط بالحكمة العملية، في مقابل العقل النظري الذي يُدرك بواسطته الوجودات والأعداد المرتبطة بالطبيعيات، والرياضيات، والمنطق، والإلهيات وبشكل عام الحكمة النظرية.



نتائج هذه الدراسة والتحقيق من أجل تربية النفس والسيطرة على القوى.

وبغض النظر عن البحوث الفلسفية والعلمية والتعاليم التعبدية، نحن حينما ننظر إلى باطننا ندرك أن الله منحنا ميولاً [رغبات] غريزيةً وفطريةً منها تنبع حركاتنا وسلوكنا. بعض هذه الميول، كالميل نحو تناول الطعام والشراب والدفاع عن النفس، والتي هي سبب لاستمرار الحياة، موجودة في الإنسان منذ بدء حياته. لكن بعض الميول والغرائز من قبيل الغريزة الجنسية التي هي سبب بقاء النسل تظهر في مراحل لاحقة من حياة الإنسان.

وهناك مجموعة الميول المرتبطة بالكمالات والجوانب العقلانية والإنسانية لوجود الإنسان، فبالرغم من أن جذورها الأساسية موجودة فيه، لكنها تتفتح بالتدريب وتصبح فعالةً أكثر كلما تكامل أكثر.

ويُعدُّ هذا القسم من الميول أسمى وأرقى الميول الإنسانية وأرفعها، وهي تتفتح لدى المؤمنين وأولياء الله بما يتناسب مع كمالهم. في حين تعتبر سائر الميول المرتبطة بالجوانب الحيوانية في الإنسان - وتُسمى في الاصطلاح «الميول الحيوانية الهابطة» - في المرتبة الأدنى من الميول. والملاحظة في هذه التسمية هي البُعد الإنساني، فالكمالات الإنسانية هي البُعد «الأصيل»، وأما البُعد الحيواني في وجود الإنسان والكمالات المترتبة به فهي البُعد «غير الأصيل» فيه.

بناءً على ما تقدّم فإن مُتطلّبات وحالات من قبيل الجوع، والعطش، والتعب، والغضب، والفرح تُثار في الإنسان نتيجةً للعوامل الطبيعية. وهذه الحالات والميول التي تظهر في الإنسان تبعاً لها، لا تُعدُّ بنفسها مضادةً للقيم، ولا تتنافى مع القيم الأخلاقية. فغريزة الجوع تُثير في



الإنسان الرغبة في تناول الطعام والشبع، لكنها لا تدعونا إلى تناول الطعام الحلال أو الحرام ولا تضطرنا إلى ارتكاب المعصية.

فغريزة الجوع وسائر الغرائز التي تُثار نتيجةً للعوامل الطبيعية ليست «شراً»؛ بل قد يكون إشباع الغرائز مستحباً، بل واجباً أحياناً.

إن الشرّ ووصف منافاة القيم يُنسب إلى هذه الميول والرغبات حينما تتعارض ويزاحم بعضها بعضاً، وحينما يُفرض الإنسان في إرضاء بعضها ويحرم نفسه من ميول ورغبات أخرى يكون توفيرها ضرورياً له. فيكون مثل الطفل الذي ينصرف إلى اللعب نتيجةً لإثارة هذه الغريزة لديه، ويُنسيه انشغاله باللعب تناول الطعام والشراب، أو المراهق والشاب الذي ينسيه انشغاله بالغرائز الحيوانية الدراسة ويحطم لديه الرغبة الفطرية في التعلم والبحث عن الحقائق.

إن الاهتمام بالميول والرغبات الحيوانية بشكل مبالغ فيه وطغيانها يؤدي إلى إهمال وعدم إشباع بعض آخر من الميول في الإنسان التي هي في حالة تفتح وازدهار. والأسوأ هو أنه يؤدي إلى عدم توفر مقدمات تفتح الميول والغرائز الإنسانية السامية، إلى درجة أن الإنسان لا يقتصر حاله على خسارة تلك الميول اللطيفة والسامية وأنه لا يجدها في نفسه فحسب، بل يفقد بسبب ذلك التصديق بوجود مثل تلك الميول السامية أيضاً.

وكنموذج على ذلك عشقُ الله ومحَبَّتُه، فهذا يُعدُّ رغبةً فطريةً ساميةً في الإنسان، ورغم وجود هذا الميل في الإنسان والآيات والروايات الكثيرة الواردة في محبة الله، نجد بعض الأشخاص الذين لم يفتح لديهم هذا الميل ولم يُثَمِّر، يُنكرون وجوده ويقولون أن الله لا يمكن أن يُحِب،



ويَدْعُونَ أَنْ التَّعَابِيرِ الْوَارِدَةِ فِي مَحَبَّةِ اللَّهِ إِنَّمَا هِيَ مِنْ بَابِ الْمَجَازِ،
وَيَحْمِلُونَهَا عَلَى مَحَبَّةِ رَحْمَةِ اللَّهِ أَوْ الثَّوَابِ الْإِلَهِيِّ.

وكلما استجاب الإنسان لغرائزه أكثر، فإنه يحرص عليها بنحو أكبر
ويرغب فيها أكثر، مثل الشخص الذي ينظر إلى منظر جميل ويلتذُّ به، ثم
ينظر مرَّةً ثانيةً إليه برغبة أشدَّ ويلتذُّ به بنحو أكبر، وكذلك المرَّةُ الثالثة
ينظر إليه برغبة أقوى وأشدَّ، إلى أن يُدمن على مشاهدته ولا يستطيع
بعدها الامتناع عن النظر إليه. فالنظر في البداية كان على مستوى رغبةٍ
فحسب، ولكنه حينما يستجيب لها، تصبح أقوى وأشدَّ حتى يصل به الأمر
إلى أن تتحوَّل تلك الرغبة إلى مانع أمام تلبية الرغبات الأسمى.

إنَّ مجرد وجود الرغبة والاحتياج في الإنسان لا يُعدُّ مذمومًا، وكما
قلنا فإن مجرد الاحتياج والرغبة لا يقتضيان ارتكاب الحرام والمعصية، كما
أنه لا ينحصر أمر تلبية الاحتياجات التي أودعها الله في وجود الإنسان
بطريق الحرام، وليس الإنسان مضطرًّا إلى المعصية لإشباعها.

إن وجود الرغبات والاحتياجات ومنها الاحتياجات المشتركة بين
الحيوان والإنسان، هي غير اختيارية وليست إرادية، فالشعور بالجوع
أو الشعور بالشَّبع وسائر الميول والرغبات الموجودة في الإنسان ليست
اختيارية. كما أنَّ هذه الاحتياجات ليست عبثيةً ولو لم تكن ضروريةً لَمَا
أودعها الله سبحانه فينا. وكذلك فإن تلبية هذه الاحتياجات والاستمتاع
بها ليس بنفسه أمرًا سيئًا ومذمومًا؛ لأنه لو كان الالتذاذ والتمتُّع أمرًا سيئًا
في ذاته لَمَا كان الله وَعَدَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْاِلْتِذَاذِ بِأَنْوَاعِ الْمِلَذَّاتِ وَالنِّعَمِ فِي
الْجَنَّةِ.

إن تلبية الاحتياجات والرغبات تكون أمرًا سيئًا وقييًّا فيما لو تجاوز
الحدود وأدَّى إلى حرمان الإنسان من احتياجاته الأصلية. وكذلك اللذة



تكون سيئةً وقبيحةً فيما لو تجاوز الإنسان الحدود من أجل تلبيتها وتحول إلى أسير لوساوس الشيطان، وصارت تلك اللذة الوهمية مانعةً من نيله اللذات الأصلية السامية. فحتى الغضب، مثلاً، لا يعتبر بنفسه قبيحاً وسيئاً، ففي مجال دفاع الإنسان ضدّ العدو يجب عليه أن يستثمر غريزة الغضب، ويستفيد منها لتجاوز المخاطر التي يواجهها. لكن السيئ والقبيح هو عدم رعاية الاعتدال في أعمال الغضب وتفعيله وتجاوز الحدّ في الاستفادة منه.

ومن هنا، فالنفس الأمارة عبارة عن قوّة وعامل داخل الإنسان باعثةً على الطغيان والإفراط في الاستفادة من بعض الميول والرغبات والخروج عن حدّ الاعتدال وتفعيل الغرائز فيما لا يُناسب، ما يؤدي إلى الفشل في تلبية الميول السامية.

وبعبارة أخرى: إن العامل الذي يدفع الإنسان نحو تلبية الميول الهابطة ويُعيق تفتح وازدهار الأبعاد السامية في وجوده، وبالنسبة يمنع من الوصول إلى الكمال الإنساني الأصيل، ذلك العامل يسمّى «النفس الأمارة».

النفس الأمارة تدفع الإنسان نحو تلبية اللذات الهابطة وتمنع الإنسان من توفير وتلبية اللذات السامية والراقية من قبيل الرضوان الإلهي، وهو بالنسبة لمن نالوا المراتب الإنسانية السامية واعتلوا درجات الكمال يُعدُّ غاية وهدف الحياة، ومن أجل الوصول إليه يتنازلون عن كلّ شيء سوى الله، وقد عدّه الله أسمى وأكبر نعمه ومواهبه، إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ



فِيهَا وَمَسْكِنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ^(١).

إن النفس الأمارة لا دور لها سوى السعي وراء توفير الرغبات الحيوانية، وهي التي تدفع الإنسان نحو عدم التقيد بأية حدود في تلبية تلك الرغبات، والوصول إليها عبر أي طريق كان، سواء برعاية حلال الله وحرامه أو لا. والنتيجة هي أن الشخص الذي يقع أسيرًا للنفس الأمارة يقوم بأي عمل خاطئ من أجل الوصول إلى الرغبات واللذات، ويتعدى حدود الأحكام الإلهية، ويجعل من الغرائز والاحتياجات (التي يوفر إشباعها بشكل صحيح تهميد أرضية التكامل الإنساني) وسيلةً للبؤس والهلاك، ويؤدّي ذلك إلى أن يحرم الإنسان نفسه من السمو والكمال نتيجةً لسوء الاستفادة من هذه النعم الإلهية.

ومما يجدر ذكره أنه ليست جميع رغبات الإنسان سيئةً وقبيحة، بل إن أصل وأساس الرغبات والميول النفسية، هو نعمة إلهية، وإذا كان الشخص فاقداً لبعض تلك الرغبات والقوى النفسانية فإنه يُعَدُّ ناقصاً. وما ينبغي هو وجوب أن تكون تلبية تلك الرغبات والميول وفقاً للضوابط العقلية والشرعية.

إن النفس الأمارة وُسمت بعنوان الدعوة إلى السوء والأمر به لأنها تدفع الإنسان نحو المعصية، وتبعث على أن لا يُراعي الإنسان الحقوق الإلهية في سبيل تلبية رغباته، وأن يدوس على حقوق الآخرين ويقع في مخمصة الفساد والانحطاط.

(١) سورة التوبة، الآية ٧٢.



وفي هذا المجال ورد في رواية عن الإمام الرضا عليه السلام قوله: «قَالَ سَأَلْتُهُ فَقُلْتُ: اللَّهُ فَوْضَ الْأَمْرِ إِلَى الْعِبَادِ؟ قَالَ: اللَّهُ أَعَزُّ مِنْ ذَلِكَ. قُلْتُ فَجَبَرَهُمْ عَلَى الْمَعَاصِي؟ قَالَ: اللَّهُ أَعْدَلُ وَأَحْكَمُ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: ثُمَّ قَالَ: قَالَ اللَّهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، أَنَا أَوْلَى بِحَسَنَاتِكَ مِنْكَ، وَأَنْتَ أَوْلَى بِسَيِّئَاتِكَ مِنِّي، عَمِلْتَ الْمَعَاصِيَ بِقُوَّتِي الَّتِي جَعَلْتُهَا فِيكَ»^(١).

فمن الواضح أن الإنسان ليس لديه شيء من نفسه وكل شيء لديه هو من الله تعالى، وكل ما يفعله الإنسان يتم بالإرادة والقدرة الإلهية. لكن مع ذلك خَلَقَهُ الله مختاراً، والإنسان في مجال فعله وسلوكه الاختياري يختار بواسطة قوّة الاختيار التي يمتلكها، وعليه فإن فعل الإنسان الاختياري بالإضافة إلى كونه مستنداً إلى الله، هو مستند إلى الإنسان نفسه أيضاً. بيد أن أدب العبوديّة - وكما يُستفاد من الرواية المتقدّمة - يقتضي أن ينسب الإنسان أفعاله الحسنة اللائقة إلى الله، وأفعاله السيئة القبيحة إلى نفسه؛ ذلك لأن ما تفضّل الله به على الإنسان هو الخير والنعم، والقبيح هو أن ينحرف الإنسان في الاستفادة من النعم والرغبات التي أودعها الله في وجوده، ويستعملها في طريق الشرّ غير السوي.

خصائص النفس الأُمارة في كلام الإمام السّجّاد عليه السلام

بعد دراسة النفس الأُمارة، نبدأ الآن بدراسة وتوضيح الفقرة الأولى من مناجاة الشاكين التي تشتمل على صفات وخصائص النفس الأُمارة:

(١) الكليني، أصول الكافي، الجزء ١، الصفحة ١٥٧، الحديث ٣.



١٤٧



١. **نفسًا بالسوء أَمارة:** حينما يسلم الإنسان عنان اختياره إلى نفسه ويستسلم لها فمن الطبيعي أنها ستبني أساسًا للطغيان والتمرد في ذاته، وتجبره دائمًا على الوقوع في الخطأ وفعل السوء والتمرد على الأوامر الإلهية، والنتيجة هي أن هذا العدو الخطير العنيد سيجعل عاقبة الإنسان شؤمًا.

ومن هنا يقول أمير المؤمنين عليه السلام حول عداوة النفس الأمارة للإنسان وكيفية تسلطها على قلب الإنسان: «**النَّفْسُ الأَمارة المُسَوِّلة تَمَلِّقُ تَمَلِّقُ المُنَافِقِ وَتَتَصَنَّعُ بِشِيمَةِ الصِّدِّيقِ المُوَافِقِ، حَتَّى إِذَا خَدَعَتْ وَتَمَكَّنَتْ تَسَلَّطَتْ تَسَلَّطَ العَدُوُّ، وَتَحَكَّمَتْ تَحَكَّمَ العُتُوُّ، وَأُورِدَتْ مَوَارِدُ السُّوءِ**»^(١).

٢. **وإلى الخطيئة مبادرة:** العقل والفطرة الإنسانية الطاهرة متناغمة مع التوحيد والأحكام الشرعية والحركة في مسير الصدق والحق، ومن هنا، فإذا كان العقل السليم والفطرة مسيطرين على وجودهما وحاكمين فيه، فسوف يمضي الإنسان في مسير السعادة ونيل السموّ والكمالات العليا. ولكن في المقابل إذا مالت طبيعة الإنسان وجانبه الحيواني نحو التلوث والسوء وتحول الإنسان بفعل ذلك إلى أسيرٍ لشهواته النفسانية ورغباته الحيوانية، فالنتيجة هي أنه يتجاوز كل الموانع التي تحول بينه وبين إشباع شهواته وميوله النفسانية، ويسارع نحو إشباع رغباته وأماني نفسه. يقول أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المجال: «**إِنَّ هَذِهِ النَّفْسَ لَأَمارةٌ بالسوءِ فَمَنْ أَهْمَلَهَا جَمَحَتْ بِهِ إِلَى المَأْثَمِ**»^(٢).

(١) الأمدي، غرر الحكم، الصفحة ٢٣٤.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة ٢٣٧.



٣. **وَبِمَعَاصِيكَ مَوْلَعَةٌ:** النفس مولعة بارتكاب المعاصي، وفي كل مرة يرتكب الإنسان معصيةً ويستجيب لرغبة نفسه، فإن رغبة النفس وطمعها يزداد قوَّةً، وحينها سيندفع الإنسان إلى معصية وعصيان أكبر، ومن هنا يبين أمير المؤمنين عليه السلام علاج ولع النفس بالعصيان قائلاً: «قَيِّدُوا أَنْفُسَكُمْ بِالْمَحَاسَبَةِ وَامْلِكُوهَا بِالْمُخَالَفَةِ»^(١).

٤. **وَلَسَخَطُكَ مُتَعَرِّضَةٌ:** من الطبيعي أن نفس الإنسان إذا أصبحت على المعصية وأهمَّلت الأوامر الإلهية وتعدَّت حدود الأحكام الإلهية، فإنها ستتعرَّض للسخط والغضب الإلهي. ومن الواضح أن الغضب والسخط الإلهي ليس شبيهاً بغضب الناس الذي يكون مصاحباً لتغيير الحالة؛ لأن التغيُّر لا سبيل له إلى الله، بل المقصود منه هو استحقاق العذاب الإلهي، والشخص الذي يجلب لنفسه السخط الإلهي، فإنه يجعل نفسه في معرض عذاب الله الأليم.

٥. **تَسْلُكُ بِي مَسَالِكِ الْمَهَالِكِ:** إن اتَّباع النفس والخضوع لرغباتها يجعل الإنسان في معرض غضب الله وسخطه، والنتيجة هي سقوط الإنسان في المهالك. فحينما يقدم شخص على مخالفة أمر الله ويهمل السعي إلى كسب رضاه، فإن الله سيحرمه من السعادة في الدنيا والآخرة، وابتليته بالذلِّ في دنياه وأخراه، وبما أن القدرة والمشئنة الإلهية حاكمة في العالم، فلا أحد يمكنه مساعدة ذلك الإنسان الذي ابتلي بغضب الله ولا أحد ينجيه من الشقاء والهلاك.

إن من المألوف أنه حينما يواجه شخصُ خطراً فإنه يجد من يسارع لمساعدته، ويسعى لإنقاذه من الخطر راقفةً به ورحمةً له. غير أن الشخص

(١) المصدر نفسه، الصفحة ٢٣٦.



١٤٩



الذي يعرض نفسه للهلاك بسبب اتباعه هوى نفسه، فإنه يصبح ذليلاً إلى درجة أن أحداً لن يلتفت إليه أو يهتم لأمره، وبما أن الله لا ينظر إليه بعنايته وقدّر له عدم الخلاص من هذه العاقبة المشؤومة، فإن الآخرين لا يمكنهم مساعدته، بل سيصبح هذا الشخص - وبالإضافة إلى ذلّه أمام الله - ذليلاً أمام عباد الله أيضاً. وحول مصير اتباع الهوى المشؤوم يقول أمير المؤمنين (عليه السلام): «إِذَا غَلَبَتْ عَلَيْكُمْ أَهْوَاؤُكُمْ أوردتكم مَوَارِدَ الْهَلَكَةِ»^(١).

٦. كثيرة العِلل: النفس بالإضافة إلى أنها تأمر بالسوء، وتضطر صاحبها إلى ارتكاب المعاصي، تقوم أيضاً بتبرير خطاياها وتعليلها، وتسعى إلى إخفاء قُبْح الخطايا عن ناظر الإنسان. فهي تدفع الإنسان نحو اغتيال الناس، ثم تدّعي أن هذه الغيبة من الموارد الجائزة. وتدفع الإنسان نحو الكذب وتدّعي أن فيه مصلحة. ولا ريب أن قبح تبرير الذنب أقبح من الذنب نفسه؛ لأن المذنب إذا التفت إلى قبح المعصية وشناعتها، فإنه سوف يسعى نحو التوبة والتدارك، لكن حينما تُبرّر له المعصية ويخفى قبحها عنه، سوف ينسُدُّ طريق التوبة في وجهه، ويقوى عزمه على ارتكاب المعصية.

٧. طَوِيلَةُ الْأَمَل: الأمل هو عنصر مهمّ لاستمرار الحياة، وعامل حركة الإنسان وحيويّته وسعيه لنيل أهداف الحياة ومقاصدها. والإنسان الفاقِد للأمل يُصاب بالكآبة، ويتوقّف عن الحركة، وتصبح الحياة عنده بلا معنى. لكن إذا تجاوز الأمل الحدّ الطبيعي واتّجه نحو أهداف بعيدة المنال، أو أدّى إلى خسارة الإنسان اهتمامه بالكمال والأهداف الأصلية وقصر اكترائه



على الأمور المادّية الفانية سريعة الزوال فحسب، فحينئذٍ سيعيقه من الوصول إلى الحياة الأخروية السامية ويحرمه سعادة الدنيا والآخرة.

فالآمال البعيدة تشغل الإنسان بنفسه، وتُغرقه في عالم خيالي، وتُعيقه عن الوصول إلى أهداف الحياة النهائية. وبملاحظة خطر الآمال البعيدة المنال - طول الأمل - على الإنسان، نجد أمير المؤمنين (عليه السلام) يحذّرنا من التورّط في الوقوع في فخ الآمال الخيالية وطول الأمل قائلاً: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ اثْنَانِ: اتِّبَاعُ الْهَوَى وَطُولُ الْأَمَلِ، فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ»^(١).

٨ و ٩. إِنْ مَسَّهَا الشَّرُّ تَجَزَّعَ وَإِنْ مَسَّهَا الْخَيْرُ تَمَنَّعَ: يبتلي الإنسان الذي يقتصر اهتمامه على بُعده الحيواني فحسب، ولا يخطو خطوة واحدة في مسير العقلانية ونداء الفطرة، بقلة الصبر وسرعة الجزع، ومن هنا فحينما يواجه خسارة في ماله أو نفسه، أو يواجه البلاء والمصاعب سرعان ما سيفقد صبره ويجزع. لكن حينما يناله الخير والنفع فإنه يحتفظ به لنفسه أنانيةً منه، ولا يشارك الآخرين في شيء منه. وهاتان الميزتان اللتان تتّصف بهما نفس الإنسان وَرَدَ التعبيرُ عنهما في القرآن الكريم أجمل تعبير في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾^(٢).

١٠. مَيَالَةً إِلَى اللَّعِبِ وَاللَّهْوِ: «اللهو» بمعنى التسلية وكل عمل يُبعد الإنسان عن المسائل المهمة والأساسية. و«اللعب» يُطلق على الأعمال ذات الأهداف الخيالية والربح والخسارة التعاقدية.

(١) المصدر السابق.

(٢) سورة المعارج، الآيات ١٩ إلى ٢١.



ومما يُدركه الإنسان بالتجربة أن النفس تميل ميلاً شديداً نحو اللعب والتسلية، وهذا الميل والرغبة يمثل مانعاً للإنسان عن النمو والسمو في الجوانب المادية والمعنوية، خاصةً في أيامنا هذه التي تحولت فيها التسلية من مشاهدة الأفلام السينمائية وقضاء الوقت في تصفّح الإنترنت والإدمان عليه، إلى آفة ومرض للأسرة؛ إذ إنها بالإضافة إلى تسببها في إهمال سائر الشؤون الحياتية، أدّت كذلك إلى إلحاق الدمار بأخلاق الأسرة وثقافتها.

وقد لوحظ أحياناً أن الطفل أو المراهق يشاهد فيلماً ولأنه يستمتع بمشاهده يعاود مشاهدته مرّةً أخرى، بل يشتري قرصه المدمج (سي دي) ويشاهده مراراً وتكراراً، فيُهمل درسه ووظائفه، بل وحتى ينسى تناول طعامه. والإنترنت فيه جاذبية كبيرة للناس إلى الحدّ الذي يؤدي بالبعض إلى الغفلة عن صحّته وراحته بسبب الإدمان عليه.

سمعنا قبل مدّة مذيع التلفاز يقول: إن رجلاً في الصين انشغل بألعاب الإنترنت لمدّة ثلاثة أيام بشكل متواصل، وانغمس في هذا اللعب بشدّة حتى نسي تناول الطعام، وفي نهاية الأمر توفّي بسبب ذلك!.

ومن ميزات النفس أنها إذا شعرت باللذّة في عمل وتعوّدت عليه وركّزت فيه، فلا تفكّر حينئذٍ حتى براحتها وصحّتها، بل هي على استعداد أن تحبس نفسها وحيدةً في غرفة وتمضي ساعاتٍ في استخدام الإنترنت، لكنها ليست مستعدةً للاستفادة من الطبيعة ولا مشاهدة المناظر الطبيعية الخلابة والتمتّع بها. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «لا يُفْلَحُ مَنْ وَلَهُ بِاللَّعِبِ وَاسْتَهْتَرَ بِاللَّهْوِ وَالطَّرَبِ»^(١).



١١. مملوءة بالغفلة والسَّهْو: الغفلة والانشغال بالأعمال التافهة وغير الأساسية وترك الفضائل والأمور الحسنة، والسهو والخطأ في تشخيص مصالح العمل، هي بعض نتائج هيمنة النفس الأمارة وتسلطها على قلب الإنسان. وبحسب تعبير أمير المؤمنين عليه السلام، فإن نتيجة الغفلة والانخداع بالدنيا هي السُّكْر، والصحو من هذا السُّكْر أشدُّ صعوبةً من الصحو من سُكْرِ الخمر: «سُكْرُ الْغَفْلَةِ وَالْغُرُورِ أَبْعَدُ إِفَاقَةً مِنْ سُكْرِ الْخُمُورِ»^(١).

١٢ و ١٣. تُسْرِعُ بِي إِلَى الْحَوْبَةِ وَتُسَوِّفُنِي بِالتَّوْبَةِ: تُسَارِعُ النفس في دفع الإنسان نحو ارتكاب الذنوب وعصيان الله وتجعله أسيئاً للدنيا، وعن هذا الطريق يقع في الذلة والهوان. وحينما تخطر فكرة التوبة في ذهنه، تجبره نفسه على تأجيلها، وتجعل الإنسان يُهدر الفرص المُتاحة للتوبة في التمتع بالملذات الدنيوية والخضوع للرغبات الشيطانية، وبتأخير التوبة يفشل في تدارك وتعويض الأخطاء التي ارتكبها. كما أن الشيطان يخدع الإنسان العاصي بوعود بَرّاقَة كاذبة ويجعله يوكل التوبة إلى المستقبل لأعذار واهية. لكن أدب العبودية يوجب على الإنسان الندم بعد عصيان المعبود مباشرة والسعي لتدارك أخطائه. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إِيَّاكَ أَنْ تُسَلِّفَ الْمَعْصِيَةَ وَتُسَوِّفَ بِالتَّوْبَةِ»^(٢).

(١) المصدر نفسه، الصفحة ٣٦٦.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة ١٩٤.



المقال العاشر

الجهاد الصعب والمستمر للإنسان مع نفسه الجامحة (٢)

مكانة النفس وصراعها مع العقل

مفهوم النفس بحدّ ذاته لا يحمل قيمةً إيجابيةً أو سلبيةً، ولا يترتّب عليه حكم بالحسن أو السوء. وقد جرى الأمر في القرآن الكريم على هذا المنوال أيضاً، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾^(١).

ربما يكون المقصود من الآية الشريفة هو أن عندنا مجموعة من الرغبات لها نتائج حسنّة توصلنا إلى التكامل، وفي المقابل عندنا رغبات إذا تجاوزت حدودها ولم تُراعَ ضوابطها وقواعد تليبيتها، فإنها تصبح عقبةً أمام وصول الإنسان إلى الكمال، وهذا القسم من الرغبات - الذي لا يتم مراعاة الحدود فيه - ينتهي إلى الانحلال والفجور، أما لو قيّدت هذه الرغبات بحدود وضوابط بحيث لا تؤدّي إلى الانحلال ويُسيطر عليها الإنسان فإن ذلك يُعدّ تقوىً للنفس، فالميول والرغبات التي تنتهي إلى الفجور هي من النوع الحسّي والحيواني وتتفتّح أسرع من الميول



(١) سورة الشمس، الآيتان ٧ و٨.



الموجَّهة نحو التقوى، وأما الميول والرغبات المتَّجهة نحو التقوى فإنها تنمو وتتفتَّح بالتدرّج.

وقد يقع التزاحم بين الميول والرغبات الدنيوية، فمثلاً يجب على الشخص المُحتاج إلى تكوين وبناء الأسرة، وتوفير المأوى والسكن ومصدر العيش، أن يعمل ويسعى لتوفير المال الكافي لتلبية هذه الاحتياجات، والنتيجة هي أنه يلزمه التنازل عن بعض الميول كطلب الراحة والكسل. وتلك القوة التي تدفع الإنسان إلى تأسيس وتكوين الأسرة وتوفير السكن وإمكانيات الحياة وتتنازل عن بعض مطالبها ورغباتها هي العقل. وعمل العقل هنا المقارنة بين الميول الأهم، والأوفر قيمةً والأرسخ والأكثر دواماً، والميول الأدنى والأقل قيمة، ويحكم بترجيح وتفضيل الميول من القسم الأوّل على ميول القسم الثاني. ومن نماذج ذلك الطالب الجامعي أو التلميذ المنشغل بالدراسة إذ يحتاج إلى الراحة والتسلية، لكنه من أجل النجاح - وخاصةً في أيام الامتحانات - يُمضي أكثر وقته بالدراسة، ويقلّل في تلك الأيام من النوم والطعام والراحة والسهر، وينقطع عن مشاهدة الأفلام والمسلسلات؛ لأنه يُدرك بنور العقل الذي أودعه الله فيه أنه نتيجةً للدراسة والنجاح سوف يحصل على عمل مناسب، ويستطيع بذلك من توفير المسكن، وإمكانيات الحياة، ويمكنه بذلك تكوين الأسرة، ولا ريب أن لذة الدراسة أكبر وأطول استمراراً من اللذات المادّية التافهة سريعة الزوال، من قبيل لذة التسلية والسهر.

أفضلية اللذات الدائمة

وَهَبَ اللهُ الْإِنْسَانَ نُورَ الْبَاطِنِ وَنُورَ الْعَقْلِ لِيَهْتَدِيَ بِهِمَا إِلَى الْمَقَارَنَةِ بَيْنَ رَغْبَاتِهِ، وَلِلْعَقْلِ فِي الْمَقَارَنَةِ مَلَائِكِينَ فَطَرِيْنَ يَعِينَانِهِ عَلَى تَرْجِيحِ بَعْضِ الرِّغْبَاتِ عَلَى الرِّغْبَاتِ الْآخَرَى: الْمَلَائِكَةُ الْأُولَى عَائِدٌ إِلَى اسْتِمْرَارِ اللَّذَّةِ



ودوامها والتي على أساسها يقوم العقل بترجيح الرغبة التي تستمر لذتها فترة أطول على الرغبة الأقصر دوامًا، فيرجح مثلًا اللذة التي تستمر ساعة أو يومًا أو أسبوعًا، على اللذة التي تستمر دقيقة واحدة. والملاك الثاني راجع إلى شدة لذة الرغبة والميل وعلى هذا الأساس إذا كانت هناك لذتان متساويتان أمدًا، لكن إحداهما أشد، فالعقل يحكم بترجيح اللذة الأشد على اللذة الأضعف.

وبملاحظة أن العقل ينطلق من الملاكين الفطريين المتقدمين في عملية اختيار بعض اللذات وترجيحها على سائر اللذات، فإن الله سبحانه يقول في كتابه الحكيم: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾^(١).

إن لذات الآخرة أفضل من لذات الدنيا فهي أولاً ليست مثل لذات الدنيا ممزوجة بالمرض، والتعب والألم، هذا من جهة. وهي ثانياً أكثر استمراراً ودواماً من النعم الدنيوية، فاللذات الدنيوية حدّها الأقصى أنها تستمر بمقدار حياة الإنسان وبقائه في هذا العالم، لكن لذات الآخرة لا نهاية لها. ومن هنا فإذا لم يكن هناك تراحم بين النعمة واللذة الدنيوية والنعمة واللذة الأخروية وأمكن الجمع بينهما، فالعقل يحكم بأن على الإنسان الاستمتاع بهما معاً، والقرآن الكريم يعلمنا أن نطلب من الله سبحانه لذة الدنيا ونعمها، وكذلك لذة الآخرة ونعيمها: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(٢).

لكن حينما تتزاحم اللذة الدنيوية واللذة الأخروية فالعقل يحكم بأن على الإنسان ترجيح اللذة الأبدية التي لا نهاية لها على اللذة الدنيوية

(١) سورة الأعلى، الآية ١٧.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٠١.



الفانية سريعة الزوال، وأن لا يضحى باللذة الأخروية من أجل الوصول إلى اللذة الدنيوية.

ويمكن للإنسان معرفة موارد التزاحم بين اللذات الدنيوية واللذات الأخروية وترجيحها من خلال العقل، أو أكثر من ذلك وهو ما يتسنى من خلال النقل أي القرآن والسنة.

التزاحم بين اللذات واضحٌ تمامًا، فهناك مثلاً تزاحم بين لذة تناول الطعام ولذة الدراسة، أو الأشخاص الذين يمتلكون مشاعر إنسانية وفطرية سليمة فإنهم يشعرون بلذة الإحسان وتقدير العون للضعفاء والبؤساء، وهذه اللذة تتعارض عملاً مع بعض اللذات الأخرى. ويعبّر علماء الأخلاق عن هذا التزاحم والتضاد - القائم بين الدوافع واللذات - مسامحةً بحرب العقل مع النفس، ووجه هذا التعبير هو أنّ حامل اللذات الهابطة هي النفس، وتلك اللذات تُنسب إلى النفس، وفي المقابل فإن اللذات الأسمى تُنسب إلى العقل، ومن هنا فإنّ العقل في مقياسه بين اللذات الدنيوية واللذات المعنوية والأخروية يرجح اللذات الأخروية والمعنوية، ويرى أنّ الأفضل وما ينبغي هو اختيار اللذات الأسمى، وهو الذي يدفع الإنسان نحو تجاهل اللذات الهابطة.

إذاً، لا توجد في الحقيقة حرب بين العقل والنفس، بل دور العقل هو الإرشاد فحسب، وهداية الإنسان نحو الأعمال الأفضل واللذات الأكثر استمراراً؛ لأن الإنسان قد يواجه أحياناً ظروفًا لا يمكنه فيها الجمع بين رغبتين ولذتين فيضطر إلى اختيار أحدهما والتنازل عن الأخرى، كالتألم الجامعي ليلة الامتحان مثلاً إذ عليه أن يختار إمّا لذة النوم والراحة أو مطالعة الدروس والحفظ من أجل النجاح والوصول إلى اللذات الأسمى، ومن هنا يواجه الإنسان في حياته حالات من الاختيار، والنفس الأمارة



تأمر الإنسان باختيار اللذات التافهة والهابطة، والعقل يدعو الإنسان إلى اختيار اللذات السامية الراقية.

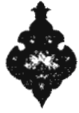
وبحسب اصطلاح علماء الأخلاق فإنَّ النفس الأَمارة تدفع الإنسان نحو الطغيان والتمرد وإعمال الغرائز الحيوانية، وتوفّر الأرضية اللازمة للمعصية والابتلاء بالغضب الإلهي والهلاك عبر طلباتها المستمرة التي لا تتوقّف ورغباتها التي لا تُشَبَّع.

وفي مقابل النفس الأَمارة - التي لا تفتأ تجرُّ الإنسان نحو المراتب الحيوانية الهابطة، وتعيقه عن الوصول إلى السمو والكمال - ثمة النفس الملكوتية، وتعبير آخر «النفس الإلهية»، وهي التي تمنع الإنسان عن الانهماك في الرغبات الهابطة وتدعوه إلى الكمال والسمو.

لكنّه قد ثبت في البحوث الفلسفية والعقلية أنّ نفس الإنسان واحدة لها قوى وحيثيّات مختلفة. فهناك حيثيّة في النفس تتصيّد الرغبات الماديّة والحيوانية، وهناك حيثيّة أخرى في النفس تسعى وراء الرغبات المعنوية من قبيل العلم والصداقة والحبّ، أو ما هو أسمى من ذلك كله كالتقرب إلى الله تعالى. وتلك الحيثية وقوى النفس الموجهة نحو الغرائز الحيوانية الهابطة تُسمّى بـ«النفس الأَمارة»، وأما الحيثيّة من النفس الساعية وراء الرغبات السامية فتُسمّى بـ«النفس الملكوتية أو الإلهية».

إذاً فالنفس الإنسانية - في الحقيقة - ليست متعدّدة، بل هي نفس واحدة لها قوى متعدّدة، يقع التزاحم بينها في مرحلة العمل.

وبلحاظ أنّ للنفس قوى تميل بها نحو الغرائز الحيوانية والهابطة تُسمّى «النفس الأَمارة»، وبلحاظ أنّ لها قوى تحثُّ الإنسان وتدفعه نحو الرغبات السامية وتدعوه إلى مقاومة الرغبات الحيوانيّة الفارغة، تُسمّى



«النفس المملوكية والإلهية»، فمن هنا يظهر اصطلاح التضاد والتنازع بين العقل والنفس والحرب بينهما، والمقصود من حرب العقل مع النفس، هو التضاد بين البُعد الحيواني للنفس والبُعد المملوكي فيها.

طريق السيطرة على الغرائز النفسانية وضمان تفوق الذات الأخروية

للإنسان حيثيات وشؤون متنوعة طولية وعرضية، وهي بدورها تشتمل على رغبات مختلفة يقع التزاحم بينها، وفي نهاية المطاف يقوم الإنسان - الذي يمتلك العزم والقدرة على اتخاذ القرار الصحيح حينما يقع بين رغبتين وهو مضطراً إلى الاختيار بينهما - ومن خلال قوة الاختيار واتخاذ القرار لديه باختيار أحدهما، غاية الأمر أنه في الظروف العادية وحينما لا تكون بعض الرغبات متمتعاً بأفضلية وجاذبية خاصة وكذلك لا يوجد في الإنسان إثارة خاصة، يسهل اتخاذ القرار فيستطيع الإنسان الاختيار ببساطة. لكن حينما تنفجر الرغبات وتخلق الإثارة في الإنسان، يصعب اتخاذ القرار. وعليه فما دامت الرغبات الحيوانية ساكنة غير طاغية ولم تؤد إلى الإثارة، يجب على الإنسان أن يغتنم الفرصة، وأن يتأمل في عواقب طغيان الرغبات الحيوانية الهابطة ليوفر أرضية عدم طغيان تلك الرغبات، فيتسنى له - عند اتخاذ القرار - أن يقدم الرغبات الإلهية على الرغبات النفسانية. وحينما تثور قوة الغضب في الإنسان، يتوقف عقله عن التأثير وتُسلب منه فرصة التفكير السليم، وقد يبدر منه تصرف جنوني، أو ينطق بكلام بذيء نابٍ. لكن عندما تكون قوة الغضب خامدة في الإنسان ولا يثور فيه انفعالها، يجب عليه أن يهيئ نفسه وأن يسيطر عليها في حالات الإثارة، كما لو تعرض له شخص بالسوء فلا يرد عليه بكلام بذيء ولا يتخذ سلوكاً غير لائق.



وكذلك فيما يرتبط بالشهوات والغرائز الحيوانية، فما دامت تلك الغرائز هادئةً وساكنة، فعلى الإنسان أن يمهّد الأرضية المناسبة لمنع إثارة تلك الغرائز وطغيانها في نفسه، ويوفّر العوامل المساعدة على اتخاذ القرار الصحيح.

وبالالتفات إلى هذه الحقيقة ودور التفكير في إصلاح سلوك الإنسان، أكّد القرآن الكريم مراراً على أهمية التفكير والتعقل، حتى أنه عدّ آيات الله من عوامل تمهيد عملية التفكير عند الإنسان، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغِشِي اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(١).

وفي موضع آخر من القرآن نجد إشارةً إلى أفضلية الآخرة على اللذات الدنيوية الفارغة عند العقل وجماعة المتّقين، وأن الانشغال باللذات الدنيوية الفارغة وترجيحها على اللذات الأخروية الخالدة ناشئ من عدم التعقل، قال تعالى: ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(٢).

إذا تأمل الإنسان جيّدًا حين مقارنة لذات الدنيا مع لذات الآخرة وتفكّر مليّاً، فلا ريب في أنه سيُرجّح لذات الآخرة الخالدة على لذات الدنيا، كما أن عقل الإنسان يُرجّح لذات الدنيا الأشدّ والأكثر استمراراً على اللذات الدنيوية الضعيفة والسريعة الزوال. إذًا، ترجيح اللذات الدنيوية الفارغة على اللذات الأخروية إنما ينشأ من أن عقل الإنسان بقي عاطلاً

(١) سورة الرعد، الآية ٣.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٦٩.



عن العمل، والإنسان واقع تحت قيود الأهواء النفسانية، ولا تتوفّر له فرصة الانتفاع من قوّة العقل، كما يقول سبحانه وتعالى: ﴿بَلْ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾^(١).

وعليه، فإن أسهل الطرق المتوفّرة أمام الإنسان قبل أن تسيطر عليه انفعالاته وأكثرها عقلانية لمنع الانحراف والانحطاط والسقوط في المهلكة هو أن يتأمّل الإنسان ويفكر جيّدًا كي يُمهّد الأرضية المناسبة لاتخاذ القرارات الصحيحة.

ومن الطبيعي أن الأشخاص الذين نالوا المعرفة التوحيدية النقيّة وآمنوا بأن الله هو مصدر كل أعمال الخير، يلجؤون إلى الله القادر المطلق قبل التأمل والتعقّل والتفكير في مساعدتهم على إيجاد الأرضية المناسبة لاتخاذ القرار الصحيح ومنع تأثيرات النفس الأمّارة وانفعالاتها ومحاربة الرغبات الهابطة، وهم يؤمنون بأن الله هو الذي أودع فيهم القدرة على التفكير والتعقّل وهو الموفّق للسير في المسار الصحيح، ولذلك هم يطلبون من الله أن ينجيهم من شرّ النفس الأمّارة والانجاذبات النفسية الكاذبة، ويوفّقهم للانتفاع الصحيح من قوّة العقل من أجل اختيار المسير الصحيح في الحياة.

إنّ التوكّل على الله والالتجاء إلى الساحة الإلهية المقدّسة والاتّصال بالقدرة المطلّقة التي ليس في مقدور أي قوّة الوقوف أمامها، هو أفضل طريق للنجاة من الأخطار والأضرار التي تُلحقها النفس الأمّارة، وللخلاص من عواقب السوء للإثارات الحيوانية والشیطانية.



وعلى هذا الأساس، وبمقدار درجة معرفة الإنسان والاستفادة من هذه المعرفة ومستوى علاقته مع الله، يمنح الدعاء والمناجاة والتوسل بالله الإنسان قوةً تُمكنه من التصدي لقوى الشيطان. وعليه أن يرى نفسه حقيراً ضعيفاً مفتقراً تملؤه الحاجة إلى الله، كما عليه أن يؤمن بأن جميع القدرات بيد الله، وهو سبحانه الذي يمنح الإنسان فرصة التفكير واتخاذ القرار، ومن الطبيعي أنه مع مثل هذا الإيمان ومع الخضوع والتوسل الخالص أمام المعبود، فإن الله يُضيء قلب الإنسان بنور الهداية، ويكون عوناً له ليصل إلى السعادة والكمال.



المقال الحادي عشر

حرب الإنسان الشاقة والمستمرّة مع الشيطان

دراسة حقيقة الشيطان وإبليس

محور الفقرة الثانية من مناجاة الشاكين يدور حول الشكوى من الشيطان، وقبل تحليل كلام الإمام السجاد عليه السلام في هذه الفقرة، نبين حقيقة الشيطان وأعماله.



«الشيطان» له مفهوم وصفيّ ويُطلق على كل عامل من عوامل الشرّ، وبصورة عامّة كل موجود يكون مبدأً للشرّ يُعدُّ شيطاناً. وعلى هذا الأساس فإن لفظ الشيطان يُطلق على الشيطان المعيّن (إبليس) وعلى غيره أيضاً. وفي القرآن الكريم شواهد عديدة على إطلاق لفظ الشيطان على غير إبليس؛ منها ما ورد في بعض الآيات من إطلاق الشيطان على بعض الناس الذين برزوا بالعداوة للأنبياء الإلهيين كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾^(١).



إِذَا بِمِلَاحِظَةِ مَفْهُومِ الشَّيْطَانِ الْوَصْفِيِّ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنَ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ،
يَدْخُلُ فِي زِمْرَةِ الشَّيَاطِينِ النَّاسُ الَّذِينَ يَدْعُونَ الْآخِرِينَ نَحْوَ الْمَعْصِيَةِ
وَيَتَسَبَّبُونَ فِي انْحِرَافِهِمْ عَنْ مَسِيرِ الْأَنْبِيَاءِ، وَيَسْعَوْنَ إِلَى تَخْرِيبِ
مَعْتَقَدَاتِهِمُ الدِّينِيَّةِ وَجَعْلِهِمْ يَشْكُوكُونَ فِيهَا، وَكَذَلِكَ يَصْدُقُ عَلَى تِلْكَ
الطَّائِفَةِ مِنَ الْجَنِّ الَّتِي تَسْعَى إِلَى نَشْرِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ.

و«إِبْلِيسَ» عَلَّمَ وَاسْمَ شَخْصٍ شَيْطَانٍ مِنْ جِنْسِ الْجَنِّ وَمَخْلُوقٍ مِنَ
النَّارِ، كَانَ مَعَ الْمَلَائِكَةِ عَاكِفًا عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ قَبْلَ أَنْ يَوْجِدَ آدَمَ بِآلَافِ
السِّنِينَ، حَتَّى تَصَوَّرَ الْمَلَائِكَةُ أَنَّهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ. بَيَّنَّ أَنَّهُ فِي النِّهَايَةِ رَفَعَ رَايَةَ
الْتِمَرْدِ وَالطَّغْيَانِ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَصَدَّى لِلْفَسَادِ بَيْنَ النَّاسِ وَدَعَوْتِهِمْ
إِلَى الْانْحِرَافِ وَخُدَاعِهِمْ، وَهُوَ مِنْ خِلَالِ وَسَاوَسِهِ يَقُومُ بِإِعَاقَةِ وَصُولِ عِبَادِ
اللَّهِ إِلَى السَّعَادَةِ وَالْهُدَايَةِ، وَيَجْزِهِمْ إِلَى مَصِيرٍ مُظْلَمٍ وَإِلَى الْهَلَاكِ، يَقُولُ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَبِينًا مَا هِيَ الشَّيْطَانُ وَسَبَبَ طَرْدِهِ مِنَ السَّاحَةِ الْإِلَهِيَّةِ:
﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ
فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ
عَدُوٌّ بَيِّنٌ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾^(١).

عَلَّةُ انْحِطَاطِ إِبْلِيسَ

يَبَيِّنُ لَنَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مَدَّةَ عِبَادَةِ الشَّيْطَانِ وَسَبَبَ انْحِطَاطِهِ وَطَرْدِهِ مِنَ
سَاحَةِ اللَّهِ تَعَالَى قَائِلًا: «فَاعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ بِإِبْلِيسَ - إِذْ
أَحْبَطَ عَمَلَهُ الطَّوِيلَ وَجَهْدَهُ الْجَهِيدَ - وَكَانَ قَدْ عَبَدَ اللَّهَ سِتَّةَ آلَافِ سَنَةٍ -
لَا يُدْرَى أَمِنْ سِنِي الدُّنْيَا أَمْ مِنْ سِنِي الْآخِرَةِ - عَنْ كِبَرِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ»^(٢).

(١) سورة الكهف، الآية ٥٠.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢.



فالشيطان عَبَدَ اللهَ سِتَّةَ آلافِ سنةٍ، وبناءً على كلام أمير المؤمنين عليه السلام ليس واضحاً للناس [وإلا فهو عليه السلام يعلم حقيقة الأمر] أن تلك السنوات كانت من سنوات الدنيا أم من سنوات الآخرة التي وضحت لنا آيات أخرى أن كل يوم منها يعادل ألف سنة من سنوات الدنيا^(١). لكن الله امتحن الشيطان بسبب ما كان يحمله في ذاته من تكبر واستعلاء، وكانت نتيجة ذلك الامتحان هبوط الشيطان وسقوطه وانحطاطه، وذهاب آلاف السنوات من العبادة هباءً منثوراً.

إن وجود الكبر والتكبر في باطن الشيطان وقرّ الأرضية لامتحانه كي يتّضح أن مثل هذا العامل يجرّ الشيطان إلى الكفر والانحطاط، وكذلك وقرّ الأرضية لامتحان أولاد آدم كي يتّضح أن كمالهم وسموهم كامن في تجفيف الكبر والتكبر، وهذه الصفة السلبية تؤدّي إلى السقوط والانحطاط.

ويُستفاد من الآيات والروايات أن الشيطان هو عامل الفساد والشرّ، وهو الذي يخلق في نفوس الناس أرضية الانحراف عبر وساوسه التي يبثّها في قلوبهم، ولا يمكننا مشاهدة هذا الموجود الشرير؛ لأنه من الجنّ مخلوق من النار، كما لا يُمكن الإحساس به ولا لمسه [بالحواس الظاهرة]، لكن الشيطان يرى جميع الناس ويراقبهم ويتحين الفرص ليحرفهم، ومن هنا يقول الله سبحانه وتعالى في مقام تحذير عباده كي لا يفتنهم الشيطان: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تِهْمًا إِنَّهُ يَرِنُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٢).

(١) كما في قوله تعالى ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، سورة الحج، الآية ٤٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٢٧.



وقد كان من الصعب في الماضي قبول وإثبات موجود لا يمكن رؤيته يُلقِي الأفكار للإنسان ويوسوس له، لكن مع التقدم الذي حقّقه العلوم أصبح القبول بمثل هذا الموجود سهلاً متيسراً، وخاصّة التطوّر الهائل في مجال الاتّصالات ووسائل الإعلام والتواصل، ونقل الصوت والصورة، فقد أصبح من الممكن نقل الرسائل التي تحمل الكلام والأفلام عبر أمواج غير مرئية.

فقبل بضعة عقود لم يكن هناك من يصدّق بإمكانية سماع ومشاهدة شخص يعيش في أقصى الأرض، لكن اليوم وبواسطة أجهزة الراديو، والتلفزيون، والهاتف، والهاتف النقال، أمكن بكل سهولة استقبال صوت وصورة الأشخاص الذين يعيشون في مناطق بعيدة من العالم، وبالرغم من أنّ ذلك وفّر إمكانية إثبات وجود الشيطان، بيد أنّه لا يمكننا إدراك وجود الشيطان بواسطة التجربة الحسيّة وعن طريق المشاهدة واللمس وقوّة السمع، كما لا يُمكن أيضاً إقامة الدليل العقلي على وجوده؛ لأنّ الأدلة العقلية والفلسفية لا تشمل وجود الموجودات الخاصّة^(١) ومنها الشيطان باعتباره الموجود الذي هو مبدأ للشرّ، والطريق الوحيد لإثبات وجود الشيطان هو النقل.

ونحن نؤمن بوجود الشيطان عن طريق الكتب السماوية ومنها القرآن الكريم، وكذلك بواسطة الروايات الواردة عن النبي ﷺ وأهل البيت ، وقد ورد في هذه المصادر الدينيّة أنّ الشيطان خُلِق قبل خَلْق آدم  بألاف السنين، وكان منشغلاً بعبادة الله، وحينما خَلَقَ اللهُ آدمَ  أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم ، فأطاع جميع

(١) وذلك لأنّ الأدلة العقلية لا تشمل الجزئيات. [المراجع]



الملائكة الأمر الإلهي وسجدوا له إلا الشيطان فقد تمرد على الله، وفشل في هذا الامتحان الإلهي، وصار هو نفسه معياراً لاختبار ميزان إيمان العباد وتسليمهم أمام الأوامر الإلهية.

إن كبر الشيطان وحسده للإنسان دفعه إلى أن لا يسجد لآدم عليه السلام وفي ذلك يقول الله سبحانه: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾^(١). وقد أثبت الشيطان نقصان إيمانه من خلال تجاوزه الأمر الإلهي، مع أن من شأن الإيمان المطلق وحده والتسليم الخالص لله من دون قيد أو شرط أن يؤدي إلى الكمال والتقرب إلى الله. وبالرغم من أن الشيطان كان في مصاف الملائكة منشغلاً بعبادة الله، لكن الأنانية والكبر وعدم إطاعة الله طاعة خالصة، أدت إلى أن تذهب عبادته الملوثة الممزوجة بالأنانية والكبر أدراج الرياح من دون أن تثمر أي فائدة له.

الإنسان والامتحان الإلهي الصعب

كان الشيطان عابداً لله منهمكاً بعبادته ما دام يرى تلك العبادة موافقةً لميوله، وحينما رأى طاعة الله غير موافقة لرغبته وميوله طرحها جانباً، وانتهى به الأمر إلى ذلك المصير المشؤوم، وتعدّد هذه القصة تحذيراً بالغاً لنا كي نراقب أنفسنا باستمرار ونتأمل في إيماننا هل هو مطلق أو مشروط؟ وهل نحن في مقام عبودية الله بحيث نطيعه في كل ما يأمرنا به سبحانه ونتبعه مهما كانت الظروف؟



من الطبيعي أنّ امتحان الناس يختلف من شخص لآخر وكل شخص يتعرض للامتحان الإلهي بحسب حجمه وسعته، وليس كل إنسان يتحمّل أي امتحان كان. ولكن في الوقت نفسه يوجد معيار وحدود للامتحان حيث يُمتحن الجميع بمقدار تلك الحدود. فأصحاب المراتب الرفيعة من المعرفة والسعة الوجودية العالية، يُمتحنون امتحانات في غاية الصعوبة ويواجهون أنواع البلاء والمصائب التي لا يمكن للفرد العادي تحمّلها مطلقاً، لكن النجاح في هذه الامتحانات والابتلاءات يوصلهم إلى أسمى درجات الكمال والشرف، إلى درجة أنهم وحتى بعد رحيلهم عن هذه الدنيا بأكثر من ألف عام يجد المرضى في تراب مراقدهم المقدسة الشفاء لأمرضهم المستعصية.

ومن الذين نالوا أعلى مراتب المعرفة وأسمى سعة وجودية نبي الله إبراهيم عليه السلام إذ أمر في امتحان شديد الصعوبة بأن يذبح ابنه الأكبر وفلذة كبده قرباناً لله، فسلم هو وابنه خاضعين لأمر الله، وكان بصدد تنفيذ الأمر الإلهي برضى تام ودون أدنى اعتراض أو حتى تساؤل، وخرج الأب وابنه من ذلك الامتحان الرهيب مرفوعي الرأس، ومن هنا يصف سبحانه هذا الامتحان الكبير: ﴿وَإِذْ أَبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(١).

وقد واجه الشيطان هذا الامتحان الإلهي وهو السجود لآدم عليه السلام، لكنّه أبى عن إطاعة أمر الله وتَمَرَّدَ ففشل في هذا الامتحان وطلب من الله أن يعفيه من هذا التكليف وفي مقابل ذلك يعبد عبادة لم يعبد



١٦٩



أَحَدٌ مِثْلَهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ. وَفِي هَذَا الْمَجَالِ يَحْدُثُنَا الْإِمَامُ الصَّادِقُ عليه السلام قَائِلًا: «أَمَرَ إِبْلِيسُ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ فَقَالَ: يَا رَبِّ وَعِزَّتِكَ إِنْ أَعْفَيْتَنِي مِنَ السُّجُودِ لِآدَمَ لِأَعْبَدَنَّكَ عِبَادَةً مَا عَبْدَكَ أَحَدٌ قَطُّ مِثْلَهَا. قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: إِنِّي أَحَبُّ أَنْ أَطَاعَ مِنْ حَيْثُ أُرِيدُ»^(١).

إِنَّ تَكَبُّرَ الشَّيْطَانِ وَحَسَدَهُ لِآدَمَ عليه السلام أَذْيَا إِلَى أَنْ يَتَشَدَّدَ أَمَامَ أَمْرِ اللَّهِ وَيَمْتَنِعَ عَنْ إِطَاعَتِهِ، وَقَدْ اخْتَارَ عَنْ وَعِي وَعِلْمِ عَصِيَانِ اللَّهِ وَمُخَالَفَتِهِ، وَفَشَلَ فِي الْامْتِحَانِ الْإِلَهِيِّ مِمَّا أَذَى إِلَى طَرْدِهِ مِنَ السَّاحَةِ الْإِلَهِيَّةِ، وَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ بَدَأَ يَسْعَى إِلَى أَنْ يُضِلَّ عِبَادَ اللَّهِ كَمَا ضَلَّ هُوَ، وَفِي ذَلِكَ يَحْكِي لَنَا الْقُرْآنُ قَوْلَهُ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾^(٢).

عهد الشيطان بإضلال الإنسان

فِي ضَوْءِ الْآيَةِ الْمَتَقَدِّمَةِ الَّتِي تَحَذِّرُنَا مِنَ الشَّيْطَانِ، نَعْلَمُ أَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ فِي مَعْرَضِ إِغْوَاءِ الشَّيْطَانِ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ الَّذِينَ لَا يَطْمَعُ الشَّيْطَانُ نَفْسَهُ بِإِغْوَائِهِمْ وَإِضْلَالِهِمْ؛ وَلِذَا فَالشَّيْطَانُ يَسْعَى إِلَى خِدَاعِ سَوَاهِمٍ مِنَ الْعِبَادِ وَحَرْفِهِمْ عَنْ مَسِيرِ الْحَقِّ وَإِضْلَالِهِمْ.

وَفِي آيَةٍ أُخْرَى يُنْقَلُ لَنَا كَلَامُ آخِرِ الشَّيْطَانِ يَقُولُ: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٣).

(١) المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ٢، الباب ٣٢، الصفحة ٢٦٢، الحديث ٥.

(٢) سورة ص، الآيتان ٨٢ - ٨٣.

(٣) سورة الإسراء، الآية ٦٢.



وعليه فيجب عدم الغفلة عن أنّ هذا العالم هو ساحة امتحان، وجميعنا معرّضون لهذا الامتحان، وكل شخص يُمتحن بشكل من الأشكال، فمن الناس من يُمتحن بماله، ومنهم من يُمتحن بالمكانة والمنصب، وثالث بالعلم، وجميع نِعَم الله وسائل وأدوات للامتحان، ويجب علينا أن نولي عناية قصوى للنجاح في هذا الامتحان وأن لا ندع الشيطان يتفوّق علينا ويضلّنا بوساوسه؛ لأنّ الله أتمّ حجّته علينا ومنحنا القدرة على الاختيار، ولا سلطة للشيطان علينا ليجبرنا على الانحراف والظلال، فنحن قادرون على مقاومته، وإذا ما انخدعنا بالشيطان باختيارنا وضلّنا، فلا حجة لنا أمام الله، وسوف لن يقبل الله عذر المذنبين الذين يُلقون مسؤولية انحرافهم وانحطاطهم على عاتق الآخرين ويدّعون أنهم لا تقصير لهم في ذلك. ومن هنا ينقل لنا القرآن حال التنازع بين المذنبين قائلاً: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا آذَرُكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرِنَهُمْ لِأُولِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١).

وحيثما يتّجه الجهنميون نحو الشيطان ويلومونه قائلين: أنت الذي أضللتنا وتسببت في حرماننا من الجنة والسعادة، وأوقعتنا في البلاء والعذاب الأبدي، يجبهم قائلاً كما يحكي عنه القرآن: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا



أَنْفُسَكُمْ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ^(١).

فالله إذا لم يُسلِّط الشيطان على أحدٍ، والمخدوعون بالشيطان لا يملكون عذراً أمام الله بأن الشيطان أجبرهم على الفسق والفجور واتخاذ طريق الكفر والشرك سبيلاً.

نعم إن أولئك الذين تجذّر الفسق والمعصية في قلوبهم وَخَلَّتْ من الفضيلة والكمال، يبلغ بهم المطاف مكاناً يتحوّلون فيه إلى عبيدٍ مُطيعين لأوامر الشيطان، ويقبلون ولايته بكلّ وجودهم ويسعون جاهدين لتنفيذ وساوسه، ويجعلون من أنفسهم مَطِيَّةً للشيطان فيوجههم أنى شاء، وقد رضي هؤلاء بسلطة الشيطان بكامل اختيارهم، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا سُلْطَنُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾^(٢).

والشيطان يَشْعُرُ بسعادة غامرة حينما يدخل الناس في ولايته ويرتضونها، ويضعون طوق العبودية له في أعناقهم، ويبدون استعدادهم لأن يصبخوا مَطِيَّةً له، ومضافاً إلى أنهم يُضَلُّون أنفسهم، فإنهم يتحوّلون إلى أداة شيطانية لإضلال الآخرين، والنتيجة هي أنهم يتحوّلون إلى ما عبّر عنه القرآن الكريم بـ«شياطين الإنس»، فيأخذون بالعمل وكالةً عن الشيطان في نشر الشبهات والوساوس بين عباد الله ويخلقون الانحراف، فيصبحون عاملاً للانحراف والشرّ والضلالة.

(١) سورة إبراهيم، الآية ٢٢.

(٢) سورة النحل، الآية ١٠٠.



الحكمة من خَلَقَ الشيطان

مما يكثر ترديده على ألسنة السطحيين والذين لا معرفة لهم بفلسفة الخَلْق والحكمة الكامنة في التدبير الإلهي وكذلك من لم ينهل من معين معارف التوحيد والتعاليم الإلهية السؤال التالي: لماذا خَلَقَ الله الشيطانَ الذي أضلَّ الكثير من الناس؟

وجوابه هو: إِنَّ الله خَلَقَ العَالَمَ وجعله يسير ضمن نظام الأسباب والمسببات، وَإِنَّ وجود الأسباب ناشئٌ عن الحكمة الإلهية وفلسفة وجود العالم، فكل الأعمال - وحتى الجزئية والصغيرة منها - لا تتم دون سبب، وعلى سبيل المثال: نحن نحتاج إلى الطعام، وقد جاء في معارف ديننا التصريحُ بأن الله هو من يرزق الجميع، وليس هناك أدنى مشقة عليه في أن يوفرَ لنا رزقنا ويضعه بين أيدينا، لكنه وفق نظام الأسباب والمسببات والحكمة الإلهية يجب على العامل أن يعمل ويأخذ أجره مقابل ما يؤدّيه من عمل، والفلاح يجب عليه زراعة الأرض وتوفير الحنطة وسائر المنتجات الغذائية، وكلّ شخص يبذل جهده ويكدُّ ويتعب بما يجيده من عمل كي يوفرَ احتياجات الناس.

وفي دائرة العمل والسعي هذه وفي مجال تأمين الرزق تتوفّر أرضيات كثيرة لامتحاننا، وتنشأ تكاليف عديدة لنا ولمن هم على صلة بنا، ونتيجتها هي أن الإنسان ومع كل خطوة يخطوها إلى الأمام إمّا أن يصنع لنفسه جنّةً أو جحيمًا، وإمّا أن يصل إلى الثواب أو العقاب، وهل الفلاح يزرع في أرضه، أو في أرض مغصوبة، وهل يسقي زرعه بماء حلال أو بماء مغصوب؟ وهل يعطي زكاة محصوله أو لا يعطيه؟ وهل يُعطي للعمال الذين يعملون في أرضه أجورهم كاملةً أو يستغلّهم ويغصب



١٧٣



حقوقهم؟ وهل الخباز يبيع للناس خبزاً جيّداً أو محروفاً أو غير ناضج؟
وهل الكاسب يُخسر في الميزان ويغشّ أو لا؟

إذاً، من أجل أن يُسرّ الإنسان حياته ويملاً بطنه فإنه يواجه الكثير من التكاليف التي تمهد الأرضية لنموه؛ ذلك أنّ هدف الإنسان وغاياته هي السموّ والرقي، وهذا الأمر المهمّ إنّما يتحقّق في ظل طاعة الله، وطاقته سبحانه إنّما تتحقّق عبر الالتزام بأوامره ونواهيه، وكلّما زادت التكاليف الإلهية، اتّسعت أرضية تكامل الإنسان وتوسّع نطاقها.

ورغم أن هوى النفس يدعو الإنسان إلى اتّباع الرغبات والميول والشهوات، لكنّه بنفسه عامل امتحان للإنسان، فمن خلال اتّباعها يكون الإنسان بصدد الانغماس في الشهوات والرغبات النفسانية والتخلّف عن السمو والكمال، وفي المقابل وعند مخالفة تلك الأهواء والعمل بمقتضى العقل والفطرة يوفّر الإنسان لنفسه أرضية الرقي والسمو وتفتّح القابليات الملكوتية والمعنوية، غير أنّه في الكثير من الموارد يكون كلا العاملين [أي اتّباع الهوى واتّباع العقل] ضعيفين ومن كلا الجهتين، ولتقوية أرضية الامتحان وتعميقها هناك حاجةٌ لإثارتها وتقويتها، وهنا يلعب الشيطان دور تقوية الأهواء النفسانية.

ومن وساوس الشيطان وحثّه المتكرّر تنشأ لدينا رغبات وتصدر عنّا أفعال وسلوكيات تُثير تعجّبنا. فمثلاً يتصوّر الإنسان أنّ ذاك الطعام الحرام لذّته أكبر من الطعام الحلال، ولكنّه حينما يتناوله يتفاجأ بأنّه لم يكن لذيداً أصلاً وبأن تصوّره السابق كان وهمّاً لا غير.

لكن العجب لا ينقضي في المرّة الثانية؛ إذ يتكرّر عنده مثل هذا الوهم في طعام آخر متصوّراً أنّ لذّته أكبر وطعمه أطيب فيتناوله، وهكذا



تتكرّر هذه الحالة عدّة مرّات، من دون أن ينتفع من تجاربه السابقة التي مُنيت بالفشل.

أو يتصوّر الإنسان أنّ النظر إلى المرأة الأجنبية لذيّ وفيه متعة استثنائية، لكن بعد أن ينظر إلى المرأة الأجنبية ويتأمل قليلاً ويفكر في الأمر يُدرِك أنّه لم يكن ممتعاً إلى هذا الحدّ، ومع ذلك يسعى في اليوم التالي إلى النظر إلى النساء الأجنبيّات لينال تلك اللذة الوهميّة.

وعلى كل حال ينال الإنسان التعجّب من تكرار السلوك الخاطئ وغير النافع، فلماذا ينخدع باستمرار ويكرّر الإقدام على عمل يعلم أنّه غير نافع ولا ثمرة فيه؟!

يبيّن لنا القرآن أنّ سبب الانخداع المتكرّر والمستمرّ وتوهم اللذة في المعصية إنّما هو ناشئ من وساوس الشيطان وتزيينه للمعاصي، يقول الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(١).

أنوع تأثيرات الشيطان في الإنسان

تنقسم تأثيرات الشيطان وأعماله - قسمةً عامّةً - إلى فئتين:

١. التأثير والتدخل في معرفة الإنسان وإيمانه عبر إحياءاته ووساوسه، وفي هذا السياق قد يستطيع الشيطان أن يبدّل يقين الإنسان إلى شكّ بواسطة وساوسه وإلقاء الشك في نفسه، مما يؤدّي إلى تردّد الإنسان في أمرٍ يقيني، فمثلاً قد يُلقِي في روع الإنسان أنّه بما أنّك أخطأت سابقاً في الموضوع الفلاني، فمن الممكن أنّك الآن على خطأ



في هذا الأمر الذي تتصوره يقينياً. بل إن الشيطان قد يُشكك الإنسان في أشد الأمور قطعياً ويقينيةً التي لا يشك فيها عاقل، فيؤدي إلى أن يشكك الإنسان في أمر بديهي.

٢. تأثيرات الشيطان في سلوك الإنسان عبر تزيين سلوك معين، بإيحائه وجعله الإنسان يتوهم وجود لذة استثنائية في عمل قبيح، فيدفعه إلى القيام به، وبعد أن يكشف الإنسان وهم تلك اللذة وأنها غير حقيقة، يبدأ استخدام حيلة جديدة لخداعه مرةً ثانيةً وجعله يكرر نفس تلك المعصية، ومرةً بعد أخرى يجعل الإنسان أسيراً للوساوس منخدعاً باللذات الوهمية، ومن تلك التأثيرات الشيطانية على الإنسان أنه يخوفه من امثال التكاليف والواجبات الإلهية، وبهذا يمنع أداء التكاليف، والنموذج البارز لذلك مسألة دفع الخمس، فإننا نرى بعض الأثرياء يُنفقون أحياناً كثيراً من الأموال عبثاً على أمور غير ضرورية في التسلية أو السهرات التي لا فائدة فيها، لكنهم لا يُبدون أي استعداد لدفع شيء من أموالهم كخمسٍ من أجل العمل بتكليفهم الشرعي ووظيفتهم الإلهية؛ وذلك لأنهم يخشون الفقر فيما لو دفعوا الخمس، يقول سبحانه في بيان دسائس الشيطان وتخويله الإنسان من أداء التكاليف المالية: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(١).

وبناءً على هذا فالشيطان بما أنه لا يستطيع أن يُجبر الإنسان على ارتكاب الذنب بالقوة ولا أن يمنعه من الاختيار، يتخذ أساليب وحيل متنوعة لخداع الإنسان، ويتحقق له ذلك أحياناً عبر تزيين المعاصي



وتجميعها في عين الإنسان ثم دعوته للقيام بها، وأحياناً بإلقاء الخوف والرعب في قلبه، وبذلك يمنعه من القيام بتكاليفه الإلهية، وكلّما ندم الإنسان بعد ارتكاب المعصية واكتشف خداع الشيطان له، يتخذ الشيطان خدعةً ومَكْرًا جديدًا يزيّن فيه نفس تلك المعصية ليقع فيها مرّةً أخرى.

وشياطين الإنس يتّبعون أيضًا نفس هذه الأساليب لخداع الشباب، ومن أجل دعوة الشاب الساذج عديم التجربة نحو مجالس الفساد يخدعونه بكلام معسول يختلط فيه الكذب بالصدق، ثم يرغّبونه للمشاركة في مثل هذه المجالس ويثيرونه، وبعد أن يكشف ذلك الشاب خواء وكذب ذلك الكلام وعدم فائدة تلك المجالس بل ضررها الكبير، يستخدم الشيطان مجدّدًا حيلةً جديدةً يخدعه بها، إلى أن يلوّثه بالفساد ويغرقه في مجالس اللهو والانحراف.

وعلى أي حال فإن الشيطان يستغلّ هوى النفس كنقطة ضعف في الإنسان ويسوقه نحو المعاصي والمفاسد بعد أن يزيّنّها في عينه، حتى يصل الإنسان إلى مرحلة الاستسلام التامّ لوساوس الشيطان، ويسلمه عنان اختياره، فيبدأ الشيطان بسوقه حيث شاء ويسير به إلى أي اتجاه أراد.

أنواع عداوة الشيطان للإنسان في كلام الإمام السجاد عليه السلام

في الفقرة الثانية من المناجاة للإمام السجاد عليه السلام نجد ما يناسب ما طرحنا من بحث وهو قوله عليه السلام:

«إِلَهِي: أَشْكُو إِلَيْكَ عَدُوًّا يُضِلُّنِي،
وَشَيْطَانًا يَغْوِينِي، قَدْ مَلَأَ بِالْوَسْوَاسِ
صَدْرِي، وَأَحَاطَتْ هَوَاجِسُهُ بِقَلْبِي،



يُعَاذُ لِي الْهَوَى، وَيُرِيْنِي لِي حُبَّ الدُّنْيَا، وَيَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَ الطَّاعَةِ وَالرُّفْلَى».

الإنسان في مواجهة مستمرة مع عدوين خطيرين: أحدهما النفس الأمارة وهي العدو الباطني، والآخر الشيطان وهو العدو الخارجي.

وفيما يتعلق بشدة عداوة النفس الأمارة يقول رسول الله ﷺ: «أَعْدَى عَدُوِّكَ نَفْسُكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ»^(١).

وأما فيما يرجع إلى عداوات الشيطان للإنسان فمن أكبر ألطاف القرآن بنا هو أنه نبهنا بصور متنوعة إلى عداوات الشيطان لنا، وقد حذرنا من الوقوع في فخ هذا العدو الخطير وما يتسبب به ذلك من عواقب مؤسفة وحسرة أليمة، قال عز اسمه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(٢).

يرى القرآن أن عدو الإنسان ليس هو فقط من يعرض ماله وحياته للخطر، ويسلب منه راحة الدنيا، بل الشيطان الذي يُدمر حياته الخالدة هو عدو للإنسان أيضاً، بل الشيطان أخطر أعدائنا نظراً لما يسببه من خسائر هائلة لا يمكن جبرانها، ومن هنا يجب علينا أن نصدق بحقيقة أن الشيطان عدو لنا ونسعى لأن لا يحصل بيننا وبينه أنس ومودة وأن لا نفصح له المجال لأن يدخل حريم قلوبنا.

وفي الفقرة المتقدمة ينبّه الإمام عليه السلام إلى عداوة الشيطان للإنسان، ويعدّد أنواع عداواته لنا بما يلي:

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ٧٠، الباب ٤٥، الصفحة ٦٤، الحديث ١.

(٢) سورة فاطر، الآية ٦.



١. إضلال الإنسان: إحدى حيل العدو في ساحة الحرب الاستفادة من عامل المباغطة، فيسعى إلى خداع عدوه وتضليله لبياغته حينما يجد الفرصة مؤاتية للهجوم عليه، فيوجه له الضربة القاضية؛ وكذا عدو الباطن (الشیطان) فإنه يسعى بمخططاته المختلفة إلى جر الإنسان نحو الضلال ومنعه من الوصول إلى احتياجاته الحقيقية والأصلية ومقصده النهائي، وجعل روح الإنسان وجسده أسيرين له، وكذلك يجعل الإنسان في معرض الزلل والخطأ دائماً؛ إذ قطع عهداً أن يمارس الخداع والدسائس ويعمي بوساوسه بصيرة الإنسان عن رؤية الحقائق ويمنع قلبه عن التوجه نحو السعادة والهداية، وأن يمنعه عن السير على الصراط المستقيم وطريق الفطرة، ويغرقه في مستنقع الهلاك والشقاء.

٢. إيجاد الوسوسة والخواطر في قلب الإنسان: مصطلح «وسوسة» في الأصل بمعنى الصوت الخفي الناشئ عن احتكاك الحلي، ثم أطلق على كل صوت خفي، وكذلك تُطلق الوسوسة على الخواطر والأفكار السيئة التي تستقر في قلب الإنسان وروحه.

توضيحه: إن قلب الإنسان عرضة دائماً للخواطر والواردات القلبية التي قسّمها العلماء إلى واردات ربّانية، وملّكية، ونفسانية، وشيطانية. ففي القسم الأوّل لا يقع الخطأ مطلقاً، وأما القسم الثاني فيبعث على الأعمال الصالحة ويُقال لها أيضاً «الإلهام»، وأما الخواطر النفسانية فهي وساوس تمرّ على القلب وتلتذّ بها النفس ويُقال لها أيضاً «الهاوجس»، وأما الخواطر الشيطانية فهي تدعو الإنسان إلى مخالفة الحقّ، ومن هنا فكل ما يردّ القلب بواسطة الشيطان ويدعوه إلى السوء يُطلق عليه «الوسوسة»، وفي آيات ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي



صُدُورِ النَّاسِ^(١)، يبين الله سبحانه أن تأثير الشيطان يكون على صورة وسوس وانفعالات تتحرك في صدر الإنسان فتوجه القلب بهذا الاتجاه أو ذاك، وتتسبب اهتزازه وتزلزله، وأحياناً تُحيط هذه الوسوس والخواطر الشيطانية بقلب الإنسان إلى درجة لا يجد القلب معها سبيلاً للخلاص.

ونطاق نفوذ الوسوس الشيطانية هو دائرة الإدراك ودائرة العزم والقرار والإرادة في الإنسان، وبنفوذها إلى دائرة شعور الإنسان وإدراكه، يخلق حالة من الاهتزاز في معارفه وإدراكاته اليقينية، ويتسبب بتزلزل معارف الإنسان، ويحولها إلى الظن بل وربما إلى الشك.

وأما في مجال العزم والإرادة فإن وسوس الشيطان تمنع الإنسان من اتخاذ القرار الصحيح الإيجابي، فمثلاً حينما يقرر الإنسان أن يؤدي صلاته أول الوقت، فإن الشيطان يجره إلى خللة هذا القرار والتراجع عنه، وفي المقابل يوفر الأرضية والظروف المناسبة لاتخاذ القرارات غير السائغة والخاطئة ويسهل ارتكاب المعصية، ويزيل كل الموانع النفسية التي تمنع الإنسان من الانحدار في وادي الانحراف والضلال.

ويمكن تشبيه الخواطر والوسوس الشيطانية التي تبعد عن الإنسان التفكير السليم والميول الصحيحة بالمكروبات المسببة للأمراض التي تنفذ إلى الأجسام الضعيفة، في حين تطرد الأجسام القوية هذه المكروبات.

(١) سورة الناس، الآيتان ٤ و٥.



والنتيجة هي أن الطريق الوحيد للنجاة من التلوث بالوساوس والخواطر الشيطانية والنفسانية هو تقوية الباطن وتدعيمه برصيد التقوى ومراقبة السلوك والأفكار، والالتفات إلى النفس والالتجاء إلى الله عز وجل، والخوف من عذاب الجحود وعقوبة مخالفة الأوامر الإلهية.

٣. الشيطان يستثمر هوى النفس لأغراضه: يميل هوى النفس بصورة طبيعية نحو المعصية، وقلب الإنسان يميل نحو مظاهر الحياة الدنيا ولذتها، وحينئذ يستثمر الشيطان هذه الأرضية المناسبة المتواجدة في الإنسان وبواسطتها يقوّي وساوسه وأهدافه ويجعل الإنسان يبتلي بالذنوب والعصيان.

٤. الشيطان يزين حبّ الدنيا في عين الإنسان: الإنسان يحبّ الدنيا بطبعه؛ لأنه ابن الطبيعة ونشأ منها وينمو ويتربّع فيها، ويحبّ أيضاً طعامه وشرابه وكلّ ما يؤدّي إلى راحته ورفاهه، وحتى أولياء الله يتنعمون ويلتذّنون بالطعام وسائر النعم الدنيوية من قبيل معاشرّة الزوج والزوجة الصالحين، وعلى هذا الأساس يأتي قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ، وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^(١).

إذا فـ«الدنيا المذمومة» لا يُراد منها الأرض والمخلوقات والنعم الإلهية؛ لأنّ هذه آياتٌ إلهية، بل المقصود هو العشق والتعلّق باللذات الدنيوية وتقديّمها على رضا الله وأوامره، وهو ما ينتهي بالإنسان إلى الطغيان والعصيان ومخالفة الله سبحانه، والتخلّف عن أهدافه الأساسية والكمالات الإنسانية.



فالمراد من الدنيا المذمومة هو المظاهر الكاذبة التي يوجدها الشيطان في اللذات الطبيعية والمحرمة ويزينها بحيث يميل الإنسان نحوها، وحتى أنه قد يفضلها على اللذات الحلال، بل قد يتنازل عن لذات الآخرة الأبدية التي لا يُمكن وصفها طمعًا بنيل الحرام.

وفي الآية اللاحقة جاء توضيح أنواع الزينة المحرمة والمذمومة:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١).

حينما تأسّر أهواء النفس الجامحة المصحوبة بوساوس الشيطان الإنسان وتقيده بقيودها، تتعطل قوة التشخيص لديه وتُغطى بحجاب سميك، فتتغير الحقائق في نظره، وتُزين المعاصي والأعمال القبيحة في نظره إلى درجة أنه يسعى بكل وجوده إلى ارتكابها، ولا تبقى عنده خشية من الفضيحة في الدنيا أو الآخرة.

٥. إيجاد قطيعة بين الإنسان وطاعة الله والتقرب إليه: الشيطان هو قاطع طريق السعادة والكمال ونيل القرب الإلهي، فحينما يكون الإنسان راغبًا بطاعة الله وبصدد سلوك الطريق نحوه سبحانه والانطلاق في مسيره المعنوي من أجل الوصول إلى مقام القرب والرضا الإلهي ونيل الكمالات الإنسانية والقيم الإلهية، يأتي الشيطان لمنع تحقق ذلك مستعينًا بالنفس الأمارة، فيشغل الإنسان برغباته الحيوانية ولذاته الدنيوية، ويمنعه من اللذات الأخروية والكمالات الإنسانية.



المقال الثاني عشر القلب المريض وطُرق علاجه

صفات القلب المريض في كلام الإمام السَّجَّاد عليه السلام

في مناجاة الشاكين، نستمع إلى الإمام السَّجَّاد عليه السلام وهو يشكو بحرقة ومرارة من القلب المصاب الفارغ من الهداية الفطرية والمتَّصف بالقسوة قائلاً:



«إِلَهِهِ إِلَيْكَ أَشْكَو قَلْبًا قَاسِيًا مَعَ
الْوَسْوَاسِ مُتَقَلِّبًا، وَبِالرَّيْنِ وَالطَّبْعِ
مُتَلَبِّسًا».

والمراد من القلب في القرآن والروايات - ومنها ما وَرَدَ في هذه المناجاة - وكذلك في الأدبيات العامة والأخلاق، ليس هو العضو الصنوبري الشكل الموجود في الصدر الذي يُدعى في علم الطب «القلب»، وإنما المقصود منه الروح والنفس الإنسانية من حيث كونها مدركة ذات عواطف وأحاسيس، فالقرآن يُطلق تسمية «القلب السليم»



في مقابل القلوب «القاسية»، و«غير الطاهرة»، و«المريضة»، و«المختوم عليها»، وكذلك وَصَفَ بعض القلوب بأن عليها «الرين».

١. قساوة القلب:

«القساوة» بمعنى الصلابة وعدم القابلية للاختراق، ومن هنا يسمّى الحجر الصلب «قاسياً»، وعلى هذا الأساس تُطلق عبارة «القلوب القاسية» على القلوب الخالية من المحبة، والعطف، والأحاسيس الطاهرة، وكذلك الخالية من الإدراكات السالمة التي لا تتأثر بنور الحق والهداية، ولا تلين له ولا تسلم أمامه، ولا ينفذ إليها نور الهداية.

والجهل والغفلة من عوامل قساوة القلب، لذا يدعو القرآن الكريم الناس إلى السير في الآفاق ومطالعة التاريخ والاعتبار بالأمم السابقة، كي تتوفّر لديهم بذلك الأرضية المناسبة للتعلّل والإدراك الأفضل، يخبرنا القرآن الكريم قائلاً: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾^(١).

وفي آية كريمة أخرى يتحدث الله سبحانه عن الأشخاص الذين لهم قلوب لكنّها لا تدعوهم إلى التعلّل والتفكّر، وقد حرّموا من الاستفادة من الوظيفة الأساسية لقلوبهم ألا وهي التعلّل والتفكّر وتلقّي المعارف الأصيلة والحقائق، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾^(٢).

(١) سورة الحج، الآية ٤٦.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٧٩.



وكذلك يتحدث الله سبحانه عن القلوب المريضة قائلاً: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾^(١)، وأيضاً: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^(٢).

وكما ذُكِرَتِ الآياتان الكريمتان فإن انحراف القلب عن طريق الفطرة والحق يُطلق عليه أحياناً «المرض»، وأحياناً أخرى «الزيف»، وحينما يشتد زيف القلب وانحرافه يُحرّم الإنسان من إدراك الحقائق وتشخيص الطريق الصحيح والمنطق السليم، وحينما يصل الإنسان إلى هذه المرحلة من الانحراف يُقال له «ميت القلب»؛ لأن قلبه - في هذه الحالة - يكون قد فقد خواصّه وتأثيره المطلوب.

ومن الجدير بالقول هنا إن قلب الإنسان في البدء يتمتّع بالصفاء والنور والفطرة الطاهرة، ويتأثر مباشرةً بارتكاب المعصية ويندم على ارتكابها، لكن إذا استمرت المعاصي وتكررت يصل الإنسان إلى مرحلة من الانحطاط لا يقتصر فيها على مجرد عدم الندم من ارتكاب الخطايا والذنوب، بل إنه حينها يرضيها ويسعد بها، ومن هنا يقول الإمام الباقر (عليه السلام): «مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَفِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ بَيَاضٌ، فَإِنْ أَذْنَبَ وَتَنَّى خَرَجَ مِنْ تِلْكَ النُّكْتَةِ سَوَادٌ، فَإِنْ تَمَادَى فِي الذُّنُوبِ اتَّسَعَ ذَلِكَ السَّوَادُ حَتَّى يَغْطِيَ الْبَيَاضَ، فَإِذَا غَطَّى الْبَيَاضَ لَمْ يَرْجَعْ صَاحِبُهُ إِلَى خَيْرٍ أَبَدًا»^(٣)، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٤).

(١) سورة البقرة، الآية ١٠.

(٢) سورة الصف، الآية ٥.

(٣) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ٧٣، الباب ١٣٧، الصفحة ٣٦٨، الحديث ٨٨.

(٤) سورة المطففين، الآية ١٤.



٢. تَغْيِيرُ الْقَلْبِ بوساوس الشيطان:

إنَّ الإنسانَ في ضوء الرؤية القرآنية موجود لا ينفك عن حالة التغير والتحوّل المتواصل، وربّما سُمّي «القلب» قلبًا بسبب تغيّره وتقلّبه، وثمة عاملان أساسيان يسببان هذا التقلّب والتحوّل الحادث في القلب هما: هوى النفس ووساوس الشيطان، وهذه الوساوس عبارة عن الإلقاءات الشيطانية والشبهات التي تخطر على الذهن، مما يؤدي إلى زوال الاطمئنان والاعتقاد الراسخ من القلب، وحلول التزلزل والاهتزاز مكانه، مما يؤثّر على إيمان القلب بشكل سلبي فيضعفه ويبقيه في حالة من الشك والتردد وعدم الاعتقاد.

٣. رَيْنُ الْقَلْبِ:

من جملة حالات القلب التي أشار إليها الإمام عليه السلام والتي تحصل نتيجة للمعصية حالة «الرَيْن» وإصابة القلب بالصدأ.

و«الرَيْن» في الأصل بمعنى الصدأ الذي يعلو المرأة والسيوف والمعادن والأشياء الثمينة، وبحسب تعبير البعض هو الطبقة الحمراء التي تعلو المعادن كالحديد نتيجة تعرّضها لرطوبة الجو. ومن خواص المعدن أنه ناعم صقيل لمّاع، لكنّه حينما يعلوه الصدأ يفقد خاصيّته الطبيعية ونعومته فلا يعود صقيلاً، فيمنع الصدأ والرَيْنُ النعومة واللّمعان والشفافيّة، وكذلك حينما يعلو الصدأ المرأة فمهما تُنظّف لا يزول عنها الصدأ ولا تعود شفافةً، وحينها لا يمكن رؤية شيء فيها.

وقلب الإنسان أيضاً يفقد نقاوته وشفافيّته نتيجة للمعصية، وتتسبّب المعاصي في اعتلاء الصدأ عليه بشكل قد لا يمكن إزالته عنه، وتكون نتيجة ذلك عدم انعكاس الحقائق والتلقّيات الفطرية الأصلية القيّمة فيه.



٤. الختم [الطبع] على القلب:

إحدى حالات القلب المُشار إليها في الفقرة المتقدمة من مناجاة الشاكين حالة «الطبع» والتي يعبر عنها القرآن الكريم أحياناً بـ«الختم».

والمراد من الطبع والختم على قلب الإنسان هو عدم عودة المرء محلاً لتقبل الحق والاعتراف به، وهو ما يقابل الإنسان الفطري والسليم الذي يسلم أمام الأدلة المتقنة والحقائق الواضحة، وأما من طُبع على قلبه فتُسلب منه قابلية الإيمان، فيؤدي به ذلك إلى امتناعه عن قبول الحق، ورفضه كلما دُعي إلى طريق الهداية والكمال، بل سوف لن يؤثر فيه حتى كلام الأنبياء الإلهيين، ومن هنا يتحدث الله سبحانه عن الكفار الذين طُبع على قلوبهم قائلًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٥ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ عِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(١).

وقد أوضحت بعض آيات القرآن الكريم أن سبب الطبع على القلب هو الكفر، والتعدي، والظلم، والغفلة: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كِبَرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾^(٢).

وتذكر آية أخرى أن علّة الختم على القلب هي اتباع الهوى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ

(١) سورة البقرة، الآيتان ٦-٧.

(٢) سورة غافر، الآية ٣٥.



سَمِعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشْلَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾.

وقد وردَ في الآية الشريفة ذمُّ الذين يعلمون بالله وأحكامه وفي الوقت نفسه لا يتَّبِعُونَهُ ويعصون أوامره، ونتيجةً لعبودية هوى النفس ينهمكون بما تهواه قلوبهم؛ ولأنَّ هؤلاء لم يعملوا بلوازم علمهم أنَّه لا معبود إلا الله، بل انشغلوا برغباتهم واتَّبَعَ هوى نفوسهم، أصبحوا ضالِّين فختم الله على قلوبهم وأذاَنهم وأَعْيَنهم، وأُلْقِيَ عليهم حجاب فلا يستطيعون إدراك الحقائق.

الحالات الفطرية والطبيعية للقلب في القرآن

يُستفاد من القرآن الكريم أن من خواصَّ القلب وحالاته الفطرية اشتماله على الأحاسيس والعواطف، ومن حالاته اللين والرقَّة، وفي هذا المجال يتحدث القرآن الكريم عن قلب رسول الله ﷺ المفعم بالعطف والرحمة والعواطف والأحاسيس الطاهرة الذي استطاع بفضلَه أن يهدي ما لا يُحصى من الناس الأنقياء العطاشى إلى المحبة الإلهية والرحمة الربانية الذين انجذبوا إلى وجود النبي ﷺ المبارك قائلاً: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (٢).

كما يستفاد من الآية الكريمة أنَّ أحد العوامل الأساسية لانتشار دعوة رسول الله ﷺ وتأثر الناس به صلوات الله عليه بنحو إعجازي

(١) سورة الجاثية، الآية ٢٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٥٩.



وقبولهم الإسلام على يديه، هو أخلاقه اللينة ورحمته وعطفه التي أودعها الله سبحانه في قلبه الكبير، وقد أدّى وجود هذه الخصائص إلى ميل الناس العظيم نحوه وكذلك هيامهم به وعشقهم لشخصه الكريم بشدة، واتباعهم له بكل قوة وعزيمة.

والحالة الأخرى المنسوبة للقلب والتي عُدَّت من خواصه الفطرية، حالة الخوف والخشية، وقد قلنا فيما مضى إن وجود جميع الحالات - ومنها الخوف - في الإنسان أمر مطلوب في محله وله نتائج إيجابية، بالرغم من أن بعض علماء النفس يذمّون الخوف بشكل مطلق ويرون أن حالات من قبيل الخوف، والحياء، والخجل، هو أمور سيئة وعلامات على الضعف، لكن الرؤية الإسلامية تعتبر أنّ جميع حالات الإنسان ومنها الخوف، والحياء، والخجل أمور مطلوبة إذا ما استعملت في موضعها المناسب، فالخوف من المخاطر الجديّة - ومنها الخوف من الله بمعنى الخوف من عقوبة المعاصي - أمر مطلوب وضروري، ومن هنا يعدُّ الله سبحانه الخوف منه من الصفات والحالات الثابتة عند المؤمنين به قائلاً: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^(١).

وفي مقابل الحالتين المتقدمتين هناك قساوة القلب التي حينما تسيطر على قلب الإنسان يضحى ممن لا يخاف من الله، ولا يخشى من المعصية ويوم القيامة والعذاب الأخروي، وحينما تُتلى عليه آيات العذاب الإلهي تراه وإن لم يُنكرها لكنه - وبسبب قساوة القلب - لا تُحدث



عنده أي تأثير ولا يظهر فيه أي تغيير، فمثل هؤلاء قلوبهم قاسية جدًا ولا تتقبل أي تغيير.

كما يُحَدِّثُنا القرآن الكريم عن بني إسرائيل قائلًا: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(١).

ومن جملة الحالات والخواص الطبيعية والفطرية للقلب، التسليم قبال الدليل والحجة القطعية والإطمئنان واليقين به، فالأشخاص من ذوي القلوب السليمة والنقية من الآفات الاجتماعية والأخلاقية والوساوس الشيطانية يسلّمون سريعًا أمام الأدلة القطعية القويّة، ويخضعون لها، لكن مرضى القلوب ومن تلوّثت قلوبهم بالوساوس الشيطانية لا يسلّمون أمام الأدلة المحكمة، وحتى لو أقيم لهم برهان نتيجته بديهية لا يمكن الخدش بها تراهم لا يقبلون به، ويعيشون حالة من التردّد والتشكيك، وبحسب تعبير القرآن الكريم يبقى «الريب» في قلوبهم ولا يزول منها: ﴿إِنَّمَا يَسْتَحْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾^(٢).

إنّ الذين وقعت قلوبهم فريسةً لوساوس الشيطان لا يثقون بأي شخص، كما يفقدون ثقتهم كذلك بكل شيء، ودائمًا يعيشون حالة التردّد والاضطراب، ولا تعرف قلوبهم السكينة والهدوء.

(١) سورة البقرة، الآية ٧٤.

(٢) سورة التوبة، الآية ٤٥.



تأمر الإنسان باختيار اللذات التافهة والهابطة، والعقل يدعو الإنسان إلى اختيار اللذات السامية الراقية.



وبحسب اصطلاح علماء الأخلاق فإنَّ النفس الأُمارة تدفع الإنسان نحو الطغيان والتمرد وإعمال الغرائز الحيوانية، وتوفّر الأرضية اللازمة للمعصية والابتلاء بالغضب الإلهي والهلاك عبر طلباتها المستمرة التي لا تتوقف ورغباتها التي لا تُشبع.

وفي مقابل النفس الأُمارة - التي لا تفتأ تجرُّ الإنسان نحو المراتب الحيوانية الهابطة، وتعيقه عن الوصول إلى السمو والكمال - ثمة النفس الملكوتية، وبتعبير آخر «النفس الإلهية»، وهي التي تمنع الإنسان عن الانهماك في الرغبات الهابطة وتدعوه إلى الكمال والسمو.

لكنّه قد ثبت في البحوث الفلسفية والعقلية أنّ نفس الإنسان واحدة لها قوى وحيثيّات مختلفة. فهناك حيثيّة في النفس تتصيّد الرغبات الماديّة والحيوانية، وهناك حيثيّة أخرى في النفس تسعى وراء الرغبات المعنوية من قبيل العلم والصداقة والحبّ، أو ما هو أسمى من ذلك كله كالقرب إلى الله تعالى. وتلك الحيثية وقوى النفس الموجهة نحو الغرائز الحيوانية الهابطة تُسمّى بـ«النفس الأُمارة»، وأما الحيثيّة من النفس الساعية وراء الرغبات السامية فتُسمّى بـ«النفس الملكوتية أو الإلهية».

إذا فالنفس الإنسانية - في الحقيقة - ليست متعدّدة، بل هي نفس واحدة لها قوى متعدّدة، يقع التزاحم بينها في مرحلة العمل.

وبلحاظ أنّ للنفس قوى تميل بها نحو الغرائز الحيوانية والهابطة تُسمّى «النفس الأُمارة»، وبلحاظ أنّ لها قوى تحثُّ الإنسان وتدفعه نحو الرغبات السامية وتدعوه إلى مقاومة الرغبات الحيوانية الفارغة، تُسمّى



«النفس الملكوتية والإلهية»، فمن هنا يظهر اصطلاح التضاد والتنازع بين العقل والنفس والحرب بينهما، والمقصود من حرب العقل مع النفس، هو التضاد بين البُعد الحيواني للنفس والبُعد الملكوتي فيها.

طريق السيطرة على الغرائز النفسانية وضمان تفوق الذات الأخروية

للإنسان **حيثيات وشؤون متنوعة طَوِيَّة** وعَرَضِيَّة، وهي بدورها تشتمل على رغبات مختلفة يقع التزاحم بينها، وفي نهاية المطاف يقوم الإنسان - الذي يمتلك العزم والقدرة على اتخاذ القرار الصحيح حينما يقع بين رغبتيْن وهو مضطَّرٌّ إلى الاختيار بينهما - ومن خلال قوَّة الاختيار واتخاذ القرار لديه باختيار أحدهما، غاية الأمر أنه في الظروف العادية وحينما لا تكون بعض الرغبات متمتعةً بأفضلية وجاذبيَّة خاصَّة وكذلك لا يوجد في الإنسان إثارة خاصَّة، يسهل اتخاذ القرار فيستطيع الإنسان الاختيار ببساطة. لكن حينما تنفجر الرغبات وتخلق الإثارة في الإنسان، يصعب اتخاذ القرار. وعليه فما دامت الرغبات الحيوانية ساكنة غير طاغية ولم تؤدِّ إلى الإثارة، يجب على الإنسان أن يغتتم الفرصة، وأن يتأمل في عواقب طغيان الرغبات الحيوانية الهابطة ليوَفِّر أرضية عدم طغيان تلك الرغبات، فيتسنى له - عند اتخاذ القرار - أن يقدم الرغبات الإلهية على الرغبات النفسانية. وحينما تثور قوَّة الغضب في الإنسان، يتوقَّف عقله عن التأثير وتُسلب منه فُرصة التفكير السليم، وقد يبدر منه تصرف جنوني، أو ينطق بكلام بذيء ناب. لكن عندما تكون قوَّة الغضب خامدةً في الإنسان ولا يثور فيه انفعالها، يجب عليه أن يَهَيِّئ نفسه وأن يسيطر عليها في حالات الإثارة، كما لو تعرَّض له شخص بالسوء فلا يردُّ عليه بكلام بذيء ولا يتَّخذ سلوكًا غير لائق.



١٩١



ومن بين وساوس الشيطان ما يصيب بعض المتديّنين في عملهم بأحكام الدين، من قبيل ابتلائهم بالوسواس في أحكام الطهارة والنجاسة، ورغم أن جميع الفقهاء يقولون بكفاية الغسل بالماء مرّتين لتطهير محل النجاسة نجد الشخص الوسواسي يغسله أحياناً مئة مرّة، ورغم ذلك يقول: «ما زال نجساً ولم يطهر بعد»!

أذكر حينما كنّا نسكن في المدرسة الدينية أنه كان يسكن معنا شخص فاضل لكنه مبتلى بالوسواس، فكان يصحو أول الفجر عند أذان الصبح ويكسر الثلج الذي يعلو حوض المدرسة ويستمرّ في الوضوء إلى وقتٍ قريبٍ من طلوع الشمس، ثم يؤدّي صلاته بصعوبة بالغة.

وثمة بعض الأشخاص يبتلون كذلك بالوسواس الفكريّ فلا يسلمون حتى للبراهين القطعية ويعيشون في حالة متواصلة من التذبذب والشكّ كما أسلفنا، وقد يكونون في البدء معترفين بالحقائق والمعارف الأصيلة ومتيقّنين بها، لكنهم يقعون تحت تأثير وساوس الشيطان وإلقاءاته مما يوصلهم تدريجياً إلى حالة لا يرون فيها أي شيء يقينياً ولا يتحقّق لديهم القطع بشيء مطلقاً.

وهذه الحالة من التزلزل والتشكيك في الأمور اليقينيّة والقطعيّة هي حالة غير طبيعية وناشئة عن الخروج عن دائرة الفطرة، وبتعبير آخر: إنها ناشئة عن الخروج عن الإنسانية، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «فَالصُّورَةُ صُورَةُ إِنْسَانٍ وَالْقَلْبُ قَلْبُ حَيَوَانَ لَا يَعْرِفُ بَابَ الْهُدَى فَيَتَّبِعُهُ وَلَا بَابَ الْعَمَى فَيَصُدُّ عَنْهُ وَذَلِكَ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ»^(١).



ثم يشكو الإمام عليه السلام من العين التي لا تبكي من خشية الله قائلاً:

«وَعَيْنًا عَنِ الْبَكَاءِ مِنْ خَوْفِكَ جامدة».

حينما يبتلي الإنسان بقساوة القلب تظهر آثار ذلك في جسمه وخاصة في عينه، وبتعبير آخر: إن جفاف العين وعدم البكاء خوفاً من الله يعدُّ أثراً وعلامةً على قساوة القلب، فالقلب الذي أصبح مرتعاً للشيطان وأحاطت به أهواء النفس ورغباتها، لا يتأثر بالخوف من العذاب الإلهي، لكنه شديد التأثر بالمشاهد المثيرة للشهوة والمتعة ويهيم بها ويستغرق في مشاهدتها فلا يمكنه رفع عينه عنها.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «مَا جَفَّتِ الدَّمُوعُ إِلَّا لِقَسْوَةِ الْقُلُوبِ، وَمَا قَسَتِ الْقُلُوبُ إِلَّا لِكَثْرَةِ الذُّنُوبِ»^(١).

فانهمار الدموع في الحالات الخاصة يُعدُّ أمراً طبيعياً؛ لذا نرى الأم تبكي حينما ترى وليدها مريضاً مثلاً أو حينما تفارقه، وكذلك يؤدي فراق الأحبة إلى ترقق الدموع في العيون.

والأهم هو أنَّ القلب الفطري السليم يلين أمام الله، ويبيكي في المناجاة وعبادة الله من خشية العذاب الإلهي، وكذلك حينما يعرف الحقيقة فإنه يعتريه الشوق ويأخذ منه الوجد كل مأخذ فتجري دموعه شوقاً.

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ٧٣، الباب ١٣٧، الصفحة ٣٤٥، الحديث ٦٠.



ومن هنا فقد حدّثنا الله سبحانه عن فئة من النصارى من ذوي الفطرة الطاهرة والعطاشى للحقّ ممن توفّرت لديهم أرضية الإيمان، ووصف لنا حالهم حينما كانوا يستمعون إلى آيات القرآن الكريم النازلة على رسول الله ﷺ قائلاً: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾^(١).

ضرورة اقتران الاستعانة بالله بالسعي وبذل الجهد للابتعاد عن المعصية

في الفقرات المتقدّمة من المناجاة يشكو الإمام (عليه السلام) من النفس الأمّارة، والشيطان، والقلب القاسي، ومن العين الجامدة التي لا تبكي من خشية الله، ثم إنه بعد ذلك يسأل الله أن يحفظه من كل هذه الآفات.

ومثل هذا السؤال إنما يكون صادقاً وواقعياً حينما لا يكون مجرد طلب، بل يكون مدعوماً بسعي الإنسان وجهوده في الابتعاد عن الشيطان والحفاظ على قلبه من هوى النفس، وحينئذٍ يستمدّ العون من الله ليساعده في هذا الطريق ويحفظه من العصيان والتمرد. وأما في غير هذه الصورة فإن سؤاله وطلبه من الله سيكون غير واقعي، وغير جادّ وشبيهاً بالمزاح، كما لو أنّ شخصاً وضع يده في النار ثم يطلب من الله أن يحفظها من الاحتراق، فإن هذا السلوك وهذا الطلب يكون مدعاةً لسخرية الآخرين الذين سيقولون له: إذا أردت أن لا تحترق يدك فعليك إبعادها عن النار، فخاصية النار هي الإحراق، وإذا أردت أن لا تحترق يدك فعليك أن لا تدسّها في النار.



وإذا كان الإنسان حقاً منزعاً من إصابة عينه وقلبه، ومن تغلب هوى نفسه عليه، ومن تسلط الشيطان، فعليه أن يسعى بمقدار جهده، وأن لا يقصر في القيام بما يجب عليه القيام به، وحينئذ يطلب من الله أن يعينه، لا أنه يُصر على المعصية ولا يبذل أي جهد للخلاص من شر هوى النفس والشيطان ويكتفي بمجرد الطلب من الله باللسان أن يحفظه من المعصية والشيطان، فمثل هذا الطلب غير واقعي ولن يفضي إلى أي نفع للإنسان أو تحسين لسلوكه.

ووفقاً لبعض الروايات فإن هذا يكون بمثابة الاستهزاء بالله سبحانه، ويجب على الإنسان على الأقل أن يسعى في دعائه ليحفظ نفسه من هوى النفس وأن يبعد الشيطان عن ساحة قلبه.

إذا دعاء الإنسان لا ينبغي أن يكون مجرد لقلقة لسان، بل إلى جانب ذلك يجب على الإنسان أن يبذل جهوده من أجل تحقيق ما يطلبه من الله.

وفي بعض الموارد حينما يرى الإنسان نفسه عاجزاً تماماً؛ لأن عدوه الشيطان قوي جداً، أو لأن أفعاليه وخدعه في غاية التأثير والقوة، أو لأن الغرائز والشهوات النفسانية وصلت إلى حد الانفجار، أو لأن الأوضاع الاجتماعية تكون بحيث يصعب الوقوف في وجهها، فبسبب ذلك كله يشعر الإنسان بالعجز ولا يبقى أمامه سبيل سوى طلب المساعدة من الله، ولا يوجد في يده ما يمكنه فعله، فيجب على الإنسان أن يعتقد بأن ليس هناك من شيء يتم دون إرادة الله ومشيئته، ومن هنا قال ﷺ:

«إِلَهِي لَا حَوْلَ لِي وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِقُدْرَتِكَ،
وَلَا نَجَاةَ لِي مِنْ مَكَارِهِ الدُّنْيَا إِلَّا
بِعِصْمَتِكَ».



١٩٥



إلهي إنني أواجه أخطار النفس الأمارة المُخْرِبة، والشيطان وقساوة القلب، وبدون رعايتك وعونك لا يمكنني التغلب عليها، فيا إلهي العظيم هب لي إرادةً وهمةً عاليةً وزِد لي في قوّتي وأعني لكي أتمكّن من مجابهة الشيطان والنفس الأمارة وأنتصر عليهما، وأن أجتنب عن كل ما يؤدّي إلى البُعد عنك وكل ما يُثير سخطك عليّ، وساعدني على أن أسلك طريق القرب منك.

وفي رواية أنّه سُئل الإمام الباقر عليه السلام عن معنى «لا حول ولا قوة إلا بالله» فأجاب قائلاً: «مَعْنَاهُ لَا حَوْلَ لَنَا عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ إِلَّا بِعَوْنِ اللَّهِ، وَلَا قُوَّةَ لَنَا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ إِلَّا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(١).

طلبات الإمام السجاد عليه السلام من الله

«فَأَسْأَلُكَ بِبَلَاغَةِ حِكْمَتِكَ، وَتَفَاذِ مَشِيَّتِكَ، أَنْ لَا تَجْعَلَنِي لِعَبْرِ جُودِكَ مُتَعَرِّضًا، وَلَا تُصَيِّرَنِي لِلْفِتَنِ غَرَضًا وَكُنْ لِي عَلَى الْأَعْدَاءِ نَاصِرًا، وَعَلَى الْمَخَازِي وَالْعُيُوبِ سَاتِرًا، وَمِنَ الْبَلَاءِ وَاقِيًا، وَعَنِ الْمَعَاصِي عَاصِمًا بِرَأْفَتِكَ وَرَحْمَتِكَ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ».

في هذه الفقرة من المناجاة يتقدّم الإمام عليه السلام بطلباته سائلاً الله أن يلبّيها بحكمته البالغة ومشيتته النافذة.

(١) الشيخ الصدوق، معاني الأخبار، الصفحة ٢١.



وقبل تحليل ودراسة طلبات الإمام عليه السلام ينبغي القول: إن جميع أفعال الله مبنية على حكمة كاملة، والله ينفذ ما يريده بحكمة بالغة نافذة، وكذلك المشيئة الإلهية جارية ونافذة في كل أنحاء الوجود، ولا يتحقق أي عمل إلا عن طريق هذه المشيئة الإلهية، حتى الإنسان - الذي هو فاعل مختار - لا يستطيع أن يفعل شيئاً إلا عبر الأسباب التي وضعها الله بين يديه، والأسباب التي تتوقف بين يدي الإنسان من قبيل الفهم، والإرادة، والصحة، والماء، والهواء، هي جميعاً مجارٍ للمشيئة الإلهية من أجل أن يقوم الإنسان بالفعل اللائق والحسن، ولو لم تتوقف للإنسان هذه الأسباب لم يكن قادراً على القيام بأي عمل ومنه العمل الصالح.

والملاحظة الأخرى هي أننا حينما نريد القيام بعمل ما، فمن دون إرادتنا لا يمكن أن يتحقق العمل، ولكي تصبح إرادتنا عمليةً، يجب أن تتوقف الكثير من الشروط، وكثير منها خارج عن نطاق إرادتنا، لكن مشيئة الله وإرادته كاملة ونافذة ولا تتوقف على الشروط الخارجية، بل إنه بمجرد أن يريد يتحقق المراد، وتحقق مراد الله وإرادته لا يتوقف على أمور خارجة عن الإرادة والمشيئة الإلهية.

وهذا المعنى يبينه الله في هذه الآية الشريفة: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(١).

وأما طلبات الإمام عليه السلام من الله فهي:

١. أن لا تجعلني متعزّضاً وطالِباً لغير جودك: يعني يا إلهي وفّقني لأن لا أرجو إلا جودك وإحسانك، ولا أرجو سواك، ولا شك في أن الإنسان



- وإن لم يكن مستحقاً لرحمة الله وفضله - لكنه محتاج دائماً إلى العفو والرحمة الإلهيين، والرحمة الإلهية تشملته بشكل مستمر.

وفي المناجاة الشعبانية يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إِلَهِى إِنْ كُنْتُ غَيْرَ مُسْتَأْهِلٍ لِرَحْمَتِكَ فَأَنْتَ أَهْلٌ أَنْ تَجُودَ عَلَيَّ بِفَضْلِ سَعَتِكَ»^(١).

٢. لا تجعلني عرضةً للفتن: المقصود من الفتن الضلالات والانحرافات وكذلك الامتحان والاختبار، والبلاء والعذاب الذي يحيط بالإنسان من كل جانب، وإذا وقع الإنسان في أسر الغفلة ولم يتعامل معها بوعي فسوف يهلك.

٣. انصرني على الأعداء: يواجه الإنسان الكثير من الأعداء في حياته، فهناك أعداء الخارج وهناك أعداء الباطن، وكل واحد منهم يشكل نوعاً من البلاء والخطر على الإنسان، وأقوى هؤلاء الأعداء هو الشيطان، ومجابهة هذا العدو الغادر أصعب مجابهة يخوضها الإنسان، وعليه فمن أجل الانتصار عليه، يجب على الإنسان أن يلجأ إلى الله، ويطلب منه أن يكون في كنفه وتحت حمايته، ويقوّي قلبه عبر الإيمان به، ويدعو أن يلطف به وينظر إليه برحمته في صراعه مع الشيطان، لكي تكون عاقبته في هذا الصراع عاقبة خير وسعادة.

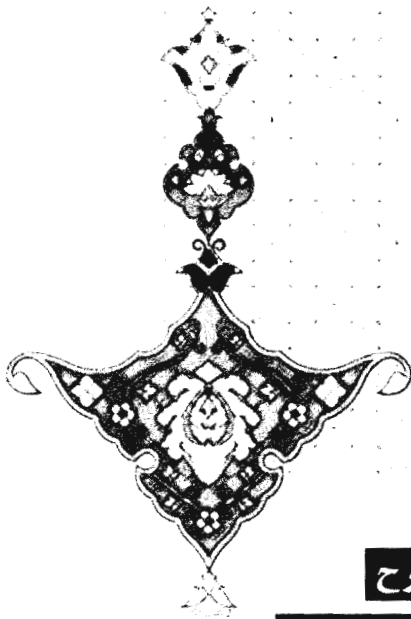
٤. استر عليّ العيوب والمخازي: الستار من صفات الله وأسمائه الحسنى، فالله يستر عيوب الإنسان وفضائحه ومخازيه عن الآخرين، ولا يفضح أمره على الملأ، وبحسب ما يُستفاد من بعض الروايات فإن الله سبحانه يستر على الإنسان عيوبه ومخازيه إلى آخر مرحلة من الانحطاط والسقوط، ولو لم يفعل سبحانه ذلك فسوف يُفتضح أمر الإنسان أمام



أقاربه ومعارفه فضلاً عن غيرهم، ولابتعد الجميع عنه، والله سبحانه يستر عيوب عبده الخاطئ حتى كأنه عز وجلّ يخجل ويستحي بدلاً عنه.

٥. **احفظني من البلاء:** البلىا والحوادث تحيط بالإنسان، فلا مفرّ له من البلىا والأحداث التي تتسبب بالمرض، والموت واختلال شؤون الحياة. وعلى أساس سُنّة الله في مخلوقاته وعباده فإنه يجعلهم في معرض البلىا والمصائب، وهو أيضاً الذي يحفظهم من تلك البلىا والمصائب، ولو لم يكن الملجأ الإلهي الآمن فإن تلك البلىا سرعان ما تقضي على الإنسان.

٦. **احفظني من المعاصي:** لا شك أن عامل هوى النفس - وهو عامل باطني - والعوامل الخارجية - أي إبليس والشياطين - هي التي توفّر في الإنسان الأرضية المناسبة للطغيان والتمرد على الأوامر الإلهية، ولا تتيسّر مقاومة الشيطان إلا في ظل الاعتقاد الراسخ بالله والإيمان بأوامره، خاصّة لطف الله وعنايته، وإذا لم يُعِن الله الإنسان في حربه مع الشيطان وهوى النفس، ولم يحفظه من سهام الفتنة ووساوس الشيطان، فلن يمكنه أن يحتضن مَلاك الهداية والسعادة، والنتيجة هي غرقه في مستنقع الهلاك والفناء، والاصطلاء الدائم في نار الغضب الإلهي والفضيحة.



شرح

مناجاة الخائفين



المقال الثالث عشر الدور البناء للخوف من الله (١)

حالات الإنسان الفطرية وطريقة تفعيلها بشكل صحيح

بعد دراسة مناجاتين من مناجيات الإمام السجاد عليه السلام نصل إلى مناجاة الخائفين، وقبل بحث ودراسة هذه المناجاة ننبه إلى ملاحظة وهي أن المقصود من عناوين المناجيات الخمس عشرة، من قبيل عنوان «الشاكين»، و«الراجين»، و«الخائفين» ليس هو أن الناس على عدّة فئات، فبعضهم خائفون وبعضهم راجون، ويجب على الخائفين قراءة مناجاة الخائفين، وعلى الراجين قراءة مناجاة الراجين، بل إنّ عناوين تلك المناجيات ناظرة إلى حالات عباد الله التي تسنح لهم نتيجة العوامل الخاصة، فأحياناً مثلاً يستولي الخوف على الإنسان نتيجة لعوامل وظروف خاصّة، وفي المقابل أحياناً يملأ الإنسان الأمل نتيجة لمطالعته بعض الآيات والروايات، وفي مثل هذه الظروف يوصى بقراءة مناجاة خاصّة.

والملاحظة الأخرى هي أن لحالات الإنسان ومشاعره وعواطفه جذور فطرية، وهي [أي الحالات والمشاعر] مفيدة في موضعها ومع رعاية الأوضاع الخاصّة بها. فحالة الفرح في الإنسان حالة فطرية، فقد خلق





الله الإنسانَ يفرح في حالات خاصّة، وكذلك حالة الحزن فطرية، وطبيعة الإنسان تستدعي حزنه في ظروف خاصّة، وهاتان الحالتان مفيدتان في محلّهما وتؤتيان ثمارهما مع رعاية الاعتدال، ويتم تشخيص الموارد الصحيحة وحدّ الاعتدال بدليل العقل في بعض الموارد. ومن الطبيعي أن يكون نطاق تشخيص العقل محدودًا، فالعقل لا يمكنه هداية الإنسان بشكل كامل وفي جميع الموارد إلى إعمال الحالات النفسية الصحيحة والمناسبة، وقد يقع العقل في الغموض والخطأ حين تشخيص تلك الحالات.

ولا شكّ في أنّ أفضل طريق ينبغي على المتديّنين اتّباعه هو التعاليم والأوامر الدينية، فحينما يراجعون تلك التعاليم التي تهدف إلى سعادة الإنسان يدركون ما هي الموارد التي يرى فيها الدين أن الفرح مفيد وضروري، وما هي موارد الحزن، وفي أي مورد يجب علينا تقوية حالة الخوف والخشية، وفي أيّها علينا بالرجاء والأمل.

نقد وجهة نظر بعض علماء النفس

تقدّم أنّ جميع الحالات والأحاسيس والعواطف - ومنها حالة الخوف - مفيدة للإنسان وضرورية له، كما أن الأمل مفيد وضروري في محله، لكن في مقابل هذا الاتجاه يُطرح في بحوث علم النفس أن الأمل مطلوب ومفيد بشكل مطلق وهو رمز النجاح والسعادة والتقدّم، ويُقدّم على أنه العامل الأساسي لاستمرار الحياة؛ ولذا يُدّم الخوف، حتى وصل الحال ببعض الجهّال إلى أن ينسبوا إلى أمير المؤمنين عليه السلام كذبًا أنه قال: «الخوف من أكبر الذنوب».



٢٠٣



في ضوء الرؤية الإسلامية والعقل فإن الخوف الذي يهيمن على الإنسان بحيث يفقده ثقته بنفسه وتوكله على الله هو شعورٌ ذميم ومرفوض، إلا أنه لا ينبغي في المقابل رفض مطلق الخوف، فالإسلام يريد الحفاظ على التوازن ويوصي بإبراز هذه الحالة النفسية في الموضوع المناسب.

ونحن إذا تأملنا جيداً ندرك أنه لا يوجد إنسان عاقل خالٍ من دافعي الخوف والأمل، ونجد جميع نشاطاته وأعماله الفردية والاجتماعية (من الأعمال البسيطة كالأكل والشرب والنوم، إلى الدراسة، والعبادة، ومحاربة الأعداء، وبذل الجهود والسعي لتوفير متطلبات الحياة) ناشئة عن دافع الخوف أو دافع الأمل، ونحن لا نجد فعلاً اختياريّاً للإنسان لا يتدخل فيه عامل الخوف أو عامل الأمل أو كلاهما، وهذان العاملان يعدّان ضروريان لحياة الإنسان ولهما دور أساسي في حياتنا.

إن كل العقلاء في العالم - من أي دين ومذهب كانوا - يلتزمون بالحفاظ على الصحة ورعاية السلامة، ويجتنبون كل ما يعرض السلامة النفسية والجسدية للخطر وكل ما يؤدي إلى الموت أو المرض، ولا ريب أن الخوف من المرض والموت هو الذي يدفعهم إلى رعاية الإرشادات الصحية ولو لم يكن ذلك الخوف لما كانوا ليراعوها، وكذا يدفع الخوف من الجوع والفقر المصحوب بالأمل في الحصول على الكسب لتوفير متطلبات الحياة العامل إلى العناء والكّد والتعب وتحمل الحرّ والبرد من الصباح إلى المساء.

وعلى العموم فالخوف يؤثر نوعاً ما في كل عمل فردي أو اجتماعي، غاية الأمر إن متعلق الخوف يتفاوت في الموارد المتنوعة: فقد يدفع الخوف من المرض الإنسان إلى ردّ الفعل والتصرّف، وقد يؤثر الخوف



من الجوع والخوف من الفضيحة في سلوك الإنسان. وكذلك لا نجد للأمل متعلقًا واحدًا وإنما له متعلقات متنوعة بحسب الأفراد والنشاطات المختلفة، فمن أجل أن يجذب التلميذ انتباه أستاذه - مثلاً - نراه يحفظ درسه جيّدًا، و الطفل يطيع أمّه لكي يحصل عنايتها ودلالها.

المنشأ الإلهي للخوف والرجاء

يربط المتديّنون والمؤمنون بالله خوفهم ورجاءهم به تعالى، ويسعون إلى أن تكون دوافع خوفهم ورجائهم إلهيّة ودينيّة، ومن نماذج ذلك أنّهم يجتنّبون الأمور التي تؤدّي إلى المرض أو الضرر من جهة أن الله لا يرضى أن يلحق الإنسان الضرر بنفسه، فهم يؤمنون بأن الله مسبّب الأسباب ومنشأ لجميع الأمور، وجميع العوامل الموجودة في العالم إنما هي أدوات ووسائل لا تأثير لها دون إذن الله وإرادته، والله سبحانه وتعالى هو الذي ينفع الإنسان عبر هذه الأسباب، أو يلحق به الضرر عبر أسباب أخرى. فالنار تُحرق وفقًا للنظام الذي وضعه الله، والميكروب يؤدّي إلى المرض وفقًا للنظام الذي أقرّه الله، وهذين العاملين كسائر عوامل الوجود الخاضعة لإرادة الله ومشيئته وليس لها أي تأثير دون إذنه.

وعلى أي حال فإن الموحّد يرى أن الله هو المؤثّر الحقيقي، وكلّما ازدادت معرفته، فإن هذا الاعتقاد يترسّخ ويتعمّق أكثر، فلا يرى لكل ما سوى الله أي تأثير: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١).



٢٠٥



وفي آية أخرى بعد أن بيّن الله انتشار السحر والعمل به يذمه ويقول إن السحر لا يؤثر في أحد دون إذن الله وإرادته: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُمْ بِضَارِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(١).

والناس يتفاوتون في اعتقادهم والتزامهم بالتوحيد والإيمان بتأثير الإرادة الإلهية في الأعمال، فبعضهم لا يرى أي تأثير لله في الأعمال، وبعضهم يرى أن دور الله عشرة بالمئة - مثلاً - وبعضهم يرويه أكثر من ذلك، لكنّ الموحد الكامل يرى أن جميع الأعمال ناشئة من إرادة الله، لذا فإن خوفه ورجاءه ينتهيان إلى الخوف من الله والرجاء له، لأنه يعلم أن جميع أسباب الضرر وعوامل البلاء تحت الإرادة الإلهية فلا يخاف إلا من الله ولا يرجو إلا إياه.

ضرورة رعاية الاعتدال في الخوف والرجاء

أتضح أنّ للخوف والرجاء دوراً أساسياً في حياة الإنسان، غايته أن هاتين الحالتين مطلوبتان وضروريتان في حدّ خاص وموارد خاصة، وليس الأمر أن كل خوف وأمل مطلوبان وفي كل حال. ومن هنا فقد أكّد الحكماء [الفلاسفة] وعلماء الأخلاق في كتبهم على ضرورة أن يتخذ الإنسان سبيل الاعتدال في الخوف والرجاء؛ لأنّ الإفراط في الخوف يسلب الطمأنينة من الإنسان، ويجعله في حالة دائمة من القلق والاضطراب، والنتيجة هي

(١) سورة البقرة، الآية ١٠٢.



لحوق الضرر بالإنسان. وفي المقابل لو خلى القلب من كل خوف لن يحذر الإنسان من أي ضرر أو خسارة، والنتيجة هي لحوق الضرر به أيضًا.

وكذلك إذا أفرط الإنسان في الرجاء والأمل بالله، فإنه سوف لن يتمتع عن أي ذنب؛ لأنه يرجو أن يعفو الله عنه، وفي المقابل إذا كان يائسًا من رحمة الله، فلن يكون له أمل بالخلاص والنجاة، ولن يبذل أي جهد للخلاص من المعاصي والابتلاءات.

إذاً بناءً على ما قاله حكماء اليونان - تبعًا لأرسطو - وكذلك ما أكد عليه سائر الحكماء وعلماء الأخلاق أنه في جميع الحالات والأمور - ومنها حالتا الخوف والرجاء - يجب رعاية الوسطية والاعتدال. ومن الطبيعي أنه بمراجعة آيات القرآن الكريم، والروايات، والأدعية، والمناجيات، وسيرة النبي الأكرم ﷺ، يمكن معرفة مصاديق الخوف والرجاء المطلوبين، وإدراك أنه في أي مورد يجب الخوف، وفي أي مورد يجب الرجاء.

متعلق الخوف

متعلق الخوف أمر مضر، والإنسان يخاف مما يتسبب له بالضرر حالاً أو مستقبلاً، وفي هذه الدنيا أو الآخرة، لكننا نجد أحياناً أن الشخص الذي لا يكون منشأً للخوف بالذات يصبح مجازاً متعلقاً للخوف، وذلك بسبب علاقة خاصة كعلاقة السببية والمقارنة، من قبيل خوف الإنسان ممن يسبب له ضرراً، بينما منشأ الخوف هو الضرر نفسه، ولكن بما أن الشخص مُوجد ومُسبّب الضرر يصبح متعلقاً للخوف، وعلاقة السببية تؤدّي إلى أن يخاف الإنسان من ذلك الشخص أيضًا.



ماهية الخوف ودوره البناء

٢٠٧



«الخوف» حالة انفعالية وردَّ فعلٍ نفسيٍّ يُظهره الإنسان تجاه الخطر أو الضرر، ومن هنا فالخوف ردُّ فعلٍ طبيعيٍّ وغير إرادي يظهر في الإنسان، وهو سلوك لا إرادي وغير اختياري ولا يكون موردًا للتقييم الأخلاقي ولا يتَّصف بنفسه بـ«الحُسن» أو «القبح»، ولا يستتبع مدحًا أو ذمًّا، ومن هذه الجهة يعدُّ حالة انعكاسية، وبحسب اصطلاح علم النفس من «الحالات الانعكاسية» نظير الغمِّ، والحزن، والفرح. كما أنه حينما تنغرس إبرة في قدم الإنسان يظهر ردُّ فعل لا إرادي تجاه ذلك فيسحب قدمه سريعًا، كذلك الشخص الذي يواجه خطرًا فإنه بشكل طبيعيٍّ يُظهر ردُّ فعل لا إرادي أيضًا، فيخاف ويشحب لونه.

نعم إنَّ مقدّمات إيجاد الخوف والسلوك الذي يبرزه الإنسان من أجل إضعاف، أو تقوية، أو خفض، أو استمرار حالة الخوف، يمكن أن تكون اختياريةً، ويتم تقييمها أخلاقيًا، وتُتصف بالحُسن أو القبح.

فأحيانًا يسمح الإنسان لبعض الأفكار بالخطور على ذهنه أو يقوم بسلوك معيّن يؤدّي إلى تقوية حالة الخوف عنده وتشيديها. وكمثال لذلك الأفراد الجبناء وضعفاء النفوس - وخاصةً حينما يقضون الليل لوحدهم - فإنهم يبدؤون بالتخيّل والتوهّم وبذلك يُقوِّون حالة الخوف في أنفسهم بالتخيّلات، والنتيجة هي تحوّل الخوف لديهم إلى حالة من الرُعب الشديد ولحوق الخسائر الروحيّة الخطيرة بهم. وفي قبال ذلك قد يقوم الإنسان من خلال سلوكيّات معيّنة وتمارين خاصّة بتقليل حالة الخوف في نفسه، أو يزيلها بنحو تامٍّ، وتُعَدُّ هذه المقدّمات - التي هي سلوك اختياري للإنسان - أخلاقًا حسنّةً أو سيّئةً، وإذا تم تقييم حالة الخوف أحيانًا وقيل عنها إنها أمر مطلوب وحسن، أو أمر سيئ، فهذا



التقييم إنما يكون بلحاظ تلك المقدمات الاختيارية، لا بلحاظ حالة الخوف في حد ذاته.

والقرآن الكريم - الذي هو كتاب هداية جُمعت فيه المحاور الأساسية للتربية والتزكية - أكد كثيرًا على عامل «الخوف»، وقد استعمل الخوف والمصطلحات المرادفة له مثل «الوجل» و«الإشفاق» و«الرغبة» و«الخشية»^(١) في آيات كثيرة نوعًا ما، فيما كان متعلقًا بالخوف الله سبحانه، وعامل الخوف من الله له بالغ التأثير في تصحيح سلوك الإنسان وتوجيهه إلى المسار الصحيح في الحياة، واجتنابه الطغيان والانحراف، بحيث إن القرآن الكريم قد جعل الإنذار والتخويف من وظائف الأنبياء الأصلية، وبدلًا من أن يقول سبحانه لقد أرسلنا إلى كل أمة نبيًا أو رسولًا يقول سبحانه أرسلنا لهم نذيرًا ومخوفًا، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾^(٢).

(١) هذه المصطلحات وإن كانت مترادفة بنحو ما، لكنها تختلف عن الخوف وتفرق عنه، وسيأتي وجه

اختلاف مصطلح «الخوف» عن «الخشية» فيما يأتي من بحوث الأستاذ.

وأما اختلاف مصطلح «الخوف» عن «الرغبة» فهو أنه في الرغبة لوحظ استمرار وطول حالة الخوف.

حسن مصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن، الجزء ٣، الصفحة ١٦.

وأما «الرغبة» فهي بمعنى الخوف المصحوب بالاضطراب والحذر من متعلق الخوف. الراغب

الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، الصفحة ٣٦٦.

وأما «الوجل» فبرغم كونه يُستعمل بمعنى الخوف لكنه بمعنى الاضطراب الذي هو لازم الخوف. حسن

مصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن، الجزء ١٣، الصفحة ٤٣.

وأما «الإشفاق» فهو العناية الممتزجة بالخوف لأنه إذا تعدى بـ«من» يكون معنى الخوف فيه أوضح،

وإذا تعدى بـ«في» فمعنى الاعتناء فيه أوضح، والإشفاق - كما يقول الطبرسي - هو الخوف من وقوع

المكروه مع احتمال عدم وقوعه. علي أكبر قرشي، قاموس قرآن، الجزء ٤، الصفحة ٥٧.

(٢) سورة فاطر، الآية ٢٤.



٢٠٩



وفي ضوء هذه الآية نعلم أن من وظائف الأنبياء الأساسية تخويف الناس وإنذارهم، فأما إنذار الأنبياء فإنه يؤثر في الأشخاص الذين يمتلكون الاستعداد الروحي والفطري لتقبل نصح الأنبياء الإلهيين وإنذارهم، فيخافون من جهنم ونار العذاب الإلهي، إلا أن هذا الإنذار لا يؤثر في القلوب القاسية التي زالت منها حالة الخوف الفطرية من الله، كما هو حال كثير من أمم الأنبياء الذين لم يتأثروا بإنذار أنبيائهم، وبدلاً من أن يستمعوا لإنذارهم، أخذوا يسخرون منهم، ومن هنا يحدثنا القرآن الكريم عن فريق من الناس غرقوا في مستنقع الضلال والطغيان فلم يبق أي أمل لهدايتهم ونجاتهم من الهلاك: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ ٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ٩ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ١١﴾.

وفي موضع آخر يُخبرنا سبحانه وتعالى أن الذين لا يؤمنون بالله ولا بالآخرة ليسوا مستعدين لسماع النصيحة والإنذار: ﴿وَإِذَا دُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا دُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ١٢﴾.

وعليه فإن تأثير إنذار الأنبياء في الناس مشروط بوجود حالة الخشية الفطرية لديهم والخوف من الابتلاء والعقوبات، التي يمكن أن يبتلوا بها في الآخرة، وهذا الخوف يدفعهم إلى أن يفكروا ملياً في إنقاذ أنفسهم من العقوبات الأخروية، والنتيجة هي العمل بنصائح وإرشادات الأنبياء الإلهيين

(١) سورة يس، الآيات ٨ - ١١.

(٢) سورة الزمر، الآية ٤٥.



والعلماء الربانيين، وأن يتحملوا مصاعب التنازل عن الرغبات النفسانية والعمل بالتكاليف الإلهية؛ لأنهم يعلمون أن ثمن مخالفة الشيطان وهوى النفس وطاعة الله هو السعادة الأبدية ونيل رضوان الله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ ﴿٥١﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾^(١).

ومن الطبيعي أن تتواجد عوامل مؤثرة أخرى إلى جانب الخوف من الله من قبيل الشوق، والمحبة، والرجاء، لكن الخوف من الله هو العامل الأكثر تأثيراً ويشمل جميع فئات الناس ومراتب الإيمان ومستويات المعرفة.

وكما هو ملاحظ في الآية المتقدمة فإن متعلق الخوف هو الحرمان من لقاء الله والقرب منه، وفي بعض الآيات نجد متعلق الخوف هو العذاب الإلهي وجهنم، فالله يبين لنا حال خاصة عباده الذين جعلوا من بيوتهم مواطن لذكر الله وعبادته ويقضون أوقاتهم في مناجاة معبودهم قائلاً: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٥٢﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾^(٢).

فعالم الآخرة هو عالم ظهور الحقائق الباطنية وتجليها، وقلب الإنسان الذي انشغل في الدنيا باللذائذ والأمور الحسية، يتغير هناك تغيراً جذرياً، وبما أنه لم يصرف نظره عن تلك التعلقات المادية ولم ينل منها سوى الضرر، فلن يكون له في عالم الآخرة القدرة على إدراك الحقائق، والأنوار والتجليات الإلهية، والعين التي انشغلت في الدنيا بالنظر إلى المظاهر المادية والمشاهد المحرمة، سوف تُحرم في ذلك العالم من

(١) سورة النازعات، الآيات ٤٠ - ٤١.

(٢) سورة النور، الآيات ٣٦ - ٣٧.



مشاهدة جمال الجنة وروائع النعم الإلهية، ويخبرنا الله سبحانه عن حوارهِ يوم القيامة مع أحد العصاة حيث يُحشر يوم القيامة أعمى قائلاً: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ۖ﴾ (١٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿١٦﴾.

مفهوم الخوف من الله

السؤال الأساسي الذي يواجهنا دائماً هو أن الإنسان يخاف من الموجودات الخطرة والمخيفة، وبملاحظة أن الله هو مظهر العطف والمحبة والرحمة اللامتناهية، فما هو معنى الخوف من الله؟

والجواب هو: إن متعلق الخوف ومنشؤه إنما هو الخطر الذي يواجهه الإنسان، أو المنفعة التي تُسلب منه أو حرمانه من شيء يحبه، ففي الدرجة الأولى يُنسب الخوف إلى هذه الأمور، لكن بسبب علاقة السببية والمُسببية فإن الشيء الذي يكون سبباً لنشوء الخطر أو سلب المنفعة أو الحرمان يُعدُّ متعلقاً للخوف أيضاً، ومثاله الشخص الذي يخاف من الذئب، فإن خوفه في الحقيقة من الجروح التي يسببها له الذئب والآلام الناتجة عن ذلك، وبما أن مثل هذا الضرر الذي يلحقه ناشئ عن الذئب فإنه يخاف منه، أو الشخص الذي يخاف من الظلام، فإنَّ خوفه في الحقيقة ليس من الظلام نفسه، بل من الخطر الذي يُمكن أن يصيبه في الظلام.

وبملاحظة أن الخوف أحياناً يُنسب إلى سبب الخطر والضرر وسلب النفع، فقد ورد في كلمات الأنبياء وتعاليم الوحي توجيه انتباه الإنسان إلى علّة العلل ومسبب الأسباب، وعلى أساس تلك التعاليم فيما أن



الإنسان يخاف من الذنب الذي هو مسبب للخطر على الإنسان، وبما أن الذنب مخلوق من قبل الله واختياره وتدبيره بيد الله؛ فيجب على الإنسان أن يخاف من الله خالق الذنب ومسبب الأسباب.

وفي مجال السلوك الاختياري والأعمال التي يتم تقييمها أخلاقياً، فإنَّ خوفنا في الواقع هو من أفعالنا القبيحة وسلوكنا الشائن، التي يترتب عليها العذاب الإلهي وفقاً للقوانين التشريعية الإلهية، وخوفنا من الله عَرْضِيٌّ وبواسطة أن الله خَلَقَ جهنم وفقاً لنظامه الحكيم، ليعاقب بها العصاة، وخوفنا من الله من جهة أنه يمتلك السلطة والحاكمة المطلقة في العالم، وعلى أساس النظام السائد في العالم يُعاقب كل من يتجاوز الحدود الإلهية.

وكذلك تعلّق الخوف بالآخرة عَرْضِيٌّ أيضاً، وخوفنا هو - في الحقيقة - من عذاب ذلك اليوم وعقوباته التي يبتلي بها الإنسان، والخوف من الآخرة هو من جهة أن ذلك اليوم هو الطرف الزماني لتلك العقوبات والجزاء.

ومن هنا يبيّن لنا الله سبحانه أن خوفنا منه هو خوف من أعمالنا التي تؤدّي بنا إلى سلب النعم الإلهية أو الابتلاء بالعذاب الإلهي إذ يقول: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(١).

وفي آية أخرى يقول أيضاً: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾^(٢).

(١) سورة الروم، الآية ٤١.

(٢) سورة الشورى، الآية ٣٠.



ولمزيد من إيضاح مفهوم الخوف من الله نقول: في مجال الخوف تتحقّق عدّة عناصر وعوامل: أحدها الخوف نفسه، والثاني الشخص الخائف، والثالث عامل الخوف، والرابع منشأ الخوف ومتعلّقه. ففي حالة التلميذ الذي يخاف الرسوب في الامتحان مثلاً، الشخص الخائف هو التلميذ نفسه الذي نشأ لديه الخوف من الرسوب، وعامل الخوف هو عدم حفظ الدروس والتقصير في الاستعداد للامتحان الذي يوفر الأرضية لنشوء الخوف لديه، ومتعلّق الخوف ومنشؤه هو «الرسوب».

إذاً فالمتعلّق المباشر للخوف - في هذا المثال - هو الرسوب، لكن في المثال المذكور هناك عامل آخر وهو المعلّم الذي يرُسّب التلميذ، ومن هنا فالمعلّم أيضًا يكون متعلّقًا للخوف أيضًا، ولكن تعلّق خوف التلميذ بالمعلّم إنما هو بالواسطة ومن جهة أن المعلّم هو الذي يرُسّبه وإلا فإن شخصًا لا يخاف من المعلّم بما هو معلّم يدرّس التلاميذ، وفي الحقيقة فإنّ خوف التلميذ هو من الرسوب والخوف من المعلّم من جهة أنه هو الذي يرُسّبه.

وفي مورد الخوف من الله أيضًا، عامل الخوف هو ذنب الإنسان، ومتعلّق الخوف هو العذاب والعقوبة المترتبة على ذلك الذنب، ولأن الله هو الموجد للعذاب وفقًا للنظام الحكيم الذي أسسه، فهو متعلّق للخوف أيضًا. إذا ما يخافه الإنسان أولاً وبالذات هو العذاب وعقوبة المعصية، والخوف من الله يكون بالواسطة ومن جهة أنه سبحانه هو الذي قرّر نظام ترتّب العذاب على المعصية.

إذاً فالمتعلّق الأصلي للخوف وما يجب أن يُخاف منه هو العذاب والعقوبة، التي تلحق بالإنسان بواسطة ارتكاب المعصية. كما أنّ المجرم يخاف في الحقيقة من السجن، والسيّاط والعقاب، ومنشأ خوفه هو

الجريمة التي ارتكبتها، ويكون خوفه من حاكم الشرع من جهة أنه منقذ القانون، وإلا فإنه يخاف أولاً وبالذات من العقوبة والجزاء.

وعليه فإن منشأ خوفنا هو الذنوب التي نرتكبها، ومتعلق خوفنا في الحقيقة هو العذاب والعقاب على تلك الذنوب، وتعلق الخوف بالله إنما يكون من جهة أنه يعاقب الذين يخالفون أوامره ويتجاوزون تشريعاته، وفي النظام الذي أقره سبحانه فإن عاقبة الذنوب والمعاصي هي جهنم والعذاب، أو بناءً على قانون تجسّم الأعمال فإن الوضع الذي يكون فيه العصي يوم القيامة إنما هو تجلّ حقيقي للمعاصي التي ارتكبتها في الدنيا؛ لأنه وفقاً للنظام الإلهي فإن الشخص الذي يأخذ سكيناً ويفقأ بها عينيه يصاب بالعمى لا محالة، ولأن هذا النظام مستند إلى الله كما أن جميع الأعمال مستندة إليه سبحانه، فيمكن القول إنّ الله أعماه، لكن المقصّر في هذا الأمر هو الشخص نفسه الذي أخذ السكين وفقاً به عيني نفسه؛ ولذلك يُلام هو على فعلته، وعليه أن يتحمّل خسارة فقدان البصر الذي ألحقه بعينه.

إذاً فالله ليس موجوداً مخيفاً، بل هو جواد، وكريم، ورؤوف رحيم بما لا يتناهى، لكنه وفقاً لنظامه الحكيم فإن كل من لا يعمل بمسؤوليته ويخاف الأوامر الموجهة إليه، ينال العقاب والجزاء، وخوفنا من العقاب الإلهي ومنشأ ذلك هو المعصية التي نرتكبها، وخوفنا من الله من جهة أنه يعاقب العصاة والمذنبين.

وبملاحظة ما قلناه ترتفع شبهة القائلين بأن الله هو مظهر الرأفة والرحمة فلا معنى للخوف منه؛ لأن هذه الشبهة ناشئة من مغالطة الخلط بين ما بالذات وما بالعرض.



المقال الرابع عشر الدور البناء للخوف من الله (٢)

الدور التربوي للخوف من الله

تُخبرنا الآيات القرآنية الكريمة وسيرة الأنبياء والأئمة الأطهار عليهم السلام أن الخوف من الله وخشيته حقيقة لا تُنكر، وحالات البكاء الطويل لأولياء الله تكشف لنا عن خوفهم الحقيقي من الله، فكما أنَّ الإنسان يخاف من نفسه باعتباره عامل الذنب، ويخاف كذلك من العذاب والعقاب المترتب على الذنب، كذلك يخاف من الله الذي خلق جهنم ورتب العذاب والعقاب على المعصية والذنب، ولا يمكن القول إن الخوف من الله بمعنى الخوف من الذات ومن العذاب، بل كما هناك خوف من الذات وخوف من الذنب والعذاب فكذلك هناك خوف من الله، وكل واحد صحيح في موضعه ويمكن توجيهه منطقيًا.

فمع أن دعوة الأنبياء الإلهيين كانت تشتمل على البشارة بالرضوان الإلهي والجنة، كما اشتملت على التخويف من جزاء الذنب ومعصية الله، لكن أشمل الأساليب التربوية التي اتبعتها الأنبياء وأكثرها تأثيرًا هي التخويف من العذاب الإلهي، والخوف من العذاب الإلهي أفضل محرّك





نحو إطاعة الأحكام الإلهية وأشدّها تأثيرًا في هذا المجال وكذلك في مجال التخلص من الغفلة ووساوس الشيطان والتغلّب على هوى النفس.

وقد ثبت من خلال بحوث وأساليب علم النفس، وكذلك من خلال تجاربنا العادية، أن العامل المحرّك للإنسان في أكثر الحالات هو الخوف، ويمكن أن يُقال: إنّه في تسعين بالمئة من الموارد المختلفة يكون الخوف هو الباعث على تنشيط جهود الإنسان، وفي عشرة بالمئة من الموارد تكون أفعالنا ناشئةً عن الوعد بالمكافأة أو جلب المنفعة.

فإن ما يدفع التلاميذ إلى أن يبذلوا جهودًا كبيرة في دراستهم إنما هو الخوف من الفشل والرسوب، ولو لم يخف التلاميذ من الرسوب وعقاب الأب والأم والآخرين وعتابهم لما درسوا.

نعم هناك القليل من التلاميذ لا تكون جهودهم في الدراسة ناشئةً من الخوف، وإنما جهودهم التي يبذلونها في تحصيل العلم والدراسة تكون ناشئةً من حبّ العلم، ومن هنا فلكي يدفع الأبوان ابنهما إلى بذل جهوده في الدراسة نجدهما يقومان بتخويفه من الفشل والرسوب، ومن عواقب عدم اهتمامه بالدراسة.

وفي الأمور المعنوية كذلك، فرغم اعتقادنا أن الله تعالى مضافاً إلى جهنّم، خلق الجنة أيضًا، وأن رحمته اللامتناهية مقدّمةٌ على غضبه كما ورد في الحديث: «يَا مَنْ سَبَقَتْ رَحْمَتُهُ غَضَبُهُ»^(١)، ورغم أن هناك ثلّةً قليلةً من العباد الواصلين إلى أسمى مراتب المعرفة والكمال يختارون الطريق الصحيح والسعادة، ويسعون إلى نيل القرب والرضوان الإلهي؛ فيكون محرّكهم الأساسي هو البشارة برضوان الله وجواره، إلا أن

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ٩٤، الباب ٤٠، الصفحة ٢٣٩، الحديث ٩.



ما يدفع أكثر الناس إلى أداء تكاليفهم وعباداتهم إنما هو الخوف من العقوبة الإلهية، ولو لم يكن هناك خوف من العقوبة، لكان قليلاً منهم فقط سيؤدّون تكاليفهم العبادية رجاءً للثواب الإلهي الذي وُعد به المؤمنون حقاً، ذلك الوعد الذي يحدثنا عنه سبحانه وتعالى قائلاً: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(١).

ومن الطبيعي أنه في بعض الأعمال يكون الأمل بالثواب والمكافئة هو المحرك الوحيد؛ لأنه لا يكون ثمة عقاب على ترك ذلك العمل، وفي هذا العمل يؤثر رجاء الثواب الذي هو مطلوب الإنسان تأثيراً مباشراً في القيام به، كما أن الخوف من الحرمان من الجزاء يكون محركاً غير مباشر للإنسان.

بالنسبة للمؤمنين بالله المعتقدين بالآخرة، يمثل الخوف من مصاعب اليوم الأول في القبر وعذاب جهنم المحرك الأساسي لأداء التكليف، لكن الذين وصلوا إلى أعلى مراتب المعرفة، فإن أكبر مناشئ قلقهم وخشيتهم هو الحرمان من نظر الله إليهم وعنايته بهم، وهذا الحرمان هو عذاب كبير يغفل عنه أغلب الناس، ولا يعلم به إلا الواصلون إلى المعرفة التوحيدية الخالصة؛ إذ هؤلاء يعرفون قيمة جوار المعبود، ويؤمنون بأن الحرمان من الحديث مع المعبود أمرٌ عظيم وثقيل بحيث إن عذاب جهنم لا يعدُّ شيئاً مقارنةً به.

(١) سورة التوبة، الآية ٧٢.



وفيما يرتبط بتأثير مشاهدة النظام الحكيم المهيمن على العالم وعلاقته بنظام التشريع، ودوره في إثارة الخوف من عقوبة مخالفة التكليف الإلهية ومخالفة أحكام الشريعة الإلهية، يقول سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۚ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(١).

فحينما يتأمل الإنسان في مخلوقات الله، وخاصةً إذا كان ذلك في هدوء الليل حيث يكلل السكون والطمأنينة كل مكان، ويرمي نظره إلى السماء الرائعة المليئة بالنجوم المتلألئة، فإنه سيصاب بالذهول لجلال الله وعظمته، وسيفكر في نفسه أن هذا النظام العظيم المليء بالحكمة لا يمكن أن يكون بدون هدف أو مخلوقاً عبثاً، فلا ريب في أن هذا النظام لم يُترك سدى، بل يشتمل على قانون ووراءه هدف. وحينما يتأمل الإنسان في عظمة خلق الظواهر المحيطة به، ويتأمل في نفسه، فإنه سوف يُدعن بهذه الحقيقة، وهي أن النظام الحاكم على الوجود - وسلوكه جزء من هذا النظام - إنما هو نظام حكيم لا مجال فيه للعبث ويقف وراءه هدف.

وعليه فإنه مسؤول في مجال سلوكه التشريعي قبال النظام التشريعي الإلهي، ويتحمل مسؤولية أفعاله، ويستحق العقاب والجزاء إذا ما خالف نظام التشريعات الإلهية وقوانينه، ولم يدخل في إطار المسير الذي رسمه الله لحياته، وأخلَّ بالقوانين الإلهية.



أهمية الخوف من الله وعقوبات الآخرة

٢١٩



تقدّم في البحوث السابقة أن كلام بعض علماء النفس يذم الخوف بنحو مطلق، ويصفه بأنه ذنب كبير، ولكن الحقيقة خلاف ذلك، فإن الخوف في موضعه أمر مهم، وله دور أساسي في حياة الإنسان، ولكن لا ينبغي الإفراط في الخوف، وأن يخاف من كل إنسان ومن جميع الأشياء، بل يعدّ الخوف من غير الله في ضوء التعاليم الدينية أمرًا مذمومًا، ومن هنا فإذا هدّد الأعداء شعبًا من الشعوب بالهجوم العسكري، بل وحتى بضربة نووية، فلا ينبغي لذلك الشعب أن يخاف ويخلي الساحة، بل عليه أن يتوكّل على الله ويصمد في وجه الأعداء، وأن يؤمن بمساعدة الله وإمداداته الغيبية.

وأما الخوف من الله فهو فضيلة كبيرة، ويجب على الإنسان أن يخاف من الله المتعالي حاكم عالم الوجود، الذي بيديه مقدرات الكون كله ولا يجري فيه أدنى أمر إلا بإذنه.

كما عليه أن يخاف إذا خالف أوامر الله وتسبّب في أن ينتهي به الأمر إلى الانحطاط والابتلاء بنار جهنّم.

إن أضرار الدنيا مؤقتة وتنقضي في نهاية المطاف، وهذه الأضرار حدّها الأقصى هو حياة الإنسان الدنيوية؛ إذ تنتهي بنهايتها، وأما عذاب الآخرة فهو أبديّ وخالد، ولا مفرّ للجاني منه.

وعلى هذا فالعقل يحكم على الإنسان بأن لا يقصر فكره على الأخطار والأضرار الدنيوية المؤقتة، بل عليه أن يركّز تفكيره قبل كل شيء على الأخطار الأخروية الأبدية، وأن يسعى للنجاة منها، وأن يحيي في قلبه دائمًا الخوف من الابتلاء بها، كما يجب عليه رعاية الاعتدال في



حالة الخوف من الله والعذاب الإلهي، وألا ينتهي به هذا الخوف إلى حد يجعله في حالة يأس من رحمة الله، فيرى نتيجةً للخوف أن باب التوبة مسدود في وجهه، وأنه لا أمل له بالمغفرة الإلهية.

وإن عامل الخوف من الله والبلاءات يلعب دورًا محوريًا وأساسيًا في قبول دعوة الأنبياء وإيمان الناس بالله، وبدون عامل الخوف والخشية من الله لا يمكن أن تتوفر الأرضية المناسبة لتقبل كلام الأنبياء الإلهيين؛ ومن هنا يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾^(١).

ولو لم يكن الخوف والخشية موجودين في أقوام الأنبياء الإلهيين، لما كان كلام الأنبياء أثر فيهم، بل حتى معجزاتهم ما كانت لتترك أثرًا فيهم، فقد بلغ الأمر بالناس حدًا جعلهم يسخرون من الأنبياء، ويدعون أن معجزاتهم سحر، ويتملصون عن القبول بدعوة رُسل الله بإطلاقهم مثل هذه التهمة ضدهم، والقرآن الكريم يحدثنا عن ذلك قائلًا: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾^(٢).

حقيقة الخشية من الله

الخوف كما تقدّم هو عبارة عن القلق والرغبة من الخسارة والضرر الذي يمكن أن يلحق الإنسان، و«الخشية» هي إحدى أشكال الخوف، وهي بمعنى الخوف من جلال وعظمة المخوف منه المصحوب بالإحساس بالحقارة والصغر.

(١) سورة فاطر، الآية ١٨.

(٢) سورة الحجر، الآيتان ١٤ - ١٥.



يرى البعض أن الخشية أشد من الخوف، وهذه الكلمة مأخوذة من «شجرة الخاشية» بمعنى الشجرة اليابسة التي تكون ميتة بالكلية، أما الخوف فهو بمعنى النقصان، ومأخوذ من «الناقة الخوفاء»، أي الناقة المريضة التي لم تهلك بعد، والخشية تستعمل حينما يكون ما يخافه الإنسان أمرًا عظيمًا^(١).

أما في مورد الله سبحانه فالخشية هي خوف العبد من عظمة الله وجلاله وكبريائه.

ويرى آخرون أن موارد استعمال الخشية تختلف عن موارد الخوف، فالخوف يستعمل في مورد الخطر والضرر، والخشية تستعمل في حالة خسارة الذات، والحقارة، والاستصغار مع الخوف أمام عظمة وجلال شخص آخر، والذي من الممكن أن يكون مصحوبًا بالخوف من الخطر والضرر أيضًا، لكن في القرآن الكريم والروايات استُعمل مصطلح الخوف أحيانًا بدلًا عن الخشية وكذلك مصطلح الخشية بدلًا عن الخوف، ومثاله قوله تعالى: ﴿وَيَسِيحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾^(٢).

ومن الواضح أن «الخيفة» في الآية الكريمة من مشتقات «الخوف» واستعملت بمعنى الخشية؛ لأن العذاب الإلهي لا يلحق بالملائكة كي يخافوه، ولم يُوجَّه إليهم تكليف اختياري كما هو الحال بالنسبة للإنس والجن، لكي يعاقبوا في حالة المخالفة، وطبيعة الملائكة وفطرتهم الوجودية مبنية على عبادة الله والثناء عليه، ولا يمكن أن يتخلفوا عن ذلك أدنى تخلف ولا أن يتجاوزوه. إذا فخوفهم ناشئ من إدراك عظمة

(١) سعيد الخوري الشرتوني، أقرب الموارد، الجزء ١، الصفحة ٢٧٧.

(٢) سورة الرعد، الآية ١٣.



الله وجلاله. ومن الطبيعي أن يُستعمل مصطلحا الخشية والخوف في بعض الآيات بنفس المعنى الاصطلاحي والشائع في الأدبيات الدينية، مثلاً قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ...﴾^(١).

في هذه الآية استعملت «الخشية» بالمعنى الشائع لها؛ لأن الخوف من العذاب الإلهي لا يصدق في مورد الجبل.

حينما يقف الإنسان أمام شخصيّة عظيمة ويتأثر بعظمتها وجلالها، تظهر عنده حالة من الخشية، والانفعال، والانبهار، والصغار. وكلّما كانت عظمة الشخص الذي يواجهه الإنسان أكبر تزداد تلك الحالة لديه، ومثال ذلك حينما يُقابل شخصٌ مراجع التقليد أو قائد الثورة الإسلامية فإنه - ودون أن يشعر بأي خطر ولا خوف منهم - يعتريه إحساس وشعور بالصغر ويقع تحت تأثير شخصيتهم الكبيرة ويكون ذلك الشعور متناسباً مع مستوى معرفته الشخص بهم، فيخضع أمامهم ويجثو على ركبتيه تواضعاً لهم، وهناك لا يستطيع أن يبرز شخصيته أمامهم، بل قد يفقد القدرة على الكلام فيبقى منبهراً صامتاً، وبملاحظة عظمة الإمام المعصوم (عليه السلام) ومكانته التي لا يمكن مقارنتها بمراجع التقليد؛ لأن المراجع يرون أنفسهم تراباً لأقدام المعصومين (عليهم السلام)، إذا نال أحدٌ توفيق لقاء المعصوم (عليه السلام)، فما هي الحالة التي ستعتريه أمام عظمة المعصوم؟ كل هذا ونحن نعلم أن الأئمة المعصومين هم عبادٌ لله ومن مخلوقاته، ولا يمكن مقارنة عظمتهم بعظمة الله ومجده.



٢٢٣



والآن عليكم أن تتصوروا الشخص الذي له معرفة تامة بمكانة الله وعظمته حينما يواجه هذا الموجود المطلق اللامتناهي ذا القدرة المطلقة، وحينما يقف أمام العظمة اللانهائية، فإنه سيشعر حتماً بالخشية والذلة بما يقارب الشعور بالفراغ المطلق.

ومن هنا يحدثنا الله سبحانه عن تجلي عظمته لموسى عليه السلام والحالة التي اعترت موسى قائلًا: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَنِي فَلَمَّا تَخَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ^(١)﴾.

ونحن حينما نطالع سيرة رسول الله ﷺ والأئمة الأطهار عليهم السلام نجدهم يُظهرون أعلى مستويات الخشية حال مناجاتهم الله ويقفون بين يدي عظمته وجلاله، ويبلغ ذلك حدًا يُغشى معه عليهم، وقد وردت روايات كثيرة في هذا المجال منها ما ورد في أحوال الإمام السجاد عليه السلام: «كَانَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام إِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ أَقْشَعَرَ جِلْدُهُ وَاصْفَرَ لَوْنُهُ وَارْتَعَدَ كَالسَّعْفَةِ» ^(٢).

وكذلك ورد في رواية: «أَنَّ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ عليه السلام كَانَ إِذَا تَوَضَّأَ ارْتَعَدَتْ مَفَاصِلُهُ وَاصْفَرَ لَوْنُهُ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ، حَقٌّ عَلَى كُلِّ مَنْ وَقَفَ بَيْنَ يَدَيِ رَبِّ الْعَرْشِ أَنْ يَصْفَرَ لَوْنُهُ وَتَرْتَعَدَ مَفَاصِلُهُ» ^(٣).

(١) سورة الأعراف، الآية ١٤٣.

(٢) المحدث الثوري، مستدرک الوسائل، الجزء ١، الباب ٤٧، الصفحة ٣٥٥، الحديث ٤٢١٣.

(٣) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ٤٣، الباب ١٦، الصفحة ٣٣٩، الحديث ١٣.



ولا ريب أن مثل هذه الحالة من الخشية ليست ناشئةً عن الخوف من المعصية والعذاب الإلهي، وإنما ناشئة عن إدراك عظمة الله وتجلي جلال المعبود في أولئك العظماء الذي نالوا أسمى درجات المعرفة، ومن الطبيعي أن من يمتلك هذه المعرفة السامية حينما يواجه العظمة والجلال الإلهي، تصيبه الرعدة وتغمره حالة الانبهار.

دور الإيمان بتدبير الله وحاكميته المطلقة في الخوف منه وخشيته

لا شك أن تدبير العالم بيد خالق الوجود، وأن نفع وضرر أي موجود إنما هو بيد الله، وأن كل ما يحدث في عالم الدنيا والآخرة يرتبط بإرادة الله ومشئته، وهذا الاعتقاد وهذه الحقيقة تمّ التأكيد عليهما في الكثير من آيات القرآن الكريم، نشير هنا إلى ثلاث آيات منها:

١. ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَّلَاتِ...﴾^(١).

٢. الله سبحانه ينسب حتى إيمان عبده به إليه، فيقول سبحانه أنه بدون إرادتي وإذني لا يمكن لأحد أن يؤمن: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(٢).

٣. ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ عَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾^(٣).

(١) سورة آل عمران، الآية ١٤٥.

(٢) سورة يونس، الآية ١٠٠.

(٣) سورة الفرقان، الآية ٣.



٢٢٥



وطبيعي أن معرفة الناس بالتدبير والحاكمة الإلهية على عالم الوجود وعالم الآخرة تختلف من شخص لآخر، فهناك مَنْ لا يؤمن بالقيامة ولا يعتقد بالعذاب الإلهي والتدبير الرباني في مشهد يوم القيامة، ومن هنا يواجه الأنبياء الإلهيون في بداية دعوتهم هذه العقبة الصعبة وهي أن الناس عادةً لا يؤمنون بالمعاد والقيامة، فينكرون كلامهم حول حياة الإنسان الأخرى بعد الموت، والقيامة، وأحياناً كانوا يتهمون الأنبياء بالجنون فيخاطب أحدهم الآخر متعجباً: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَذُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يَنْبِئُكُمْ إِذَا مَرِقْتُمْ كُلٌّ مِمَّرَقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾^(١).

دور الاهتمام بالحوادث والابتلاءات الطبيعية في الهداية الابتدائية للناس

يواجه الأنبياء في بداية دعوتهم أناساً لا يؤمنون بالآخرة ولا بالمعاد ولا بيوم القيامة؛ ولذا لا يمكن تخويفهم بالعذاب الإلهي في الآخرة؛ إذ إن ذلك لا يؤثر فيهم، فلا يهتدون إلى الدين الحق من هذا الطريق، ولكن بملاحظة أنهم يعتقدون أن الله هو خالق العالم وربما يؤمنون أنه مدبر هذا العالم أيضاً، فيجب حينئذٍ تخويفهم من بلاءات الدنيا ومصائبها التي يبتلي بها الناس بين حين وآخر، وتحذيرهم أنهم إذا لم يؤمنوا بالله ولم يختاروا طريق الهداية فإن الله سينزل عليهم عذابه وبلاءه، كما أنزل العذاب على الأمم السابقة فأهلكهم بذنوبهم، وبهذا فإن طريق الخوف من الله ينشأ في قلوبهم وتلين قلوبهم، وشيئاً فشيئاً يستمعون إلى تحذير وإنذار الأنبياء، ويتقبلون عقائد التوحيد، وفي النهاية يصلون إلى



نتيجة هي أن العالم لم يُخلق جزأً أو عبثاً، وأن الناس يتحملون مسؤولية أعمالهم، وسوف يأتي اليوم الذي يُحاسَبون فيه على كل ما فعلوه.

ودائماً ما تقع حولنا الكثير من الأحداث المؤسفة من أمراض، وكوارث طبيعية مميتة تمثل خطراً على الجميع، وكثيراً ما شاهدنا أشخاصاً في منتهى السلامة والصحة يُصابون بالمرض فجأةً فيقعدهم عن الحركة، أو يموتون فجأة، وبملاحظة هذه الأخطار والابتلاءات التي قد نبتلي بها في أي لحظة وما يقف خلفها من إرادة إلهية ومشئنة ربّانية، فعلى الإنسان أن يخاف من الله بسبب هذه البلاءات والكوارث الطبيعية، وأن تدفعه الأخطار الدنيوية إلى التأمل وتصحيح سلوكه، وتؤدي به إلى أن يترك التمرد والطغيان على الله، ويسير نحو طاعته واتباع أوامره بإخلاص، حتى لو لم يكن يعتقد بالقيامة، ولا يؤثر فيه الخوف من العذاب الإلهي.

نماذج من العذاب الإلهي

أشارت الكثير من الآيات الكريمة إلى الدوافع الدنيوية للخوف من الله، وسعت إلى هداية الناس إلى طريق الله من خلال تذكيرهم بالبلاءات وأنواع العذاب الذي نزل على الأمم السابقة وتخويفهم من مصير مشابه لها.

ففي سورة القلم يهدد الله سبحانه الذي يكذبون رسالة رسول الله ﷺ ويتهمونهم بالجنون، ويعددهم بالعذاب الإلهي قائلاً: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿٧﴾ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴿٨﴾ فَظَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ



﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ (١) أَنْ أَعْدُوا عَلَى حَرِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَرِمِينَ
 ﴿فَانْظَلُّوا وَهُمْ يَخْلَفُونَ﴾ (٢) أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ
 ﴿وَعَدُوا عَلَى حَرِّ قَدِيرِينَ﴾ (٣) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَصَالُونَ ﴿٤﴾ بَلْ نَحْنُ
 مُخْرَمُونَ ﴿٥﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٦﴾ قَالُوا سُبْحَنَ
 رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٧﴾

وقد ورد في تفسير القمي عن الإمام الكاظم عليه السلام في ذيل الآية:
 ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾،
 قوله: «إِنَّ أَهْلَ مَكَّةَ ابْتَلَوْا بِالْجُوعِ كَمَا ابْتَلَى أَصْحَابَ الْجَنَّةِ وَهِيَ الْجَنَّةُ
 الَّتِي كَانَتْ فِي الدُّنْيَا وَكَانَتْ فِي الْيَمَنِ يُقَالُ لَهَا الرِّضْوَانُ عَلَى تِسْعَةِ
 أَمْيَالٍ مِنَ صَنْعَاءِ» (١).

وحادثة هذا البستان كما عن ابن عباس: «أَنَّهُ كَانَ شَيْخٌ كَانَتْ لَهُ
 جَنَّةٌ وَكَانَ لَا يَدْخُلُ بَيْتَهُ ثَمَرَةٌ مِنْهَا وَلَا إِلَى مَنْزِلِهِ حَتَّى يُعْطِيَ كُلَّ ذِي حَقٍّ
 حَقَّهُ، فَلَمَّا قُبِضَ الشَّيْخُ وَوَرِثَهُ بَنُوهُ وَكَانَ لَهُ خَمْسَةٌ مِنَ الْبَنِينَ فَحَمَلَتْ
 جَنَّتُهُمْ فِي تِلْكَ السَّنَةِ الَّتِي هَلَكَ فِيهَا أَبُوهُمْ حَمَلًا لَمْ يَكُنْ حَمَلَتُهُ قَبْلَ
 ذَلِكَ فَرَّاحَ الْفِتْيَةِ إِلَى جَنَّتِهِمْ بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ، فَأَشْرَفُوا عَلَى ثَمَرَةٍ وَرَزَقَ
 فَاضِلٌ لَمْ يُعَايِنُوا مِثْلَهُ فِي حَيَاةِ آبِيهِمْ فَلَمَّا نَظَرُوا إِلَى الْفَضْلِ طَغَوْا وَبَغَوْا
 وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ إِنَّ أَبَانَا كَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ ذَهَبَ عَقْلُهُ وَخَرَفَ
 فَهَلُمُّوا نَتَعَاهَدُ وَنَتَعَاهَدُ فِيمَا بَيْنَنَا أَنْ لَا نُعْطِيَ أَحَدًا مِنْ فَقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ
 فِي عَامِنَا هَذَا شَيْئًا حَتَّى نَسْتَغْنِيَ وَتَكْثُرَ أَمْوَالُنَا ثُمَّ نَسْتَأْنِفُ الصَّنْعَةَ فِيمَا

(١) سورة القلم، الآيات ١٧ - ٢٩.

(٢) علي بن إبراهيم القمي، التفسير، الجزء ٢، الصفحة ٣٨٢.



يَسْتَقْبِلُ مِنَ السَّنِينَ الْمُقْبِلَةِ، فَارْضَى بِذَلِكَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةَ وَخَمْسَةَ الْخَامِسُ وَهُوَ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾.

فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا بَنَ عَبَّاسَ كَانَ أَوْسَطُهُمْ فِي السِّنِّ؟ فَقَالَ: لَا بَلْ كَانَ أَصْغَرَ الْقَوْمِ سِنًا وَكَانَ أَكْبَرَهُمْ عَقْلًا وَأَوْسَطَ الْقَوْمِ خَيْرَ الْقَوْمِ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ فِي الْقُرْآنِ إِنَّكُمْ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ أَصْغَرَ الْأُمَمِ وَخَيْرَ الْأُمَمِ قَالَ اللَّهُ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾.

فَقَالَ لَهُمْ أَوْسَطُهُمْ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا عَلَى مِثْلِهَا أَبْيَكُمْ تَسَلَّمُوا وَتَغَنَّمُوا، فَطَبَّشُوا بِهِ فَضَرَبُوهُ ضَرْبًا مُبْرَحًا، فَلَمَّا أَيْقَنَ الْأَخُ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ قَتْلَهُ دَخَلَ مَعَهُمْ فِي مَشُورَتِهِمْ كَارِهًا لِأَمْرِهِمْ غَيْرَ طَائِعٍ، فَرَاخُوا إِلَى مَنَازِلِهِمْ ثُمَّ حَلَفُوا بِاللَّهِ أَنْ يَصْرِمُوهُ إِذَا أَصْبَحُوا وَلَمْ يَقُولُوا إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَابْتَلَاهُمُ اللَّهُ بِذَلِكَ الذَّنْبِ وَحَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ذَلِكَ الرِّزْقِ الَّذِي كَانُوا أَشْرَفُوا عَلَيْهِ، فَأَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي الْكِتَابِ فَقَالَ: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ - إِلَى قَوْلِهِ - فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾، قَالَ: كَالْمَحْتَرَقِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا بَنَ عَبَّاسَ مَا الصَّرِيمُ؟ قَالَ: اللَّيْلُ الْمُظْلِمُ، ثُمَّ قَالَ: لَا ضَوْءَ لَهُ وَلَا نُورَ، فَلَمَّا أَصْبَحَ الْقَوْمُ (تَنَادَوْا مُصْبِحِينَ أَنْ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ)، قَالَ: (فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ) قَالَ الرَّجُلُ: وَمَا التَّخَافَتُ يَا بَنَ عَبَّاسَ؟ قَالَ: يَتَسَارَوْنَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا لِكَيْ لَا يَسْمَعَ أَحَدٌ غَيْرَهُمْ فَقَالُوا: (لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مُسْكِينٌ وَغَدُوا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ)، وَفِي أَنْفُسِهِمْ أَنْ يَصْرِمُوها وَلَا يَعْلَمُونَ مَا قَدْ حَلَّ بِهِمْ مِنْ سَطَوَاتِ اللَّهِ وَنَقَمَتِهِ، (فَلَمَّا رَأَوْهَا) وَعَايَنُوا مَا قَدْ حَلَّ بِهِمْ (قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ) فَحَرَمَهُمُ اللَّهُ ذَلِكَ الرِّزْقَ بِذَنْبِ كَانٍ مِنْهُمْ وَلَمْ يَظْلَمَهُمْ شَيْئًا فَقَالَ أَوْسَطُهُمْ: (أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ) قَالُوا سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ (قَالَ: يَلُومُونَ أَنْفُسَهُمْ فِيمَا عَزَمُوا عَلَيْهِ، (قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ



عسى ربنا أن يبدلنا خيراً إنّا إلى ربنا راغبون)، فقال الله: ﴿كَذَلِكَ
الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾...^(١).

ربما قبل بضعة سنين كان يصعب علينا تصوّر أن مزرعة كبيرة
تحترق فجأةً بنفسها وتصبح حطامًا، لكن سهولة التواصل في هذه الأيام
وما يصلنا كل يوم من أخبار عن الحوادث والكوارث الطبيعية في العالم
وحرائق الغابات الناشئة عن الجفاف والبرق وما ينشأ عنها من احتراق
آلاف الهكتارات وتحوّل مزارع حقول بعض الناس إلى رماد، سهّل علينا
التصديق أن البلدان التي تعيش حالة الرفاهية، وتمتلك الغابات والأراضي
الخصبة العامرة، إذا انشغلت بأنفسها ونسيت الله، وانغمست في الفساد
والطغيان في الأرض، فمن الممكن أن يرسل الله عليهم البلاء والنار التي
تجعل حقولهم خرابًا ورمادًا.

المؤمن والخوف من الزلزل والابتلاء بالعذاب الإلهي

من الواضح أنه حتى الذين لا يؤمنون بالقيامة، فإنهم يشعرون بالقلق
خشية فقدانهم الإمكانيات والنعم المادية التي يتمتعون بها، فهم يخافون
من الله بسبب المخاطر الدنيوية من قبيل الزلازل، والحروب، والجفاف،
وسائر الحوادث والكوارث الطبيعية، وكذلك يخافون أن يفقدوا ماء
وجوههم في المجتمع أو أن يصبحوا أذلاء في أعين الناس، لأن ماء الوجه
عند الإنسان المحترم الذي له عزة نفس وكرامة قد يكون أهم وأعلى من
الثروة والمال، وبملاحظة اعتقاد هؤلاء بالتدبير الإلهي لأمر الدنيا، فإنهم
يخافون أن يُذلهم الله ويذهب بماء وجوههم، لكن الذين يؤمنون بالآخرة

(١) علي بن إبراهيم القمي، التفسير، الجزء ٢، الصفحتان ٣٨١ - ٣٨٢.



ويوم القيامة، يكون دافعهم للخوف من الله أشد وأقوى، فهؤلاء يخافون الابتلاء بالعذاب الأبدي في الآخرة. ولا ريب أن هذا الخوف أشد وأقوى من الخوف من الحرمان من النعم الدنيوية المحدودة.

وحتى الذين يعيشون حالة سلامة النفس، وما يزال سلوكهم صحيحاً وحسنًا، ويسعون في طاعة الله، فإن القلق يراودهم من الزلل في المستقبل ومن الابتلاء بسوء العاقبة؛ لأن الإنسان وإن كان مؤمنًا صالحًا، بيد أنه لا يستطيع ضمان أعماله في المستقبل، ولا أن يتيقن من أنه لن ينخدع في المستقبل بحيل الشيطان ومكائده. فهناك الكثير من الناس الذين كانوا على مراتب عالية من الكمال والعلم، لكن في النهاية كانت عاقبتهم سيئةً ورحلوا عن هذه الدنيا بوجه أسود نتيجةً لانحطاطهم وانحرافهم عن مسير الله سبحانه.

ومن النماذج التي ذكرها القرآن الكريم بلعم بن باعوراء، الذي كان يتصف بالكمال والعلم الكثير، حتى أنه ورد في بعض الروايات^(١) أنه كان يعلم الاسم الأعظم، لكنه اتبع الهوى والشهوات، وتعلق بالذات المادية، وتظاهر بالعداوة لنبي الله موسى عليه السلام، لذلك سلب الله منه تلك الفضائل المعنوية، وابتلاه بالضلالة الأبدية وعذاب جهنم، قال سبحانه وتعالى في هذه القصة: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَآنَسَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

(١) المصدر نفسه، الجزء ١، الصفحة ٢٤٨.

(٢) سورة الأعراف، الايتان ١٧٥ - ١٧٦.



٢٣١



حينما يوقن الإنسان بأنه ليس في مقدور أحد أن يكون في مأمّن من وساوس الشيطان، بل حتى بعض أبناء الأنبياء والأئمة وقعوا في فخ الشيطان، واستطاع الشيطان أن يغويهم ويفسدهم، فإنه سيقلق على عاقبة نفسه، ويخاف من احتمال الزلل والانحراف عن مسير الحقّ والابتلاء بالعذاب الإلهي والحرمان من نعيم الآخرة، فالإنسان المؤمن والمتّق حتى لو اطمأن إلى أنه لن يبتلي بالعذاب الإلهي، إلا أنه سيخاف بشدّة من الحرمان من نعيم الجنّة، والأسمى من ذلك الحرمان من التفات الله ورحمته، وفقدان ماء الوجه أمام الله.

إن أولياء الله الذين يؤمنون بمالكية الله وتدبيره لكل عالم الوجود، ويعلمون أن الإرادة والمشيئة الإلهية جارية في جميع شؤون العالم، يعيشون حالة خشية دائمة من الغضب الإلهي، ودائمًا يكون خوفًا من عذاب الحرمان من عناية الله ورعايته.

هذا هو حال هؤلاء العباد المصطفّين الأطهار الذين لا يخطون خطوةً واحدةً إلا في مسير عبودية الله، وقد أمضوا كل لحظات عمرهم في سبيل الله وإشاعة التعاليم الإلهية ونشر الإيمان بين عباد الله، ومع ذلك يخافون من عذاب الله ويبكون وينوحون من خشيته، فكيف ينبغي أن يكون حالنا نحن الذين تلوثنا بالذنوب التي وُعِدَ من يفعلها بالعذاب؟ فإذا تأملنا جيّدًا في معنى سلوك العبد أمام خالقه الذي منحه وجوده وكل ما يملك، ومع ذلك يعصيه ويخالف أوامره، ألا يُعَدُّ ذلك الشخص عاصيًا ومتمرّدًا؟ ومن الطبيعي أن الإنسان المؤمن بعبودية الله يغفل هذه المسألة حال المعصية ولا يلتفت إلى ما ينبغي عليه فعله، غير أنّه لو كان منتهبًا حال إقدامه على المعصية، وملفتًا إلى أن القيام بالعمل الذي حرّمه الله ومنعه فهو حينئذٍ بمثابة تجاهل أوامر الله والتخلّف



عن عبوديته، فإنه سوف يتجلى في ناظره قبح ذلك العمل، وفيما لو لم يتلوّث قلبه وروحه بالمعصية والفساد بشكل تام، فإنه يتذكر ويتراجع عن ارتكاب المعصية.

فالإنسان حتى مع فرض كونه مالكاً لقدرته ولأعضائه من العين واللسان وسائر الجوارح تُعدُّ مخالفته أوامر الله قبيحةً جدًّا. فما هو الحال فيما لو كان يعلم أن جميع الوجود لله، والعبد العاصي إنما عصى بالعين التي منح الله إياه وبالأذن واللسان اللذان أعطى الله إياه، فتمردّ بهذه الأعضاء على أوامر مالكه، أفلا ينبغي عليه أن يشعر بالخجل الدائم أمام الله وأن لا يرفع رأسه أبدًا؟.

لكن مع الأسف، فالانشغال بأمور الدنيا يجعل الإنسان في حالة الغفلة.

إنَّ شهر رمضان المبارك وخاصّةً أسحاره حيث يكون الإنسان مرتاح البال من الانشغالات والابتلاءات اليومية يمثل فضاءً ومجالاً هادئاً يستطيع الإنسان فيه التفرّغ للدعاء والمناجاة وعبادة الله، وهذه فرصة قيّمة لتوجّه الإنسان إلى ذاته وسلوكه غير اللائق، وهذا الشهر فرصة مناسبة للتفكير في عواقب المعاصي التي تُعدُّ محاربةً لله وإن لم يلتفت الإنسان إلى ذلك، والتركيز على آثار المعاصي وقبحها والالتفات إلى أن المعصية هي إعلان حرب مع الله، تثير في الإنسان شعوراً بالخجل إلى درجة تجعله يتمنّى لو يغور في الأرض، وكذلك يبعث على الخوف من عذاب الله.

ومع كل ما مر، يجب على الإنسان أن يحذر من أن يؤدّي هذا الخوف إلى اليأس من الرحمة الإلهية؛ لأن اليأس من الرحمة الإلهية يعدّ بنفسه ذنباً كبيراً، وعلى الإنسان أن لا يفقد أمله بالله على أي حال، وأن يؤمن بأنه يستطيع أن ينال عناية الله وأن يبدأ بإصلاح نفسه بمعونة الله، فيمكنه بذلك تعويض الخسائر التي لحقته نتيجة سلوكه القبيح.



المقال الخامس عشر بحث في رحمة الله اللامتناهية

الالتفات إلى الرحمة والمغفرة الإلهية، علاج مسكن لقلب
المؤمن



يُثير الالتفات إلى المعاصي في الإنسان الخوف من العذاب الإلهي، لكن بما أن الفرصة متوفرة للإنسان لتدارك سلوكه القبيح، فإنه يستطيع بالتوكل على الله وتوفيقه ورجاء الرحمة الإلهية اللامتناهية أن يبدأ بتدارك سلوكه القبيح وغير اللائق، وأن يتوقف عن السير في طريق الشيطان، وأن يمزق حبال الفخاخ التي ينصبها له، وأن يبدأ السير في طريق السمو والكمال وأن يطوي طريق الهداية الإلهية. وإنه كما وَرَدَ في أدعية ومناجاة أئمتنا المعصومين إظهار الخوف والندم، فكذلك وَرَدَ بشكل واضح وجلي التأكيد على الأمل والرجاء بالرحمة والعفو الإلهي اللامتناهي، وفي هذا المجال نجد الإمام السجاد عليه السلام في مطلع مناجاة الخائفين يتكلم بشكل يثير مشاعر الرحمة في المخاطب والمستمع، ولكن بما أنه لا يتصور في الله سبحانه وتعالى تغيير الحالات، فإن مثل هذا الكلام في الواقع باعث على تلقي المزيد من الرحمة الإلهية.

يقول عليه السلام في الفقرة الأولى من مناجاة الخائفين:



«إِلَهِي أَتْرَاكَ بَعْدَ الْإِيمَانِ بِكَ تُعَذِّبُنِي،
أَمْ بَعْدَ حُبِّي إِيَّاكَ تُبْعِدُنِي، أَمْ مَعَ رَجَائِي
لِرَحْمَتِكَ وَصَفْحِكَ تَحْرِمُنِي، أَمْ مَعَ
اسْتِجَارَتِي بِعَفْوِكَ تُسْلِمُنِي، حَاشَا
لِوَجْهِكَ الْكَرِيمِ أَنْ تُخَيِّبَنِي».

وهذه الفقرة تدلّ على أن الخوف من العذاب الإلهي جعل المتكلم في حالة اضطراب وتأثر شديد، وهو يسعى إلى إيجاد حالة من التوازن في خوفه العذاب الإلهي؛ لأنه إذا غلب الخوف على قلب الإنسان واتّجه نحو الإفراط، فإنه يتحوّل إلى عامل يأس من رحمة الله، فيجب لذا على الإنسان أن يحافظ على توازن الخوف وأن يسيطر عليه مثل سائر الحالات الأخرى، وإلى جانب الخوف من الله وعذابه، أن لا يغفل عن الرحمة والمغفرة الإلهية، وفي هذه الصورة يؤدّي الخوف من الله المصحوب بالأمل برحمته، إلى التحرك والنشاط وتصحيح السلوك وبدء السير في طريق السموّ وبناء الذات.

وهذه الطريقة في مناجاة الله وإظهار الخوف من العذاب الإلهي إلى جنب الرجاء بالرحمة والمغفرة الإلهية مشهودة أيضاً في سائر الأدعية والمناجيات، وكمثال على ذلك ما وردَ في دعاء أبي حمزة الثمالي حيث يوضح الإمام السّجّاد أن الاستفادة من الرحمة الإلهية في مقام مناجاته تؤدّي إلى تسكين القلب من الخوف، يقول (عليه السلام): «يَا مَوْلَايَ بِذِكْرِكَ عَاشَ قَلْبِي، وَبِمُنَاجَاةِكَ بَرَدْتُ أَلَمْ الْخَوْفِ عَنِّي»^(١).

(١) مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة الثمالي.



٢٣٥



وحينما يُشعل الخوف وجود الإنسان، يسعى الإنسان فطرياً إلى تسكينه، وفي النتيجة يسعى نحو الشخص الذي أوجد ذلك الخوف فيه، ويحاول استعطافه واسترحامه بكلام رقيق.

افرضوا أن ولدًا قَصُرَ في حقِّ أبيه، أو صديقًا في حقِّ صديقه، فهو في مقام الاعتذار عن التقصير الصادر عنه يبدأ بالاعتراف بتقصيره، ثم يذكر الإحسان الصادر منه لأبيه أو صديقه من أجل أن يحنَّ قلبه ويزيل الكدر والغضب منه.

وهكذا حال العبد العاصي الذي يرى العذاب والجزاء الإلهي أمامه، يبدأ كلامه بلسان الاسترحام، ويذكر الأفعال الخيرة الصالحة التي صدرت منه من أجل أن يجلب محبة الله ويمهّد الأرضية لتلقّي الرحمة الإلهية.

ولا ريب أن أهم ميزات الإنسان وأعلى سلوكياته قيمةً إنما هو الإيمان بالله، وقد وَرَدَت آيات وروايات كثيرة في الثناء عليه، والمؤمن المتّصف به له من العظمة والمكانة بحيث يقول الإمام الصادق (عليه السلام): «المؤمنُ أعظمُ حُرمةً من الكعبة»^(١).

وبالالتفات إلى القيمة الكبيرة لثروة الإيمان عند الله، يذكر الإمام (عليه السلام) وهو في مقام مناجاة المعبود بإيمانه الذي هو أشرف وأعزّ خصلة وسلوك يمتلكه الإنسان أمام الله، ويقول كيف يا ربّي تعذب من آمن بك؟

وإحدى ثمرات الإيمان والمعرفة بالله هي محبّته، ومن يمتلك معرفةً بالساحة الربوبية، ويرى أن وجوده كله ملك لله ويؤمن أن جميع

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ٦٨، الباب ١٥، الصفحة ١٦، الحديث ٢٠.



النعم المادية والمعنوية إنما هي مواهب إلهية، يسعى بكل ما يملك من وجود إلى أن يعشق معبوده ومالك وجوده، ويعمل بأوامر محبوبه ومعشوقه، كي يستجلب عن هذا الطريق محبة معبوده ويلفت نظره إليه؛ لأن البعد عن ساحة قرب المعبود يُعدُّ بلاءً عظيمًا يدخل الرعب في قلوب العارفين بالحق والمحبين له سبحانه، وهو بلاءٌ شديدٌ على من ذاق حلاوة القرب من الحق وعرف محبته، بل هو عند هؤلاء أشدَّ قسوةً من العذاب الإلهي، وحتىَّ أشدَّ من الحرمان من الجنة.

ومن هنا، وبملاحظة أنه ﷺ يعلم مرارة عذاب البعد عن المحبوب، يقول يا إلهي كيف تُبعد من أحبك، يا إلهي أنا الذي عقدت الأمل على رحمتك وعفوك كيف تحرمني.

ومن مكارم الأخلاق أن شخصًا إذا كان يرجو آخر فلا ينبغي لذلك الآخر أن يخيب رجاءه حتى لو لم يكن مستحقًا للمساعدة والعون.

وكيف يمكن لله وهو مصدر الكرم والعظمة أن يحرم من رحمته قلوب من انعقدت آمالهم عليه وتعلقت أعينهم بلطفه وفضله، ويأملون أن يعفو عنهم فكيف يخيب رجاءهم، حتى وإن كانوا غير مستحقين للرحمة الإلهية؟!

كل من يواجه خطرًا من قبيل العدو أو الحيوان المفترس فإنه يسعى إلى ملجأ أو مكان آمن يتحصن به للتخلص من الخطر فيشعر بالأمان والطمأنينة هناك، ولا شك أن أخطر أعداء الإنسان الذي يخرب آخرته إنما هي المعاصي والسيطان، ومن أجل الخلاص من شرِّ هذا العدو الخطير يجب على الإنسان اللجوء إلى الله وبحر عفوه، الله هو الكريم والعظيم الذي لو لجأ إليه عدوه وطلب منه العفو نادمًا وأن ينجيه من شرِّ الشيطان والمعاصي وجهنم، فإنه يعطيه الأمان ويشمله بعفوه،



فكيف يمكن أن لا يعطي الأمان لمحبه، وكيف لا يخلصه من شر الخطايا والمعاصي والشیطان الذي يسعى بوساوسه أن يحرفه عن طريق الحق؟!

قلق أولياء الله من عاقبة أمورهم

ثم تستمر المناجاة وبيّن فيها ﷺ حالة وإحساس الشخص الذي لجأ إلى الله في غاية الشقاء والخجل، ولا يعلم أن عاقبته أ تكون إلى الخير والسعادة، أم الشقاء والتعاسة والحرمان من الرحمة الإلهية، كحال المجرم الذي دُعي إلى المحاكمة ولا يعلم أن حكمه هل هو الإعدام، أم العفو، وفي بيان ذلك يقول ﷺ:

«لَيْتَ شَعْرِي، أَلِلْشَّقَاءِ وَلَدَثْنِي أُمِّي
أُمٌ لِلْعَنَاءِ رَبَّتْنِي، فَلَيْتَهَا لَمْ تَلِدْنِي وَلَمْ
تُرَبِّنِي، وَلَيْتَنِي عَلِمْتُ أَمِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ
جَعَلْتَنِي، وَبِقُرْبِكَ وَجَوَارِكَ خَصَصْتَنِي،
فَتَقَرَّ بِذَلِكَ عَيْنِي، وَتَطْمَئِنَّ لَهُ نَفْسِي».

«الشقاء» بمعنى التعاسة والحرمان من الشيء الذي يكون سبباً للكمال واللذة، و«العناء» بمعنى التعب والمشقة. وجملة «ليت شعري» تستعمل في مقام الحيرة من الحادث المجهول، وتحكي عن أن العبد يرى نفسه في حالة الخوف والرجاء، وفي نفس الوقت هي قلق من العاقبة التي يجهلها.

ومن هنا فإنه ﷺ يُظهر في كلامه القلق الكثير تجاه العاقبة؛ ولذا فإن أكثر ما يلقي بظلاله على قلوب المتقين وعشاق الله هو الخوف من



سوء العاقبة والشقاء، وهذا الخوف يجعل قلوبهم في حالة من الحيرة والاضطراب، ويجعلهم يفكرون دائماً في أنهم في علم الله الأزلي من زمرة السعداء أم في زمرة الأشقياء.

وبالرغم من أنه يبدو أن جميع الناس يسعون وراء السعادة، وطلب السعادة أمرٌ بديهي، لكن من جهة تختلف المدارس الفكرية في رؤيتها للسعادة والشقاء، ومن هنا فكل إنسان يسعى وراء السعادة ويهرب من الشقاء بحسب الفكرة التي يحملها عنهما والرؤية الكونية الخاصة التي يؤمن بها تجاههما، ولأن الإنسان موجود مختار، فإنه أحياناً يختار طريق الهداية نتيجةً لحسن اختياره، فيصل إلى السعادة، وأحياناً أخرى يختار طريق الضلالة بسوء اختياره. وعليه فإن الأشخاص ذوي البصيرة يخافون دائماً من الشقاء والتعاسة، ويطلبون من الله عبر الدعاء والتضرّع أن يبعدهم عن الشقاء، وأن يهديهم إلى الوصول إلى السعادة الأبدية، والمؤمن طالبٌ للسعادة يرى نفسه دائماً بين الخوف والرجاء، وهاتين الصفتين تمهّدان السبيل نوعاً ما أمام الإنسان لينال السعادة.

ولهذا السبب يقول العارف الكبير المرحوم ملكي التبريزي في ارتباط الخوف والرجاء بالسعادة: «وما هي السعادة التي تعادل عند المؤمن لقاء الله والأنس به، وهذا لا يحصل إلا بالمحبة، وتحصيل محبة الله لا يمكن إلا بعد المعرفة، والمعرفة لا تحصل إلا بدوام الفكر، ودوام الفكر لا يحصل غالباً إلا بذكر الله، والذكر والفكر لا يتيسران إلا بالابتعاد عن المشاغل الدنيوية وقطع الأنس بالشهوات والرغبات النفسانية، وهو ما لا يحصل إلا بقلع محبة الدنيا والآمال الدنيوية من القلب، وقلع جذور



حبّ الدنيا وشهواتها لا يتأتّى إلا بالصبر في مواجهتها، والصبر لا يتحقّق إلا بالخوف والرجاء»^(١).

أدب حوار أولياء الله مع معبودهم

النقطة اللطيفة التي تبين نهاية الأدب في مقام الدعاء والمناجاة هي نسبة الشقاء إلى العبد نفسه، مع أنه يمكن نسبة شقاء العبد إلى الله أيضاً؛ لأن العاقبة ناشئة عن إرادته ومشيئته أيضاً، كما أن سعادة الإنسان تنتسب إلى الله وناشئة عن إرادته ومشيئته.

وقد نسبت آيات من القرآن الكريم ضلالة بعض العباد وشقاءهم كما نسبت سعادة آخرين إلى الله سبحانه، من قبيل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾^(٢).

وهذا الأدب نفسه التزم به نبي الله إبراهيم عليه السلام في كلامه، ومع أن المرض والشفاء كلاهما بيد الله، لكنه عليه السلام نسب المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله قائلاً كما حكى الله عنه: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾^(٣).

(١) ميرزا جواد الملكي التبريزي، أسرار الصلاة، الصفحة ١٩٩.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٧٩.

(٣) سورة الشعراء، الآية ٨٠.



«إِلَهِي، هَلْ تُسَوِّدُ وُجُوهًا خَرَّتْ سَاجِدَةً
لِعَظَمَتِكَ، أَوْ تُخْرِشُ أَلْسِنَةً نَطَقَتْ بِالشَّعَاءِ
عَلَى مَجْدِكَ وَجَلَالَتِكَ، أَوْ تَطْبَعُ عَلَى
قُلُوبٍ انْطَوَتْ عَلَى مَحَبَّتِكَ، أَوْ تُصِمُّ
أَسْمَاعًا تَلَذَّذَتْ بِسِمَاعِ ذِكْرِكَ فِي إِرَادَتِكَ،
أَوْ تَغْلُ أَكْفًا رَفَعَتْهَا الْأَمَالُ إِلَيْكَ رَجَاءَ
رَأْفَتِكَ، أَوْ تُعَاقِبُ أَبْدَانًا عَمِلَتْ بِطَاعَتِكَ
حَتَّى نَحَلْتَ فِي مُجَاهَدَتِكَ، أَوْ تُعَذِّبُ
أَرْجُلًا سَعَتْ فِي عِبَادَتِكَ. إِلَهِي، لَا تُغْلِقْ
عَلَى مُوَحِّدِكَ أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَلَا تَحْجُبْ
مُشْتَاقِيكَ عَنِ النَّظَرِ إِلَى جَمِيلِ رُؤْيَتِكَ».

جُمِلَ هذه الفقرة التي وردت في إطار استفهام استنكاري، وناشئة من ألم باطني، تحكي حالة الرجاء بالرفقة والرحمة الإلهية، الرجاء المتوقّد دائماً في قلب المؤمن ولا يُطفئه نقص العلم ولا يقلل من توقّده.

يقول أمير المؤمنين في المناجاة الشعبانية: «إِلَهِي إِنْ كَانَ صَغَرَ فِي جَنْبِ طَاعَتِكَ عَمَلِي، فَقَدْ كَبُرَ فِي جَنْبِ رَجَائِكَ أَمَلِي».

والإمام السجاد عليه السلام يؤكّد في هذه الفقرة من المناجاة على أنه يسعى بجميع أعضائه وجوارحه إلى السير في طريق عبودية الله، ولا شيء منها إلا وهو منتفع من طاعة الله؛ لأن المؤمن يرى أن أعضائه كلّها هي من النعم الإلهية، ويؤمن أن المواهب والنعم الإلهية يجب استعمالها



في الطريق الذي يرتضيه سبحانه، ويجب أن لا تُستعمل في المعصية وما لا يُرضي الله سبحانه، وكما أن الإنسان لا يقرب يده من النار، لأنه يعلم أنها ستحترق، كذلك على المؤمن أن لا يلوث يده بالمعاصي لأنه يعلم أن المعصية نارٌ تحرق روح الإنسان وتدمرها.

إن الشكر هو من آداب العبودية، وشكر نعمة الأعضاء والجوارح هو بأن تُستعمل في مسير طاعة الله وعبادته، ولا ريب في أن أولياء الله كانوا قادةً للمؤمنين والسالكين في هذا المجال، والنموذج البارز لذلك سيّد الساجدين عليه السلام، حيث أتعب جسده الشريف وجعل أعضائه في عناء ومشقة في سبيل عبادة الله وأطال السجود له ومن هنا يقول: «يَا إِلَهِي لَوْ بَكَيْتُ إِلَيْكَ حَتَّى تَسْقُطَ أَشْفَارُ عَيْنَيَّ، وَانْتَحَبْتُ حَتَّى يَنْقَطَعَ صَوْتِي، وَقُمْتُ لَكَ حَتَّى تَتَنَشَّرَ قَدَمَايَ، وَرَكَعْتُ لَكَ حَتَّى يَنْخَلِيعَ صُلْبِي، وَسَجَدْتُ لَكَ حَتَّى تَتَفَقَّأَ حَدَقَتَايَ، وَأَكَلْتُ تُرَابَ الْأَرْضِ طُولَ عُمْرِي، وَشَرَبْتُ مَاءَ الرَّمَادِ آخِرَ دَهْرِي، وَذَكَرْتُكَ فِي خِلَالِ ذَلِكَ حَتَّى يَكُلَّ لِسَانِي، ثُمَّ لَمْ أَرْفَعْ طَرْفِي إِلَى آفَاقِ السَّمَاءِ اسْتَحْيَاءً مِنْكَ مَا اسْتَوْجَبْتُ بِذَلِكَ مَحْوَ سَيِّئَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ سَيِّئَاتِي»^(١).

وهو عليه السلام يتحدث أيضًا عن فتح أبواب رحمة الله بوجه الموحدين والساعين وراء الرحمة الإلهية الواسعة، وهو بذلك يحيي الرجاء في قلوب العباد بالرحمة الإلهية الواسعة؛ لأن هذا الرجاء يبعث على حيوية الإنسان ونشاطه، ويوفر له فرصة تدارك التقصير السابق، ويدعوه إلى بذل الجهود من أجل الوصول إلى السمو والكمال.



وحينما يكون الإنسان باحثاً عن السعادة والكمال، سوف يؤمن دائماً بأن أبواب الرحمة الإلهية التي تسهل له الكمال والسعادة مفتوحة على الدوام في وجهه، ويسعى إلى تجاوز العقبات والعوامل المعرقة، وإلى أن يتوب من الذنوب التي تعيق الوصول إلى الكمال والسعادة، وإلى أن يمهّد السبيل نحو الوصول إلى السعادة والكمال.

يقول الأصمعي: كنت أطوف حول الكعبة ليلة، فإذا شاب ظريف الشمائل وعليه ذؤابتان، متعلّق بأستار الكعبة وهو يقول: «نَامَتِ الْعُيُونُ، وَعَلَتِ النُّجُومُ وَأَنْتَ الْمَلِكُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، غَلَقَتِ الْمُلُوكُ أَبْوَابَهَا، وَأَقَامَتِ عَلَيْهَا حُرَّاسَهَا، وَبَابُكَ مَفْتُوحٌ لِلسَّائِلِينَ، حِثُّكَ لِنَظَرِ إِلَيَّ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ»^(١).

الإمام زين العابدين عليه السلام - كما في الفقرة السابقة - يطلب من الله أن يُشاهد جماله، وفي بيان ذلك يستعمل كلمة «مشتاقيق»، أي الذين يشتاقون إلى وصال المعشوق، وهذا الشوق جعلهم يعيشون حالة من عدم الاستقرار بسبب فراق الحق تعالى، ودفعهم إلى إبراز الحُرقة والتألم من هذا الحال، ولا ريب أن المقصود من «رؤية الله» ومشاهدته ليست هي الرؤية الحسية، فالله سبحانه ليس جسمًا ولا مادّيًا حتى تمكن رؤيته بالعين، ولذا وَرَدَ في تفسير قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾^(٢)، قول رسول الله ﷺ: «يَنْظُرُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمْ بِلَا كَيْفِيَّةٍ وَلَا حَدٍّ مَحْدُودٍ وَلَا صِفَةٍ مَعْلُومَةٍ»^(٣).

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ٤٦، الباب ٥، الصفحة ٨٠، الحديث ٧٥.

(٢) سورة القيامة، الآيتان ٢٢-٢٣.

(٣) محمد حسين الطباطبائي، الميزان، الجزء ٢٠، الصفحة ١١٧.



٢٤٣



إِذَا فَاَلْمَقْصُودُ مِنْ مَشَاهِدَةِ اللَّهِ الْمَشَاهِدَةُ بِعَيْنِ الْقَلْبِ وَالشُّهُودِ
وَالْمَعْرِفَةِ الْحُضُورِيَةِ بِصِفَاتِ جَلَالِهِ وَجَمَالِهِ، وَهَذِهِ الْمَعْرِفَةُ وَالشُّهُودُ إِنَّمَا
تَحْصُلُ حِينَمَا تَزُولُ الْحُجُبُ الْمَادِّيَّةُ وَالتَّعَلُّقَاتُ الدُّنْيَوِيَّةُ، وَيَتَحَقَّقُ الصَّفَاءُ
الْكَامِلُ وَالنُّوَارِنِيَّةُ وَالرُّوحَانِيَّةُ الْخَالِصَةُ لِلرُّوحِ.

وَفِيمَا يَرْتَبِطُ بِهَذِهِ الرُّؤْيَا الْمَعْنَوِيَّةِ وَرَدَّ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عليه السلام أَنْ
شَخْصًا جَاءَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالَ لَهُ: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ
حِينَ عَبَدْتَهُ؟ قَالَ: فَقَالَ: وَيْلَكَ مَا كُنْتُ أَعْبُدُ رَبًّا لَمْ أَرَهُ. قَالَ: وَكَيْفَ رَأَيْتَهُ؟
قَالَ: وَيْلَكَ لَا تُدْرِكُهُ الْعُيُونُ فِي مُشَاهَدَةِ الْأَبْصَارِ وَلَكِنْ رَأَتْهُ الْقُلُوبُ
بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ»^(١).

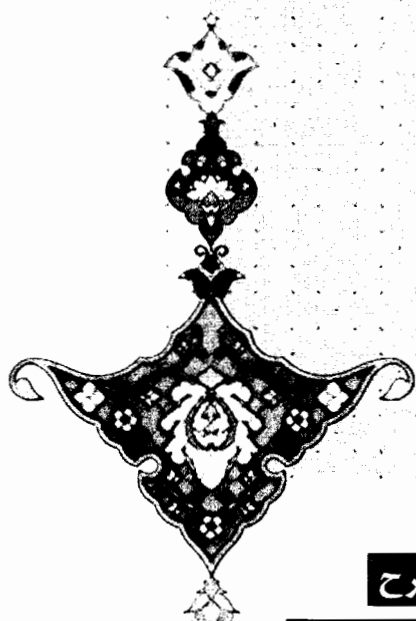
وَفِي نَهَايَةِ هَذِهِ الْمَنَاجَاةِ يَقُولُ الْإِمَامُ السَّجَّادُ عليه السلام:

«إِلَهِي نَفْسٌ أَعَزَّزْتُهَا بِتَوْحِيدِكَ كَيْفَ
تُذِلُّهَا بِمَهَانَةِ هِجْرَانِكَ، وَصَمِيرٌ انْعَقَدَ
عَلَى مَوَدَّتِكَ، كَيْفَ تُحْرِقُهُ بِحَرَارَةِ
نِيرَانِكَ. إِلَهِي، أَجْزَنِي مِنْ أَلِيمِ غَضَبِكَ
وَعَظِيمِ سَخَطِكَ، يَا حَنَّانُ يَا مَنَّانُ، يَا
رَحِيمُ يَا رَحْمَنُ، يَا جَبَّارُ يَا قَهَّارُ، يَا غَفَّارُ
يَا سَتَّارُ، نَجِّنِي بِرَحْمَتِكَ مِنْ عَذَابِ النَّارِ
وَفَضِيحَةِ الْعَارِ، إِذَا امْتَنَزَ الْأَخْيَارُ مِنَ
الْأَشْرَارِ، وَحَالَتِ الْأَحْوَالُ وَهَالَتِ الْأَهْوَالُ،

(١) محمد بن يعقوب الكليني، أصول الكافي، الجزء ١، الصفحة ٩٨، الحديث ٦.

وَقَرَّبَ الْمُحْسِنُونَ وَبَعَدَ الْمُسِيءُونَ،
وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا
يُظْلَمُونَ».





شرح

مناجاة الراجين



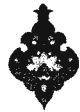
المقال السادس عشر حقيقة رجاء الله ودوره البناء

مفهوم الرجاء ومكانته بملاحظة نظام الأسباب والمسببات

مناجاة الراجين هي المناجاة الرابعة من المناجيات الخمس عشرة التي يصور لنا فيها الإمام السجاد عليه السلام رجاء الله ورحمته اللامتناهية، ولا ريب في أن الأشخاص الذين تُثقل الذنوب كواهلهم ويملاً صدورهم الندم والخوف من العذاب الإلهي، عليهم أن يقرأوا هذه المناجاة الشريفة بتدبر ليعود إليهم الرجاء بالرحمة والمغفرة الإلهية، ويشرعوا بالسعي لتدارك تقصيرهم وما صدر عنهم من ذنوب، مستنيرين بنور الأمل بالله، ثم ينطلقوا في مسير السمو والكمال.

«الرجاء» يعني انتظار حصول الخير^(١). وحينما يظن الإنسان أنه سينال في المستقبل نعمةً ينتفع بها، فسوف يشعر بشعور طيب، ويعيش حالةً جيّدة، وتسمّى هذه الحالة بـ «الرجاء» و«الأمل».

(١) حسن مصطفى، التحقيق في كلمات القرآن، الجزء ٤، الصفحة ٨٤.



وثمة في الرجاء - كما في الخوف - ميزتان، إحداهما: الالتفات إلى المستقبل، ومن هنا فهو لا يتعلّق بالماضي، والثانية: أن المنشأ الأصلي للرجاء هو اللذة الحاصلة للإنسان، ويُنسب بالعرض إلى الأشياء الأخرى. ومثال ذلك حينما يتّجه الإنسان نحو شخص ويرجو أن يعطيه هذه النعمة، أو يتّجه إلى زمان ومكان يُستفاد فيهما من تلك النعمة، في هذه الصورة يمكن نسبة رجائه إلى ذلك الزمان والمكان أو ذلك الشخص أيضاً، لكن المتعلّق الأصلي والمنشأ الأول لظهور هذه الحالة في النفس هي ذلك التلذذ والاستفادة التي تتحقّق للإنسان، يعني علّة ذلك هو أمر باطني يرتبط بالإنسان نفسه^(١).

الإنسان يُحبّ بالفطرة كل ما هو خيرٌ ومطلوب وباعث على كماله، والنتيجة هي أنه يسعى إلى نيله، وهذه العلاقة والحبّ يُثيران فيه رجاء الخير والكمال، والله سبحانه يخبرنا عن هذا الميل الفطري قائلاً: ﴿وَأَنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾^(٢).

في ضوء هذه الآية الشريفة فإن حبّ الخير هو أمرٌ فطري، غايته يختلف الناس في معرفة وتشخيص مصاديق الخير، ومن الطبيعي أنه ينبغي تبين حقيقة الخير ومصاديقه في موضعه، وهنا يتركّز بحثنا في الرجاء، ولا مجال للتعرّض إلى تلك المسألة، لكن نقول باختصار شديد: إن

(١) محمد تقي مصباح اليزدي، اخلاق در قرآن [الأخلاق في القرآن]، الجزء ١، الصفحة ٣٩٩.

(٢) سورة العاديات، الآية ٨. بملاحظة سياق آيات هذه السورة يرى المفسرون أنّ كلمة «الخير» يُراد منها في هذه الآية المال، والنتيجة هي أنهم فهموا من الآية معنىً سلبياً لهذه الميزة في الإنسان، ولا يستبعد العلامة الطباطبائي أن يكون المراد من «الخير» في الآية «المال»، ولكنه لا يحصره بالمال فقط، بل يذهب إلى معنى مطلق الخير، يقول رحمه الله: «ولا يبعد أن يكون المراد بالخير مطلقه ويكون المراد أن حبّ الخير فطري للإنسان، ثم إنه يرى عرض الدنيا وزينتها خيراً فتجذب إليه نفسه وينسبه ذلك ربه أن يشكره»، العلامة الطباطبائي، الميزان، الجزء ٢٠، الصفحة ١٩٦.



الإنسان وإن كان يطلب الخير، لكن نيل الخير مشروط بشروط بعضها لا يقع ضمن دائرة قدرته، ولا يتحقق ما لم تتوفر أسباب وظروف ذلك في إطار نظام الأسباب والمسببات وبترتيب خاص.

وبتعبير آخر: حينما نتحقق جميع العوامل والأسباب المؤثرة في المعلول، فإن العلة التامة تكون قد تحققت، ولا ريب حينئذٍ من تحقق المعلول، بيد أننا هنا نواجه مسألتين، الأولى: ما هي الأسباب التي يجب أن تتحقق كي يتحقق المعلول أيضاً، وما هي حصة كل واحد من الأسباب ودوره في تحقق المعلول، وما هي العلاقة المنطقية والواقعية بين تحقق كل واحد من الأسباب ومجموعها مع تحقق معلولنا ومطلبنا؟ المسألة الثانية: ما هو تصوّرنا للأسباب الدخيلة في تحقق المعلول ونسبة تأثير كل واحد منها؟ فإذا افترضنا مئة عامل تؤثر بشكل متساوٍ في تحقق المعلول، فبتحقق هذه العوامل المئة التي تكون نسبة تأثير كل واحد منها واحداً في المئة تتحقق العلة التامة، ويكون نتيجة ذلك تحقق المعلول.

لكن أحياناً لا نتصور بشكل صحيح مجموعة الأسباب المؤثرة في تحقق المعلول وترتيب حصة كل واحد منها، وأحياناً يكون السبب أو العامل لم يتحقق بعدُ ولكننا نتصور أنه تحقق، أو بالعكس نتصور أن عاملاً ما لم يتحقق لكنّه تحقق في الواقع. وفي هذه الحالة بما أن نظامنا الذهني وفهمنا للعوامل والأسباب الدخيلة في تحقق المعلول تختلف عن الأسباب والعوامل الواقعية والعلاقة المنطقية بينها وبين المعلول، فنحن نقع في الخطأ، وإذا كان لنا أملٌ في تحقق معلولٍ بناءً على نظامنا الفكري والاحتمالات النفسية التي ترسم في أذهاننا، بينما لم تتوفر أسباب تحقيقه في الواقع، فحينئذٍ يكون هذا أملاً كاذباً.



تارةً يعلم الإنسان بدقّة الأسباب والعوامل الدخيلة في مطلوبه، ويعلم كذلك حصّة ونسبة كل واحد من العوامل في تحقّق المطلوب والمعلول، وعلى أساس هذا النظام الواقعي والمنطقي يحتمل أن الأسباب قد تحقّقت، ففي هذه الحالة يكون احتمالها صادقاً ومنطقيّاً، لكن إذا احتمل دون أن يمتلك معرفةً للأسباب والعوامل ودرجة تأثير كل واحد منها، فإن ذلك الاحتمال يكون نفسياً، وربما يكون كاذباً، من قبيل الإنسان الذي يقطع بشيء، لكنّ قطعه يكون كاذباً، ولا يعدو كونه جهلاً مركّباً في الواقع.

مكانة الرحمة الإلهية والشفاعة في القوانين الإلهية الحكيمة

لا شكّ في أنّنا نسعى وراء الرحمة والمغفرة الإلهيّة ونطلب الوصول إلى الرضوان الإلهي، لكن هذه الأمور لا تتحقّق دون سبب، فالله سبحانه لا يشمل برحمته شخصاً عبثاً ودون سبب، ولا أنه يحرم آخر كذلك. الله سبحانه حكيمٌ وأفعاله صادرة عن حكمة، ولا يمكن أن يشمل برحمته شخصاً دون سبب، أو يغفر لشخصٍ دون ضوابط، وحتىّ أنه سبحانه وتعالى لا يقبل شفاعة أولياء الله للمذنبين بشكل مطلق ودون ضوابط.

وعلى أي حال فإن جميع الأمور في النظام التكويني والتشريعي الإلهي تجري ضمن ضوابط دقيقة وحكيمة، غاية الأمر أنّنا أحياناً نجهل التقدير الإلهي. نحن في ضوء معرفتنا بالله وصفاته والوعد الذي قطعه على نفسه، نعلم شروط وعوامل تحقّق بعض الأمور، مثلاً الشخص الذي لم يرتكب ذنباً طوال حياته، وكان دائماً يسير في طريق طاعة الله، فنحن نعلم [بحسب الظاهر] أنه يذهب إلى الجنّة، وعكسه الشخص الذي لم يعبد الله طوال حياته ولم يفعل خيراً مطلقاً، ولم يكن مؤمناً بالله، وكان دائم العداوة لأولياء الله، فنحن نعلم أنه يذهب إلى جهنّم. إذاً فلدخول



الناس إلى الجنة شروط وأسباب، وكذلك ذهابهم إلى جهنم، وأفعال الله ليست عبثاً وجزافاً، ولا يقع فيها خطأ بمقدار حبة خردل مطلقاً.

يتوهم البعض أن الشفاعة تكون بلا ضوابط، وأن رسول الله ﷺ والسيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام)، وسائر أئمتنا المعصومين (عليهم السلام) يشفعون للناس بدون قانون وضابطة، فينقذونهم من جهنم ويأخذون بأيديهم إلى الجنة هكذا ومن دون حساب، لكن الشفاعة إنما تشمل الأشخاص الذين يدخلون في دائرة محبي رسول الله ﷺ وسائر المعصومين وأولياء الله ويموتون على الإيمان.

ويمكن أن يكون الشخص مؤمناً ويُعَدُّ من المؤمنين، لكنه في النهاية يُبتلى بسوء العاقبة ويخرج من الدنيا على غير الإيمان.

ومن الممكن أن يتصور الشخص نفسه مؤمناً، لكن إيمانه ليس حقيقياً واقعياً، وحتى لو كان إيمانه حقيقياً واقعياً فليس من المعلوم أن يرافقه إلى لحظة الموت، وأن يوصله إيمانه إلى المنزل المقصود. وحتى الشخص الذي يرحل عن الدنيا مؤمناً ويستحق الشفاعة، من الممكن أن ينال العقاب في عالم البرزخ بسبب ما ارتكبه من ذنوب، وكذلك يوم القيامة من الممكن أن يُمضي مواقف صعبة في جهنم فيكابد فيها عذاباً إلهياً قد يستمر سنوات طويلة ثم بعد ذلك تشمله الشفاعة فينجو من العقاب الذي استحقه بسبب ذنوبه.

والحاصل: إن المذنب المؤمن والذي يستقر على إيمانه حتى الموت، يكون مؤهلاً للشفاعة، ومن الممكن أن تناله الشفاعة، لكن حينما يكون فاقداً للإيمان، ولم تكن عقائده وأخلاقه وسلوكه مرضية عند الله، فإن أرضية الشفاعة لا تتوفر لديه، ولن تنفعه حتى شفاعة أنبياء الله والملائكة المقربين والأئمة المعصومين، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ



مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى^(١).

التمييز بين الرجاء الصادق والرجاء الكاذب

إذا كان الشخص يمتلك الإيمان الصادق، ويسعى إلى أن يحافظ على إيمانه حتى لحظة مفارقة الحياة، وكان في الوقت نفسه يرجو الشفاعة، فإن رجاءه هذا يعدُّ صادقاً ويرتضيه العقل؛ لأنَّ لديه رجاءً بالشفاعة مع فرض تحقق أسبابها وشروطها، لكن إذا لم يكن مؤمناً بالله وبأوامره من أعماق قلبه، ولم يحقق في نفسه أسباب وعوامل استحقاق الشفاعة، ومع ذلك كان لديه رجاء بالشفاعة، فإن هذا الرجاء كاذبٌ. وحتى لو كان حقاً راجياً للشفاعة، ويحتمل احتمالاً قوياً أنه سينال الشفاعة، فإن احتمالاً هذا لا يعدو كونه نفسياً وغير منطقي.

افترضوا أن فلاناً كان يسعى إلى أن ينال محصولاً جيّداً في فصل الحصاد، هذا الفلاح إذا حرث أرضه في الوقت المناسب، ونثر البذور في الأرض، وسقاها في الوقت الملائم للسقي، فإنه حينئذٍ يمكنه أن يرجو أن يحصد محصولاً جيّداً من تلك الأرض التي تعب فيها؛ لأنه بجهوده وبما قام به من عمل مع القابلية التي أودعها الله في الأرض وتوفير البذور والماء والجو، هذه العوامل كلّها تقوّي احتمال الحصول على المحصول الجيّد، وفي مقابل ذلك يكون احتمال عدم المحصول الجيّد ناشئاً من احتمال ضعيف وهو وقوع الكوارث غير المتوقعة كالسيول أو الآفات الزراعية التي لم يكن يتوقعها، ولا يهتم أحدٌ عادةً بمثل هذا الاحتمال.



لكن إذا لم يحرث الفلاح أرضه في الوقت المناسب، ولم ينثر فيها البذور، ولم يسقها، فإنه لا يمكنه أن يرجو الحصول على أي محصولٍ منها، وإذا كان لديه مثل هذا الرجاء، فإنه رجاء غير عقلائي ولا منطقي، ولا يعدو كونه خيالاً وسراباً.

والأمر كذلك في الأمور المعنوية، فعلى الإنسان أن يهيئ الظروف والأرضية المناسبة، وحينئذٍ يرجو أن يصل إلى الدرجات المعنوية العالية. ونحن جميعاً نتوق إلى النعم المعنوية ولذات الجنة، وأكبر ما نرجوه هو أن ندخل الجنة والتمتع بلذاتها ونعيمها الذي يصفه الله سبحانه وتعالى قائلاً:

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ...﴾^(١).

الجنة منزلة في غاية الرفعة لأهل الجنة، ويبلغ من يستحق الجنة درجةً من الرفعة والعزة وهو يقترب منها بحيث تستقبله ملائكة الله بكل إجلال وتقدير، يقول القرآن الكريم: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾^(٢).

وهذه الجنة ونعيمها الخالد التي تكون منتهى اللذة للمؤمنين وطالبي السعادة، وفيها جاذبية لا توصف، لا تُعدُّ شيئاً مقابل الرضوان الإلهي الذي أُعِدَّ لأحباب الله والمتقين وأولئك الذين نالوا مثل هذه

(١) سورة محمد، الآية ١٥.

(٢) سورة الزمر، الآية ٧٣.



المرتبة العظيمة بطاعتهم لأوامر الله، ومن هنا يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(١).

ثمن نيل الرضوان والجنة

هذه الجنة والرضوان الإلهي يكونان ثمنًا للسير في مسير السمو وترك اتباع هوى النفس، واتباع الأوامر الإلهية والعبودية لله، وليس الأمر أنه ينالها كل من هبَّ ودبَّ جزافًا ودون شروط. فإذا احتمل شخص أو كان يرجو أن ينال الجنة دون أي شروط ودون اتباع الأوامر الإلهية ومحاربة الشيطان الباطني والخارجي، فإن احتمالاه ورجاءه هذا لا قيمة له، وحاله حال الفلاح الذي لم يحرق أرضه ولم يبذرهما ولم يسقها الماء، ومع ذلك كان يرجو أن يحصل منها على محصول! فلا ريب أن مثل هذا الأمل خيال عبثي وجاهل.

أحيانًا حينما يجهل الإنسان كرم الله ولطفه اللانهائي ويتجاهل توفير أسباب وشروط الرجاء بالرحمة الإلهية، فلن يكون عنده أمل بالرحمة الإلهية. وهو لم يصل إلى حقيقة أن حسابات الآخرة تختلف عن حسابات الدنيا، وأن سوق الآخرة ليس مثل سوق الدنيا الذي ينال فيه الإنسان أجره بقدر ما يبذله من جهود لا أكثر، فالأجر الأخروي أكبر بكثير من العمل نفسه، ولا يمكن مقارنته بالعمل مطلقًا، يقول الله سبحانه في بيان الجزاء



الأخروي للعمل الصالح وعقاب العمل القبيح: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(١).

وفي آية أخرى تبين أن أجر الإنفاق في سبيل الله هو سبعمئة مرة، بل أكثر من ذلك، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(٢).

إن من يتوهم أن الجزاء الأخروي نظير الجزاء الدنيوي، وأن جزاء الآخرة مثل جزاء الدنيا حيث يكون فيها الأجر بمقدار الجهد المبذول، فهو لم يعرف الله وكرمه ورحمته اللامتناهية، ولو علم مقدار لطف الله بعبده وإكرامه له، وكَم من جزاء عظيم يعطيه مقابل عمل ضئيل نعجز عن تصوّره، فإن رجاءه بالله سيزداد.

وفي مقابل ذلك إذا تصوّر البعض أن الله يعطي الأجر جزافاً وبلا شروط، وأنه يعفو عن جميع العُصاة والمذنبين، وأن كل من غرق في المعصية ولم يُطع الله طوال عمره يمكنه أن يرجو الحصول على الجنة والرضوان الإلهي، فإنهم جاهلون بالله وغضبه، ولم يعرفوا ربوبيته التشريعية وحكمته وعدالته. ولو كان الجميع - بما فيهم الكفار الذين أمضوا أعمارهم بالمعصية والتمرد على الله - يدخلون الجنة، لما كان الله ليخلق جهنم، ولما أكد قائلاً: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾^(٣).

(١) سورة الأنعام، الآية ١٦٠.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٦١.

(٣) سورة هود، الآية ١١٩.



إذا ارتكب شخصٌ معصيةً وكان يعلم أن الله وقرَّ إمكانية تدارك المعاصي مهما كانت ثقيلةً وكثيرةً، وأنه ما دام حيًّا قادرٌ على الاختيار، ثم تاب توبةً واقعيةً وندم على سلوكه القبيح وقرَّر ألا يعود إلى ارتكاب المعصية، فإن رجاءه وأمله بعفو الله صادق؛ لأن الإنسان حينما يتوب توبةً صحيحةً، يكون قد وقرَّ لنفسه أسباب المغفرة، والله سوف يتدارك له جميع ذنوبه ويشمله بمغفرته، لكن إذا كان الشخص جاهلاً بأسباب وشروط الانتفاع برحمة الله، ولا يتوب رغم كون التوبة ممكنةً له، ومع ذلك يرجو الرحمة الإلهية فإن رجاءه هذا كاذبٌ كما تقدّم.

وهذا الشخص إنما يمكنه أن يكون له رجاء برحمة الله إذا علم الأسباب والشروط التي يشمل فيها الله سبحانه الإنسان برحمته، وإذا ندم الشخص من فعله القبيح وتاب، فعليه أن يشمّر عن ساعديه لتدارك حقوق الله وحقوق الناس التي ضيعها، فعليه مثلاً أن يبدأ بقضاء الصلوات التي فاتته، وأن يؤدّي الحقوق المالية التي في رقبته.

وإذا لم يكن الإنسان قادرًا على توفير أسباب الاستفادة من الرحمة الإلهية وشروطها، أو كان أسيرًا لهوى النفس بحيث لا يمكنه التوقّف عن ارتكاب المعاصي وتدارك الأعمال القبيحة التي صدرت منه، أو صار طاعناً في السن فلا يمكنه قضاء ما فاتته من واجبات، أو كان فقيرًا مُعَدِّمًا لا يملك شيئًا من المال يمكنه به أداء حقوقه المالية، فحتى مع ذلك لا ينبغي له اليأس من رحمة الله، فمثل هذا الشخص إذا كان مهتمًّا بمصيره وقلقًا على عاقبته، وكان نادمًا حقًّا، يمكنه أن يطلب من الله سبحانه بالدعاء والتوسّل أن يساعده للتغلّب على هوى نفسه، وأن يشملته برحمته الواسعة، وإذا لم تكن سائر الشروط والأسباب متوفرةً فإن الدعاء



والتوسّل بالله هما وسيلة وسبب لنيل رحمة الله، وببركة الدعاء والتوسّل يمكن للإنسان أن يرجو رحمة الله سبحانه.

حينما يُصاب الإنسان بالمرض يجب عليه مراجعة الطبيب وأن يستعمل الدواء الذي يصفه له، وأن يمضي جميع مراحل العلاج، حينئذٍ يحقّ له أن يرجو تحسّن صحّته والشفاء من المرض، لكن لو قصّر في هذا الأمر ولم يراجع الطبيب ولم يهتمّ بالعلاج، فلا يمكن أن يكون له أمل في التحسّن والشفاء. فعليه أن يبدأ بالعلاج وأن يستفيد من الأسباب الظاهرية، وفي نفس الوقت يرجو أن يحدّد الطبيب سبب مرضه وآلامه بالنحو الصحيح، وألا يخطأ في وصف العلاج له.

نعم إذا كان المريض فقيراً لا يملك ثمن العلاج، أو كانت هناك مشاكل أخرى تعيق العلاج لا يستطيع المريض تجاوزها، فلا ينبغي له اليأس، بل عليه أن يسلك طريق الدعاء والتوسّل وأن يطلب من الله أن يَمُنَّ عليه بالشفاء.

وكذلك الحال في المسائل الاجتماعية والسياسية، فمن أجل الوصول إلى الهدف يجب استثمار الأسباب والظروف، ومجرّد الأمل لا يكفي لتحقيق الأهداف، لكن لو لم تتوفّر بعض الأسباب والظروف الضرورية فلا ينبغي اليأس، بل يجب الرجاء بالله، والحركة في مسير تحقيق الأهداف بالاستعانة بالإيمان والاعتماد على الله.

ولا ريب أنه بالرغم من عدم توفّر الأسباب الظاهرية الكافية، فإن الله سبحانه لا ينسى عباده وإعانتهم للوصول إلى أهدافهم، كما كان الحال في فترة الدفاع المقدّس؛ فبالرغم من أنّ جميع قوى الاستكبار العالمي ودول المنطقة كانت تدعم النظام البعثي، فقد تصدّى لهم جنود الإسلام المخلصون الأبطال مع عدم امتلاكهم التسليح والتجهيز الضروري،



لكنهم حملوا أرواحهم على الأكف دفاعًا عن دينهم وثورتهم، وكانت قلوبهم مليئةً بالإيمان بالله والرجاء بمساندته وإمداداته الغيبية، وقد نصرهم الله ولم يخذلهم.

فحينما يُهاجمُ الأعداءُ الجمهوريةَ الإسلامية ويهدّدون الدين والأرض، فيجب حينئذٍ على كل من يستطيع القتال أن يدافع عن أرضه ودينه، وأن يوفّر الإمكانات اللازمة لمقاومة العدو ومحاربتة، ولكنهم إذا جلسوا في بيوتهم واكتفوا بالدعاء والطلب من الله أن يقضي على الأعداء فَمِنَ المُسلم أنهم كانوا سيخسرون، وأن العدو كان سينتصر عليهم؛ لأن الله نفسه أمر المسلمين بالجهاد وقتال الأعداء، وقد خاطب الله المسلمين في كتابه قائلاً: ﴿أَنفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١).

وفي آية أخرى يدعو سبحانه المسلمين إلى الشدّة في قتال العدو: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٢).

نعم إذا قاتل الجنديّ العدو بكل ما أُوتي من قوّة وسقط من الإعياء أو انتهت ذخيرته في معمرة الحرب، فلا ينبغي له اليأس بل يجب عليه رجاء معونة الله أو الطلب منه تعالى المدد والمساعدة بالدعاء والتوسّل، وإذا ما رأى الله سبحانه المصلحة في نصره - رغم عدم توفّر الأسباب والظروف الظاهرية - فإنه ينصره حتمًا.

(١) سورة التوبة، الآية ٤١.

(٢) سورة التوبة، الآية ١٢٣.



وطوال تاريخ الإسلام - ومنها فترة الدفاع المقدس طبعًا - حدثت الكثير من المعاجز، ورغم أن المؤمنين لم يكونوا يمتلكون الإمكانيات الضرورية للتصدّي للعدو، لكن الله نصرهم على عدوهم.

وخلاصة القول هي: إنما يمكن للإنسان أن يكون له رجاء صادق بالمطلوب فيما لو عرف أسبابه وشروطه اللازمة، مثلاً حينما يرجو رحمة الله، عليه أن يعرف شروط وأسباب نيل الرحمة الإلهية، وأن يعلم أيًا من تلك الأسباب متوفرة لديه وأيها منها خارج عن يده، ومن ذلك أن يلتفت إلى أن دعاءه هو أحد أسباب الوصول إلى السعادة والرحمة الإلهية.

ومن هنا فإن الشخص ذو الأمل الصادق هو الذي يستفيد من هذه الأسباب والظروف، لكن إذا لم يستفد الشخص من الأسباب والظروف وفي نفس الوقت كان عنده رجاء برحمة الله، فإن رجاءه كاذب وما هو إلا خادع لنفسه، ولن يصل إلى مقصوده أبدًا.

طبعًا يجب على الإنسان أن يقوّي أمله ورجاءه بالله؛ لأن الإنسان إذا لم يمتلك إيمانًا قويًا فإنه ستضعف ثقته بالله حين مجابهة المصاعب والبلايا ومواجهة الامتحانات الصعبة، فكثير من الناس حينما يبتلون بموت عزيز لهم أو يصارعون مرضًا صعبًا لمدة طويلة يصابون بالعجز واليأس ويفقدون صبرهم وقدرتهم على التحمل.

تحدّث الشيخ عباس الطهراني (رحمه الله) - الذي كان يدرّس الأخلاق صباح كل جمعة في المدرسة الحجتية - في أحد دروسه عن صعوبة تحمّل المشاكل والمصاعب قائلاً: أنا كنت أتصوّر أنّي قادرٌ على تحمّل المصاعب والمشاكل، إلى أن ابتليت في أحد الأيام بألم شديد في البطن نتيجةً لقرحة المعدة، وقرّرت تحمّل الألم، لكن لم يمض وقت طويل حتى ازدادت شدة الألم، وأصبح تحمّله صعبًا عليّ، فبدأت



التوسّل بالله، لكن الألم لم يهدأ، وكان يزداد شدّةً مع مرور الوقت، إلى أن انتصف الليل وأنا لم أترك دعاءً أعرفه إلا وتلوته ولا توسّلاً إلا لجأت إليه، لكن الألم لم يسكن، حتّى ضاقت الدنيا بعيني فقلتُ: «ألا يوجد من يلبّني ندائي؟»، وحينما شعرت بهذا الضعف في نفسي بحيث لم أستطع الحفاظ على إيماني مقابل ألم المعدة، فجأةً هدأ الألم وكأن شيئاً لم يكن، وعلمت أن الله سبحانه بواسطة هذا الألم أراد أن ينبّهني إلى أن الإنسان ضعيف جدّاً بحيث لا يمكنه الحفاظ على إيمانه في مقابل حتّى مثل هذا الألم.



المقال السابع عشر

النظام البناء والتأثير الواسع للخوف والرجاء في المؤمن

سنّة الاستدراج عاقبة للاستكبار والتمرد على الله

يلعب عامل الخوف والرجاء دوراً بناءً ومؤثراً في جميع الأعمال الاختيارية الدنيوية والأخروية، والإنسان إنما يقوم بأعماله الاختيارية العقلانية بأمل الوصول إلى الخير والنفع، أو خوفاً من الضرر والخطر.



إن المؤمنين بالله يسعون بمقدار معرفتهم بالتوحيد وبخاصّة التوحيد الأفعالي إلى أن يكون رجاؤهم وخوفهم ذا جهة إلهية، وهؤلاء يقومون بمختلف الأعمال رجاءً في أن يجازيهم الله على فعل الخير بثوابه جزائه الجزيل وأن يغفر لهم ذنوبهم وأن لا يحرمهم من توفيقه، كذلك يقومون بأعمالٍ خوفاً من الابتلاء بغضب الله والحرمان من النعم في الدنيا والابتلاء بالعذاب في الآخرة.

ومن الطبيعي أن الواصلين إلى مراتب عالية من الإيمان والقرب الإلهي يخشون أكثر ما يخشون الحرمان من لقاء الله وجواره.

وإن أحد الموارد التي يجب أن يخشاها الإنسان بشدّة هي سنّة الاستدراج الإلهي، وهي أن الله تعالى يفسح المجال للكفّار والعصاة



المصريين على المعصية ومن لا تؤثر فيهم الهداية والموعظة ليزدادوا طغياناً وعصياناً، وتكون عاقبتهم الابتلاء بالعذاب الأبدي. وعلى أساس هذه السنّة الإلهية أحياناً يحصل العصاة والمذنبون على النعم الظاهرية والمال الكثير ويزداد ما يملكونه باستمرار، وربما تصوّروا أن هذه الإمكانيات والرفاهية التي يتمتّعون بها، والراحة واللذة إنما هي جزاء لهم لاستحقاقهم كل هذه النعمة، بينما يريد الله بذلك أن يُغرّقهم في الذنوب والغفلة، وأن يزيد من ثقل ذنوبهم كي يكون مصيرهم العذاب الشديد المُهين.

وتوضيح ذلك هو أنه حينما يغفل عباد الله عن قيمة النعم الإلهية التي بين أيديهم ولا يشكرونها، فإنهم يبتلون في هذه الدنيا ويكون ذلك البلاء بهدف تنبيههم وإيقاظهم، ومن هنا يقول سبحانه في آية من القرآن الكريم إننا حينما نُرسل رسلاً إلى أمة فإننا نبتليهم بأنواع الابتلاء والمصاعب لعلهم يسلكون طريق التوبة والتضرّع إلى الله، يقول سبحانه في الآية الأولى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبُأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾^(١).

ويقول سبحانه في الآية الثانية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبُأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾^(٢).

لكن بعض الناس لم يدركوا حكمة المصاعب والابتلاءات، وجرّاء قساوة قلوبهم سلكوا طريق الانحراف والضلال، ولم يتنبّهوا ويستيقظوا من غفلتهم، ولا أنهم تضرّعوا إلى الله واتّبّعوا رسله، وحينما لا ينفع معهم

(١) سورة الأنعام، الآية ٤٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٩٤.



٢٦٣



العقاب الإلهي التنبيهي، ويبقون على حالهم من الغفلة والتمرد على الحق، فإن الله سبحانه يُجري عليهم سنة الإمهال والاستدراج، وعلى إثر هذه السنة الإلهية تبدأ نعمتهم وأموالهم بالزيادة شيئاً فشيئاً، ويغرقون في نعيم الدنيا الظاهري وتتوفر لهم وسائل الرفاهية والمُتعة بحيث يظنون أنهم مُصانون من العذاب الإلهي، ويقولون في أنفسهم لو كان وعد الأنبياء حقاً لكان قد نزل العذاب علينا، لا أننا نغرق في كل هذا النعيم.

ومن هنا يخبرنا الله عن هذه القسوة والتمرد على الحق ونتيجة سنة الاستدراج الإلهية قائلاً: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

وفي آية أخرى يبيّن سبحانه أن الفرصة التي تُعطى للكفار ليست لمصلحتهم، بل ليزدادوا إثماً حتى يبتلوا بعذاب شديد: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلُّ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِلُّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٤٥﴾﴾.

وكذلك ورد في آيات أخرى قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿٤٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٤٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿٤٨﴾﴾.

(١) سورة الأنعام، الآيتان ٤٣ - ٤٤.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٧٨.

(٣) سورة آل عمران، الآيات ١٩٦ - ١٩٨.



ضرورة التوازن بين الخوف والرجاء عند المؤمن

على أي حال فالإنسان وبغض النظر عن السعادة والنعيم الدنيوي والإمكانات التي تتوفر له، يجب عليه أن يقلق على أمر آخرته وأن يخشى من عدم مغفرة ذنوبه والابتلاء بعذاب الآخرة، وإذا لاحظ أنه على الرغم من ارتكابه الذنب فإنه لم تنقص من النعم التي يتمتع بها، وليس ذلك فحسب، بل إن نعمه في ازدياد، فحينئذٍ يجب عليه الخوف من أنه وقع في سنة الاستدراج الإلهية.

ومن جهة أخرى، يجب أن لا يقطع رجاءه بفضل الله ورحمته، وأن يكون له أمل بأن يشملته الفضل واللطف الإلهي فيما لو أصبح لائقاً لذلك، وأن لا يحرم من الثواب والجزاء الإلهي.

وبملاحظة ضرورة وجود الخوف والرجاء معاً في المؤمن، فقد عدت بعض الروايات حالة الخوف والرجاء من شروط الإيمان، ومن ذلك ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «لَا يَكُونُ الْمُؤْمِنُ مُؤْمِنًا حَتَّى يَكُونَ خَائِفًا رَاجِيًا، وَلَا يَكُونُ خَائِفًا رَاجِيًا حَتَّى يَكُونَ عَامِلًا لِمَا يَخَافُ وَيَرْجُو»^(١).

وفي رواية أخرى يقول الإمام الباقر عليه السلام: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا [وَأ] فِي قَلْبِهِ نُورَانِ: نُورُ خِيفَةٍ، وَنُورُ رَجَاءٍ، لَوْ وُزِنَ هَذَا لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا، وَلَوْ وُزِنَ هَذَا لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا»^(٢).

إن ضرورة التوازن بين الخوف والرجاء ناشئ من أنه إذا تجاوز خوف الإنسان حدّه وأصبح أكبر من الرجاء، فإنه يبعث على اليأس من رحمة الله، والعكس كذلك فإذا تجاوز رجاء الإنسان حدّه فإنه يبعث على

(١) الكليني، الكافي، الجزء ٢، الصفحة ٧١، الحديث ١١.

(٢) المصدر نفسه، الحديث ١٣.



٢٦٥



الأمن من مكر الله، ولا ينبغي الغفلة عن أن كسب حالة الخوف والرجاء ورعاية التوازن بينهما إنما هو عمل اختياري يرتضيه الله، ويُعدُّ عبادةً من العبادات؛ لأن للعبادة إطلاقاً: أحدهما العبادة بالمعنى الخاص الذي يشمل العبادات التوقيفية فقط كالصلاة، والصوم، والخمس، والآخرة العبادة بالمعنى العام ومصادقها كل عمل من أعمال الخير يهدف إلى جلب رضا الله.

وعلى هذا الأساس فكما تُعدُّ تلاوة القرآن والروايات عبادةً، وكذلك الخوف من الله ورجاؤه، والحفاظ على التوازن بين هذين الأمرين هو أمرٌ مرضيٌّ عند الله وعبادةٌ له، ومراتب ودرجات العبادة تنطبق على هذا المورد أيضاً.

وقد ذكرت الروايات أقسام العبادة ومراتبها، ومنها الرواية الواردة عن الإمام الصادق عليه السلام التي عدّدت للعبادة والعاشرين ثلاثة مراتب، قال عليه السلام: «الْعِبَادَةُ ثَلَاثَةٌ: قَوْمٌ عَبَدُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَوْفًا فَتَلَّكَ عِبَادَةُ الْعَبِيدِ، وَقَوْمٌ عَبَدُوا اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى طَلَبَ الثَّوَابِ فَتَلَّكَ عِبَادَةُ الْأَجْرَاءِ، وَقَوْمٌ عَبَدُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حُبًّا لَهُ فَتَلَّكَ عِبَادَةُ الْأَحْرَارِ وَهِيَ أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ»^(١).

وعلى أساس هذه الرواية فإن أسمى مراتب العبادة هي عبادة الذين نالوا أعلى مراتب المعرفة بالله، وامتلأت قلوبهم بمحبة الله وعشقه، ومحبة الله هي محرّكهم ودافعهم في جميع أعمالهم ومنها العبادة.

ولا شك أن أئمتنا المعصومين عليهم السلام هم رؤاد هذه الفئة وقادتها، وقد نالوا أعلى مراتب المعرفة والكمال الإنساني، وبملاحظة معرفتهم

(١) الحر العاملي، وسائل الشيعة، الجزء ١، الباب ٩، الصفحة ٦٢، الحديث ١٣٤.



الحقيقية بالله فإنهم لا يعبدون الله خوفاً من عذابه ولا طمعاً في ثوابه، بل لأنهم وجدوا الله سبحانه المثال الكامل للمحبة والعشق الكامل، والمستحق للعبادة فعبدوه، ومن هنا يقول أمير المؤمنين علي (عليه السلام): «إِلَهِي مَا عَبْدْتُكَ خَوْفًا مِنْ عِقَابِكَ، وَلَا طَمَعًا فِي ثَوَابِكَ، وَلَكِنْ وَجَدْتُكَ أَهْلًا لِلْعِبَادَةِ فَعَبَدْتُكَ»^(١).

سعة الخوف والرجاء في أولياء الله

لا شك في أن عبادة خواص أولياء الله وجميع أعمالهم ناشئة من محبة الله، وأن الخوف من العذاب والرجاء والطمع بالثواب ليست محركة لهم، وخوفهم إنما هو بحسب المرتبة التي هم فيها، وهؤلاء في مقام العبودية يخافون من أنهم لم يؤدوا حق الحب والشكر الإلهي، ومن أنهم مقصرون في أداء وظائف العبودية، وفي الوقت عينه بملاحظة سعتهم الوجودية والاستيعاب الذي يجدونه في أنفسهم يرجون رعاية حق عبودية الله وشكره.

ويُستفاد من بعض الروايات أن بعض خواص أولياء الله، وأبرزهم رسول الله ﷺ وأهل بيته، كانت حياتهم كلها تجسيدا لعبادة الله وعبوديته، ومن هنا فإنهم يمتلكون أسمى وأعلى مراتب الخوف والرجاء، ويتحقق هذا الخوف والرجاء تبعاً لإرادة الله، وفي أي موضع يريده الله فإن صفة الخوف والرجاء تتحرك لديهم، وكذلك يظهر لديهم الأمل والرجاء بإرادة الله. ولا ريب أن متعلق خوفهم ورجائهم تابع للإرادة الإلهية أيضاً.

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ٤١، الباب ١٠١، الصفحة ١٤، الحديث ٤.



٢٦٧



وعليه فإنهم أسلموا ناصية تدبيرهم إلى الله، وفي نطاقهم الوجودي فإن الله هو الذي يريد بدلاً عنهم ويختار لهم ويدبر لهم شؤونهم، وهم أنفسهم طلبوا من الله أن يدبر جميع أمورهم بدلاً عنهم ويختار لهم، وأن يغنيهم عن اختيارهم لأنفسهم وتدبيرهم لها.

وجاء في الدعاء: «إِلَهِي أَغْنِنِي بِتَدْبِيرِكَ لِي عَنْ تَدْبِيرِي وَبِاخْتِيَارِكَ عَنْ اخْتِيَارِي»^(١).

وفي هذا المجال ورد في الحديث القدسي: «لا يزال عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَى بَانَوَافِلِ مُخْلَصًا لِي حَتَّى أَحْبَبْتُهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعُهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرُهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدُّهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، إِنْ سَأَلَنِي أُعْطِيْتُهُ، وَإِنْ اسْتَعَاذَنِي أَعِزَّتُهُ»^(٢).

حينما يصل العبد إلى مرتبة من مراتب القرب الإلهي يأخذ فيها الله بتدبير وإدارة جوارحه وأعضائه وقلبه، فإنه لا يسمع إلا ما يريد به الله، ولا يُبصر إلا ما يريده الله، وتكون جميع حركاته وسكناته في مسير رضا الله، ويكون خوفه ورجاؤه أيضًا ذات جهة إلهية، والله هو من أوجد هاتين الصفتين في قلبه.

إذًا، فإن قلب ذلك العبد الذي نال تربيةً حسنةً صار لله خاصة، ويصل إلى الخواطر والأفكار عن طريق الإرادة والمشئنة الإلهية، ومثل هذا القلب ليس أنه لا يكون مرتعًا للشيطان ومسرًا للأفكار الباطلة وأهواء النفس فحسب، بل ليس له رؤية ولا ميل مستقل نحو الحلال إلا فيما يريده الله، ولا يسير في مسير إلا المسير الذي يرتضيه الله ويراه

(١) مفاتيح الجنان، دعاء عرفة.

(٢) أبي محمد الحسن الديلمي، إرشاد القلوب، الجزء ١، الصفحة ٨٣.



صلاحًا، وكل أعماله تتحقق بالولاية والتدبير الإلهي، ويشعر بالخوف والرجاء لكن متعلق هاتين الحالتين النفسانيتين يحدّدهما الله أيضًا.

وقد ورد في الزيارة الجامعة الخامسة حول أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام: «وَلَكُمْ الْقُلُوبُ الَّتِي تَوَلَّى اللَّهُ رِيَاضَتَهَا بِالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَجَعَلَهَا أَوْعِيَةً لِلشُّكْرِ وَالثَّنَاءِ»^(١).

وفي رواية أخرى عن الإمام الرضا عليه السلام تبين أن المعصومين عليهم السلام يسلمون للإرادة والمشيئة الإلهية وكل ما يريد الله فهم يريدونه: «قُلُوبُنَا أَوْعِيَةٌ لِمَشِيَةِ اللَّهِ فَإِذَا شَاءَ شِئْنَا»^(٢).

نعم أولئك الواصلون إلى أعلى مراتب القرب الإلهي ومقام عبودية الله يذوبون في الجلال والجمال الإلهي إلى درجة أنهم يستبدلون بإرادتهم ومشيتهم إرادة الله ومشيتته، والله يوجد الخوف والرجاء في أنفسهم، وحينما يرى الله صلاحًا ينبتهم إلى الأمور الموجبة للخوف، ومن هنا فإن الله يريد لفت انتباههم إلى العقوبات الإلهية، وهؤلاء اتخذوا قرارًا باستثمار كل ما أودعه الله فيهم في طريق عبوديته، وحقيقة العبودية تقتضي ذلك، فإنهم يفرحون بما أراد الله أن يفرحوا به، ويحزنون بما أراد الله أن يحزنوا به، ويخافون مما أراد الله أن يخافوا منه، وإذا أراد الله أن يلتفتوا إلى النار والعذاب الإلهي، فإنهم يلتفتون إلى ذلك، ويضجّون ويصرخون من لهيب النار وشررها المدمر، وفي الواقع فإن سلوكهم يشير إلى حقيقة وهي أن أفضل مورد لظهور وبروز

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ١٠٢، الباب ٥٧، الصفحة ١٦٤، الحديث ٦.

(٢) المصدر نفسه، الجزء ٣٥، الباب ٩، الصفحة ٣٣٦، الحديث ١٦.



الإمكانات والحالات والنعم التي وفّرها الله للإنسان، هي نفس الموارد التي ظهرت وتجلّت فيهم.

الخوف والرجاء الضروري في الروايات

إذا كنّا نسعى إلى إيجاد حالة الخوف والرجاء في أنفسنا أو تقويتهم كي ننجح بواسطة ذلك في أداء الواجبات وترك الذنوب، فلأجل تحقيق ذلك علينا مطالعة الآيات والروايات والبحوث الأخلاقية، والاستفادة من معطيات العقل، وكذلك أن نسعى إلى الحفاظ على حالة التوازن بين حالتنا الخوف والرجاء، فينبغي أن لا يطغى الخوف من العذاب الإلهي على الرجاء في المغفرة الإلهية، وبالعكس أيضًا أي ينبغي أن لا يطغى الرجاء بالثواب والجزاء الإلهي على الخوف من العذاب.

ورغم أننا ندّعي الخوف من الله وعذابه، ونرجو الجنة والرضوان الإلهي، لكن هل ينطبق هذا الادّعاء على الواقع، وهل نخاف من العذاب ونرجو الجزاء والثواب حقًا؟ من المناسب هنا أن نذكر بعض الروايات لتتضح لنا حقيقة الأمر.

في الطليعة نذكر إحدى حِكَم نهج البلاغة - التي جاءت في جواب شخص أراد من أمير المؤمنين علي عليه السلام أن يعظه - وهي تشتمل على نصائح ومواعظ قيمة ومؤثرة، حتى يقول الشريف الرضي في نهايتها: «ولو لم يكن في هذا الكتاب إلا هذا الكلام لكفى به موعظة ناجعة وحكمة بالغة وبصيرة لمبصر وعبرة لناظر مفكر» وهي هذه: «لَا تَكُنْ



مِمَّنْ يَرْجُو الْآخِرَةَ بَغَيْرِ عَمَلٍ، وَيَرْجِي التَّوْبَةَ بِطُولِ الْأَمَلِ يَقُولُ فِي الدُّنْيَا
بِقَوْلِ الرَّاهِدِينَ وَيَعْمَلُ فِيهَا بِعَمَلِ الرَّاعِيَيْنَ...»^(١).

المؤمن الحقيقي يرجو رضوان الله والجنة، ومن أجل تحقيق هذا
الرجاء والأمل يقوم بالعمل الصالح، ويتجنب الأعمال القبيحة التي تمنع
من الوصول إلى الرضوان الإلهي وتؤدي إلى الابتلاء بالغضب الإلهي، لكن
ضعاف النفوس الذين لم يتغلغل الإيمان إلى أعماق نفوسهم، يرجون
الوصول إلى السعادة والجنة، لكنهم لا يؤدّون العمل الصالح الذي يحقق
هذا الرجاء، ويلوثون أنفسهم بالمعاصي وفي الوقت نفسه يرجون العفو،
ويتحدثون دائماً عن الرجاء لكنهم يؤخّرون التوبة، وبهذا لا يطهرون
أنفسهم من القذارات ويحرمون من الرضوان الإلهي.

لقد أجاب الإمام الصادق عليه السلام على فريق من الناس كانوا يدّعون
حبّه كذباً، لكنهم ليسوا مستعدين لترك المعاصي والذنوب، ويقولون
نحن نرجو مغفرة الله، فقال عليه السلام: «كَذَبُوا لَيْسُوا لَنَا بِمَوَالٍ أُولَئِكَ قَوْمٌ
تَرَجَّحَتْ بِهِمُ الْأَمَانِيُّ، مَنْ رَجَا شَيْئًا عَمِلَ لَهُ وَمَنْ خَافَ مِنْ شَيْءٍ هَرَبَ
مِنْهُ»^(٢).

وفي موضع آخر يبيّن أمير المؤمنين علي عليه السلام في كلام شديد
محذراً الأشخاص الذين لا يسعون في سبيل عبودية الله ولكنهم رغم ذلك
يدّعون أنهم يرجونه قائلاً: «يَدَّعِي بِرَّعَمِهِ أَنَّهُ يَرْجُو اللَّهَ كَذَبٌ وَالْعَظِيمُ
مَا بِالْهَ لَا يَتَبَيَّنُ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ، فَكُلُّ مَنْ رَجَا عَرَفَ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ،
وَكُلُّ رَجَاءٍ إِلَّا رَجَاءَ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّهُ مَدْخُولٌ، وَكُلُّ خَوْفٍ مُحَقَّقٌ إِلَّا

(١) نهج البلاغة، الحكمة ١٥٠.

(٢) الكليني، الكافي، الجزء ٢، الصفحة ٦٨، الحديث ٦.



٢٧١



خَوْفَ اللَّهِ فَإِنَّهُ مَعْلُومٌ، يَرْجُو اللَّهَ فِي الْكَبِيرِ وَيَرْجُو الْعِبَادَ فِي الصَّغِيرِ،
فَيُعْطِي الْعَبْدَ مَا لَا يُعْطِي الرَّبَّ، فَمَا بَالُ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ يُقْصَرُ بِهِ عَمَّا
يُصْنَعُ بِهِ لِعِبَادِهِ، أَتَخَافُ أَنْ تَكُونَ فِي رَجَائِكَ لَهُ كَاذِبًا، أَوْ تَكُونَ لَا تَرَاهُ
لِلرَّجَاءِ مَوْضِعًا، وَكَذَلِكَ إِنْ هُوَ خَافَ عَبْدًا مِنْ عَيْبِهِ، أَعْطَاهُ مِنْ خَوْفِهِ
مَا لَا يُعْطِي رَبَّهُ، فَجَعَلَ خَوْفَهُ مِنَ الْعِبَادِ نَقْدًا، وَخَوْفَهُ مِنْ خَالِقِهِ ضِمَارًا
وَوَعْدًا^(١).

كيف يكون للغافلين والفاقرين للمعرفة التوحيدية رجاء بالله ونعم
الجنة الخالدة والسعادة الأبدية، وتراهم من أجل تحقق هذا الرجاء
والرغبة لا يبذلون أي جهد، لكنهم لا يألون جهدًا من أجل الوصول إلى
رغباتهم الدنيوية الحقيرة ولا يهدأ لهم بال حتى تحقيقها؟.

وكنموذج لذلك فإنهم من أجل الحصول على قرض بسيط نراهم
مثلًا لا يتركون بابًا إلا طرقوه، وينفقون الكثير من الجهد والوقت للحصول
عليه، ويتوسلون للحصول على من يضمنهم حتى يصل بهم الحال إلى
إراقة ماء الوجه والتذلل كي يصلوا إلى المطلوب، لكن من أجل نيل
مطالب عظيمة من قبيل نعيم الآخرة الأبدية والخلاص من عذابها الرهيب
لا يخطون خطوة واحدة، فإن جهدهم كله مقتصر على الرغبات الدنيوية
التافهة التي لا مجال لمقارنة جهودهم حيالها بجودهم في المجال الأول،
فهؤلاء من أجل الحصول على قرض يبذلون كل هذه الجهود والتحريك
وربما لا يحصلون على شيء بعد كل هذا التعب، لكنهم لا يفعلون شيئًا
من أجل نيل النعيم الأخروي الأبدى وكأن الأمر لا يعينهم، وربما يصلون
صلاتهم الواجبة بصعوبة.

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٦٠.



وفي هذه الحالة يكون ادّعاء الرجاء بالله كاذبًا وعارٍ عن الصحة؛
لأنهم إذا كانوا يرجون الله حقًا، فعليهم أن يبذلوا الجهود التي تتناسب
مع هذا الرجاء، وأن يسعوا لتحقيق هذا الرجاء من خلال الدعاء،
والتضرّع، والعبادة والعمل الصالح وتطهير بواطنهم من التلوث.



المقال الثامن عشر

أمل المؤمن وحبّه للخير وطلبه للسعادة

يقول الإمام السجاد عليه السلام في مطلع مناجاة الراجين:

«يَا مَنْ إِذَا سَأَلَهُ عَبْدٌ أَعْطَاهُ، وَإِذَا أَمَلَ
 مَا عِنْدَهُ بَلَغَهُ مُنَاهُ، وَإِذَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ قَرَبَهُ
 وَأَذْنَاهُ، وَإِذَا جَاهَرَهُ بِالْعِصْيَانِ سَتَرَ عَلَى
 ذَنْبِهِ وَغَطَّاهُ، وَإِذَا تَوَكَّلَ عَلَيْهِ أَحْسَبَهُ
 وَكَفَاهُ، إِلَهِي مَنْ الَّذِي نَزَلَ بِكَ مُلْتَمِسًا
 قِرَاكَ فَمَا قَرَيْتَهُ، وَمَنْ الَّذِي أَنَاخَ بِبَابِكَ
 مُرْتَجِيًا نَدَاكَ فَمَا أَوْلَيْتَهُ، أَيَحْسُنُ أَنْ
 أَرْجِعَ عَنْ بَابِكَ بِالْخِيْبَةِ مَضْرُوفًا، وَلَسْتُ
 أَعْرِفُ سِوَاكَ مَوْلَى بِالْإِحْسَانِ مَوْصُوفًا».

«الأمل» بمعنى رجاء الأمر بعيد المنال الذي لم تتوفّر بعد مقدّمات
 وشروط تحقيقه، وتحصيل مقدّماته بحاجة إلى جهود كثيرة وهمّة عالية
 وإنفاق الكثير من الوقت والانتظار الطويل. وفي مقابلة الرجاء حيث



يُستعمل في المورد التي توفّرت مقدّماتها وأسبابها الضرورية فيكون من المنطقي توقع حصول المطلوب.

وفي الفقرة المتقدّمة من المناجاة جاء الأمل بمعنى الرجاء، وفي القرآن الكريم استُعملت مشتقات «الأمل» ومرادفاته من قبيل «الأمنية» ومنها ما ورد في الآمال الكاذبة الباطلة لبعض النصارى واليهود ممن كانوا يتصوّرون أنهم وحدهم الذين يدخلون الجنّة، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١).

«أناخ» مشتق من «نوخ»، وعبرة «أناخ بباك» تعني سَكَنَ وأقام أمام الساحة الإلهية، وهذا التعبير مأخوذ من «أناخ الجَمَل» بمعنى أبركه أي جعله يبرك في موضع مُهيأ لنوم الإبل.

«الندي» بفتح النون ويعني هنا العطاء والكرم، وكذلك «الخبية» في المقطع المذكور تعني خسارة المطلوب والحرمان والخسران.

معرفة الأمل المطلوب والأمل المذموم

بملاحظة جريان الحديث - في هذه المناجاة - عن الأمل نجد سؤالاً يطرح نفسه وهو: هل الأمل - ومنه الأمل البعيد - أمر ممدوح أم مذموم؟

وفي الإجابة عن هذا السؤال يمكن أن يُقال إن الأمل بنفسه ليس مذمومًا، ويُستشف من استعمال «الأمل» و«المنى» في هذه المناجاة أن متعلّق الأمل - وحتى طول الأمل أو الأمل البعيد - إن كان أمرًا معنويًا

(١) سورة البقرة، الآية ١١١.



وأخروياً، فهو شيء مرغوب ومطلوب، وإذا كانت بعض الروايات قد ذمّت طول الأمل أو الأمل البعيد، فذلك لأن متعلّق ذلك الأمل هو الدنيا ولذاتها الهابطة التي تمنع الإنسان من الوصول إلى السموّ والتقدّم في مسير الكمال، ومن هنا يذمّ أمير المؤمنين عليه السلام طول الأمل قائلاً: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ اثْنَانِ اتِّبَاعُ الْهَوَى وَطُولُ الْأَمَلِ، فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ»^(١).

المنشأ الفطري للأمل والتفريق بين الخير الواقعي وتوهم الخير

بغض النظر عما ورد في الآيات والروايات وما يُستفاد من البحوث الأخلاقية، فهل الأمل والسعي وراء الأهداف العالية البعيدة المدى أمر حسن، وهل يجب على الإنسان أن يسعى وراء الأعمال التي تُعطي ثمارها بسرعة، وأن يُبعد عن تفكيره الأمور التي تتأخّر نتائجها كثيراً، وتحتاج إلى مقدّمات كثيرة وطويلة وبعيدة المنال؟

الجواب هو أن الإنسان يطلب الخير حتّى وإن كان ذلك الخير بعيد المنال، وبما أن طلب الخير أمر فطريّ فهو حسنٌ وممدوح، غاية الأمر أن الإنسان أحياناً يخطئ في معرفة مصاديق الخير، ويتصوّر ما هو شرٌّ خيراً، وبالعكس يتصوّر الخير شرّاً، وقد جاء في القرآن: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢).

وبناءً على هذا فإن الأمل في الخير الواقعي أمرٌ حسن، لا الأمل في الخير المظنون والوهمي المرتبط بأمور الدنيا، التي يظنّها الإنسان خيراً

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٤٢.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢١٦.



ويتعلّق قلبه بها غاية التعلّق، بينما هي في الحقيقة ليست من الخير في شيء، والقرآن يحدثنا عن هذا الميل والحبّ الباطل لدى الإنسان قائلاً: ﴿وَأَنَّهُ لَحُبٌّ لَّخَيْرٍ لَّشَدِيدٍ﴾^(١).

يقول بعض المفسرين إنّ الخير في الآية الشريفة بمعنى المال، ومعنى هذه الآية هو أن الإنسان يُحبّ المال بشدّة، وأنه بخيلٌ وضيق النظر، وقال بعضهم إنّ حبّ الإنسان الشديد للمال يدفعه إلى الامتناع عن أداء حقّ الله، وعدم إنفاق ماله في سبيل الله^(٢).

إذا جاء المال عن طريق صحيح وأنفق في الطريق الصحيح فهو خيرٌ، لكن البعض يتخيّل أن المال خيرٌ مطلقاً، ولا يؤثّر في ذلك مصدره ومن أين أتى ولا أين سيُنفق.

وقد يُخطئ بعض الناس حينما يقع تعارض وتزاحم بين أمرين مطلوبين، فيرجّح الأمر المرجوح على الراجح، والخير المحدود سريع الزوال على الخير الباقي الذي له آثار باقية، فيرجّح خير الدنيا المحدود التافه على خير الآخرة الأبدي، ومنطقه في ذلك هو أنه لا ينبغي التضحية بالنقد والعاجل من أجل النسيئة والآجل؛ ولأن الدنيا عاجلٌ والآخرة آجلٌ، فلذلك يجب اغتنام النقد واختيار الدنيا وتجاهل الآخرة.

بينما منطق العقل قد يحكم أحياناً بوجوب ترجيح النسيئة على النقد، وعلى أساس هذا المنطق قد نرى الإنسان يضحيّ بالنقد لحساب النسيئة في بعض أموره الدنيوية وشؤونه اليومية، فالعامل الذي يعمل عملاً شاقاً، والتلميذ الذي يُنفق وقته بالدراسة، والباحث الذي ينشغل

(١) سورة العاديات، الآية ٨.

(٢) العلامة الطباطبائي، الميزان، الجزء ٢٠، الصفحة ١٩٦.



بالبحوث، من أجل كسب الثروة والمكانة العلمية والاجتماعية، يضحون بالراحة والكثير من اللذات، ويقيّدون أنفسهم بأمر صعبة من أجل تحقيق أهدافهم.

قيمة البحث عن الخير والأهداف القيّمة والأمل بها

بملاحظة ما قلناه سابقاً، يجب على الإنسان أن يكون طالباً للخير الواقعي، وأن يستكشفه من خلال الاستضاءة بالعقل وتعاليم القرآن والروايات، وكذلك عليه أن يسعى لتحقيقه، ولا ريب أن الأمل بالخير الواقعي ورجاءه أمرٌ مطلوب وممدوح، وما وقع مورداً للذم إنما هو طول الأمل المرتبط بالأمر الدنيوية، وتعلّق القلب بالمناصب والمكانة الاعتبارية العابرة، التي تمنع الإنسان عن الاهتمام بالآخرة التي هي مطلوبٌ بالذات وتحرمه منها.

يبدل البعض جهوداً مضيئةً ولسنوات طويلة من أجل الوصول إلى المكانة والمنصب، فتراه مثلاً يؤسّس حزباً كيما يصل إلى أهدافه السياسية، وكما هو سائد في البلدان الغربية فإن المرشّح للمنصب يقدّم آلاف الوعود الكاذبة ويحاول خداع الناس ليجمعهم حوله ويحصل على أصواتهم في الانتخابات فينال كرسيّ البرلمان أو رئاسة الجمهورية.

وبما أن مثل هذا السلوك راجع إلى الدنيا ولا يشتمل على أية دوافع أخروية سامية فإنه مذمومٌ، وإلا فإن الجهود الدنيوية قيّمة جداً إذا كانت من أجل القيام بالمسؤولية، لأنها مقدّمة لنيل الكمالات الأخروية وجلب رضا الله وتحمل المشاق الكثيرة من أجل الوصول إلى المطلوب الإلهي.

فالإمام الخميني قدس سرّه انطلق بنهضته الإسلامية في وقت لم يتوقّع أحد أن تنتصر النهضة بهذه السرعة ويسقط النظام البهلوي بذلك الشكل،



لكن الإمام وأنصاره بجهودهم المُضنية وتحملهم النفي والسجن التعذيب وفقدان الأحباب انتصروا بعد خمسة عشر عامًا من الجهاد، وكان الهدف من كل الابتلاءات والمصاعب هو إقامة الحكومة الإسلامية وإجراء أحكام الإسلام، وكان مثل هذا الهدف المقدّس ذو البُعد الأخروي من أجل كسب الرضا الإلهي، وقد كان الوصول إلى هذا الهدف يستحقّ بذل الجهود حتى لو كان ذلك يستغرق مئة سنة من الجهود الشاقّة المتواصلة.

وكذلك الباحث والمحقّق الذي يبذل جهوده من أجل كسب العزّة للإسلام ونيل الفخر لبلده الإسلامي والاستغناء عن القوى الكبرى، ويسعى لاكتساب العلوم الجديدة، يجب أن ينال المديح، وجهوده المتواصلة في مجال العلوم التجريبية والدينيّة بهدف نيل رضا الله إنما هي جهود قيّمة ومطلوبة.

وكذلك علماء العلوم الإسلامية الذين بذلوا جهودًا كبيرةً لسنوات طويلة في مجال المعارف الإسلامية والعقلية وذلك من أجل نشر دين الله وتطوير العلوم الإسلامية، فإن جهودهم تستحقّ التقدير والمديح وعملهم مرضي عند الله سبحانه.

ولا ريب أن هذه الهمم العالية والسعي الخالص للاستفادة المُثلى من فرصة العمر وطي المسارات الطويلة المتعرّجة أداءً للمسؤولية ونشرًا للمعنويات في المجتمع وارتقاءً بالمجتمع الإسلامي في مختلف الأبعاد، وكل ذلك يُعدُّ عبادةً، وكلما كانت مقدّمات الوصول إلى الأهداف السامية أطول وأكثر، زادت قيمته والحسنات والجزاء المعنوي والأخروي الذي يُستحق عليه، وكل لحظة من لحظات العمر التي تُنفق في سبيل ذلك وكل خطوة تُمشى في ذلك السبيل تعتبر عملاً صالحًا.

ومن هنا يحدثنا الله سبحانه عن القيمة والفضل في مرافقة رسول الله ﷺ وتحمل المصاعب في سبيل الإسلام قائلاً: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ سُرَّهَم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١).

وقد ذمّت الروايات طول الأمل المرتبط بالدنيا، في ما كان يمكن تحقيقه، فما بالكم بالآمال التي لا يمكن تحقيقها، مثل الشخص الذي يعيش في عالم الأوهام ويتمنى أن يصبح أثرى رجل في العالم.

لكن في ما يرتبط بالآخرة فحتى الآمال التي ليس في مقدور الإنسان تحقيقها ويعجز - بشكل طبيعي - عن الوصول إليها، فهي مطلوبة وممدوحة وناشئة عن همّة الإنسان العالية، مثل الشخص الذي يعلم أن الفاصل بين مقامه ومقام ومنزلة رسول الله ﷺ كبير جداً، بل إنه يعجز حتى عن إدراك وفهم مقامه ومنزلته ﷺ، لكن مع ذلك يتمنى أن يكون جليساً له في الجنة.

ومن الطبيعي أن على مثل هذا الشخص - ممن يحمل أمانى كبيرة - أن يبذل جهوداً كبيرة أيضاً من أجل الوصول إليها، وأن لا يقصر في أداء كل ما يساعده على بناء ذاته ونيل السمو والكمال، كما ورد في الحديث الشريف: «مَرَّ بِالنَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ وَهُوَ يُعَالِجُ بَعْضَ حُجَرَاتِهِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا أَكْفِيكَ. فَقَالَ: شَأْنُكَ. فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: حَاجَتُكَ؟



قَالَ: الْجَنَّةُ. فَأَطْرَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: نَعَمْ. فَلَمَّا وَلَّى قَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ أَعِنَّا بِطُولِ السُّجُودِ^(١).

فاستناداً إلى العقل والشرع فإن الآمال البعيدة التي لا يمكن تحقيقها والتي تدفع الإنسان نحو الأوهام الحمقاء، وكذلك الآمال التي يمكن تحقيقها إلا أنها تمنع الإنسان عن أداء تكاليفه الإلهية والوصول إلى الآثار والثمار الأخروية القطعية، هي أمور مذمومة.

كما أنه ليس من المستحسن أن يملأ الإنسان ذهنه بالآمال التي لا يمكن الوصول إليها فيشغل ذهنه وتفكيره بها، وكذلك لا يليق أن يؤدي به تمنيه أن يصل إلى اللذات الدنيوية التافهة والحقيرة إلى ترك تكاليفه الأخروية ذات النتائج الأكبر بما لا يُقاس مع اللذات الدنيوية.

رجحان الآمال الأخروية على الآمال الدنيوية

في مطلع هذه الجلسة طرحنا السؤال التالي: هل الأمل أو الرجاء ضروري للإنسان، وهل يجب على الإنسان أن يكون راجياً؟

ونقول مرةً أخرى في الإجابة عن هذا السؤال: إن الأمل ضروري للحياة وبدونه لا يمكن للحياة أن تستمر، الأمل هو أحد النعم الإلهية، غاية الأمر بما أن الآخرة ليست داراً للتزاحم، فإن القيام ببعض الأمور الأخروية لا يكون مانعاً عن القيام بأمور أخروية أخرى، والإنسان لا يستطيع أن يمنح كل نشاطاته وأفكاره اتجاهًا وصِبةً أخروية. وفيما يرتبط بالآخرة فإن طول الأمل ليس مذمومًا، ومن هذه الجهة فكُلُّما كان أمل الإنسان في الوصول إلى مقامات الآخرة أكبر وأعظم، فإنه يكون

(١) الكليني، الكافي، الجزء ٧، الصفحة ٢٦٦، الحديث ٨.



ممدوحًا أكثر. لكن بما أن الدنيا دار تزاحم والإفراط في الاهتمام بالأمر الديني يُقعد الإنسان عن الوصول إلى أمور ضرورية أخرى، فلا ينبغي الإفراط أو التفريط في الاستفادة من النعم الإلهية الدنيوية، /

ويجب رعاية حد الاعتدال في الاستفادة من تلك النعم لكيلا يخسر الإنسان سائر الأمور الدنيوية الضرورية.

ويجب أن يكون لدى الإنسان خوفٌ إلى جانب الرجاء، ولا ينبغي أن يتجاوز رجاء الإنسان الحد الطبيعي فيمنع من الخوف والخشية.

فينبغي على الإنسان رعاية حدود وشروط الاستفادة من النعم الإلهية، ومن هذه الزاوية يكون من الصحيح رجاء النعم الدنيوية في حال رعاية شروط وحدود الاستفادة منها، فالمال والإمكانات الدنيوية نعم، لكن لا ينبغي للإنسان أن يصل إليها عن الطريق الحرام والتصرف في أموال الآخرين بغير حق، وإلا فستكون نعمةً عليه لا نعمة، وكذلك لا ينبغي أن يأمل الإنسان التصرف في أموال الآخرين والتعدي على حقوقهم.

الأمل في النعم الدنيوية إنما يكون حسنًا فيما لو كان من أجل الآخرة ومن أجل تأمين الاحتياجات الضرورية للحياة مع رعاية الحدود الشرعية، وخاصةً إذا كان أمل الإنسان في توفير النعم الدنيوية منحصراً بالله ولا يرجو غير الله سبحانه، كما يخاطب الله في الحديث القدسي موسى عليه السلام قائلاً: «يا موسى سلني كل ما تحتاج إليه حتى علف شاتك وملح عجينك»^(١).

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ٩٣، الباب ١٦، الصفحة ٣٠٣، الحديث ٣٩.



الاحتياجات الدنيوية لا تُعَدُّ مطلبًا ذاتيًا للمؤمن؛ لأن الأمور الدنيوية لا تُعَدُّ بنفسها قيمةً أخلاقية، فالمؤمن يريد النعم والإمكانات الدنيوية من أجل توفير سلامته وكسب القدرة التي تُعينه على الوصول إلى المقامات الإلهية والإنسانية ونيل الثواب الأبدي في الآخرة.

النعم الدنيوية مباحة في حدِّ ذاتها، لكنها لا تُعَدُّ قيمةً، وإنما تعتبر قيمةً فيما لو طُلبت من أجل رضا الله. أما النعم الأخروية فتتَّصف بالمطلوبية الذاتية وتشتمل على القيمة، ومن هنا يكون طلبها وعقد الأمل على نيلها أمرًا مطلوبًا وممدوحًا، ويجب أن يكون تعلُّق أمل الإنسان بها صادقًا، بمعنى أنَّ على الإنسان أن لا يُقَصِّر في سبيل الوصول إلى النعم والمقامات الأخروية والمعنوية، وأن يستثمر - إلى أقصى حدٍّ - الإمكانات والأسباب المتوفرة له من أجل الوصول إليها، لا أنه يريد نيل مكانة أولياء الله، لكنه يقصِّر في أداء مسؤولياته ولا يؤدي تكاليفه الواجبة ويمتنع عن القيام بالمستحبات، وحينما يأتي شهر رمضان المبارك لا يختم القرآن ولا مرَّةً واحدةً على الأقل.

ثم يقول ﷺ في مناجاة الراجين:

«كَيْفَ أَرْجُو غَيْرَكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ بِيَدِكَ،
وَكَيْفَ أَوْمَلُ سِوَاكَ وَالْخَلْقُ وَالْأَمْرُ لَكَ.
أَفَقَطْعَ رَجَائِي مِنْكَ وَقَدْ أَوْلَيْتَنِي مَا لَمْ
أَسْأَلْهُ مِنْ فَضْلِكَ».



سعة رجاء المؤمن بالله

يستفاد من الفقرة المتقدمة أن طلب الإنسان من الله ورجاءه الفضل الإلهي لا ينبغي أن يكون محدودًا، بل يجب على الإنسان أن يطلب جميع النعم الدنيوية والأخروية من الله ويرجو من الله أن يحقق له جميع احتياجاته المادية والمعنوية، وأن لا ينسى أن الله هو مالك الوجود الحقيقي والمطلق، وأن لا أحد سواه بمقدوره تحقيق أمانى الإنسان.

ولو تجاوزنا النعم الدنيوية من قبيل الثروة، وشريك الحياة الزوجية الصالح، والعزة في المجتمع التي يجب طلبها من الله، فلا ينبغي للإنسان أن يقصر نظره على النجاة من جهنم ونيل النعم الظاهرية في الجنة من قبيل حور العين والغلمان المخلدين، وطعام الجنة اللذيذ، بل عليه أن تكون همته مصروفة لما هو أسمى من ذلك، فعلى الإنسان أن يأمل نيل المقامات العالية في الجنة ورفقة الأنبياء وأولياء الله، وأن يطلب من الله أن يوصله إلى مقام القرب منه، كما لا ينبغي أن يؤدي نظره إلى وضعه الحالي والتفاته إلى تقصيره في نيل رضا الله والقصور الذي لديه في الجوانب المعنوية إلى منعه من طلب الأمور الكبيرة، وأن يتصور أنه إذا طلب من الله مقامًا كمقام سلمان (رض)، فإنه سيقول أنت مع كل هذا الرجز وقبح السلوك والتقصير في نيل السمو والكمال، ما بالك تطلب أن تنال مقام عباد الله الخاضعين والمصطفين والذين أمضوا أعمارهم في مسير كسب رضوان الله، ولم يقصروا لحظة في أداء تكاليفهم الإلهية.

إن التفات الإنسان إلى نقطة أساسية يمنحه الجرأة على طلب الكثير من الله، ويجعله يأمل في نيل أسمى المقامات، وتلك النقطة هي أن الله يمتلك القدرة والمُلك غير المحدودين بحد من الحدود، ومهما أعطى لن ينقص منه ذرة.



الله قادرٌ على أن يمنح كل نِعَم الدنيا لشخص واحد، ويخلق مثل تلك النِعَم ويمنحها لعبد آخر وهكذا. ومهما منح عباده لا ينقص من مُلكه شيء؛ لأنه إذا أراد أن يخلق شيئاً يكفي أن يقول له كن فيكون كما بين لنا سبحانه: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١).

إن الالتفات إلى هذا المعنى حين الدعاء والمناجاة يمنح الإنسان الجرأة على أن يطلب من الله طلبات كبيرةً وكذلك يبعث على أن لا يشكّل التفاته إلى تقصيره وعدم لياقته وتلوّثه عقبةً أمام أن يطلب من الله ما يريد.

وبملاحظة هذه الحقيقة يخاطب الإمام السّجّاد (عليه السلام) الله قائلاً يا إلهي لقد تفضّلت عليّ وأعطيتني ما لم أطلبه منك، إذاً فهل ستقطع من فضلك رجائي ولا تعطني ما أتوسّل إليك أن تعطني إياه؟

وقد ورد شبيه بهذا التعبير في دعاء شهر رجب ودعاء أبي حمزة الثمالي وسائر الأدعية الواردة عن الأئمة الأطهار (عليهم السلام)، وقد علّمونا بذلك أنه في الدعاء علينا أن نطلب الأهداف السامية والمطالب الكبيرة، وأن لا نقنع بالمطالب الحقيرة والأمور الصغيرة.

ما زلتُ أذكر أيام الطفولة حينما كنتُ أذهب إلى المدرسة الابتدائية، وقد سافرتُ لأول مرّة من يزد إلى قم، وفي الطريق كان السائق يتكلّم معنا حتّى لا يغلبه النعاس، وأحياناً كان يتلو سورة يوسف عن ظهر قلب، أذكر أنه قال لي: الآن أنت تريد الذهاب إلى مدينة قم المقدسة وتزور



السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام، فماذا سوف تطلب منها؟ فأجبتة:
لا أدري ماذا سأطلب. فسألني: من هم أثري الأشخاص في مدينتكم؟
فذكرتُ له اسم شخص كان أثري أثرياء يزد. فقال: إذا كان هناك متسول
سعى إلى مقابلة ذلك الغني وبعد توسل بحاشية ذلك الغني استطاع
مقابلته ثم طلب منه أن يعطيه ريالاً واحداً وهو مبلغ ضئيل ألا يضحك
الناس عليه قائلين له يا لك من أحقق تطلب من ذلك الثري مبلغاً تافهاً
كهذا؟

ثم قال لي: حينما تتشرف بزيارة الحرم الشريف لا تطلب شيئاً قليلاً،
ولا تطلب من السيدة فاطمة المعصومة المال فهو شيء حقير تافه.

لقد علمني ذلك السائق - الذي أرجو أن يحشره الله مع المعصومين
عليهم السلام - درساً في الأخلاق ونبهني إلى أنه من دناءة الهمة أن
يطلب الإنسان من الله - في الأماكن المقدسة والأيام والليالي الخاصة
كشهر رمضان وليالي القدر - طلبات دنيوية حقيرة، بل عليه في هذه
الفرص الذهبية والقيمة أن يطلب من الله تعالى التوفيق للعبودية ونيل
الرضوان ومقام القرب الإلهي.

ثم يقول عليها السلام في مناجاته:

«أَمْ تُفْقِرُنِي إِلَى مِثْلِي وَأَنَا أَعْتَصِمُ
بِحَبْلِكَ. يَا مَنْ سَعَدَ بِرَحْمَتِهِ الْقَاصِدُونَ
وَلَمْ يَشَقْ بِنَقْمَتِهِ الْمُسْتَغْفِرُونَ».

فهل يُعقل أن ثرياً كريماً حينما يأتيه متسول يطرق بابه طلباً لحاجته
يحوله إلى متسول آخر؟ الله هو المالك المطلق، وهو القادر على أن



يلبّي كل ما يطلبه عبده، ومهما أعطى فلن ينقص شيء من ملكه، فكيف يطرد عبده الفقير ويردّه يائسًا خائبًا، فيضطره إلى أن يذهب ليستجدي من عبد فقير مثله يعجز عن سدّ حاجة نفسه؛ إذ هو فقير من رأسه إلى أخمص قدميه فكيف يمكنه أن يُغني غيره؟!

فالإنسان يصل إلى السعادة بواسطة الرحمة الإلهية، والاستغفار عامل للاستفادة من الرحمة الإلهية والتخلّص من النقمة والعذاب الذي يؤدّي إلى الشقاء، وفي الحقيقة إن نيل السعادة الواقعية والخلّص من الشقاء رهين بذكر الله واستغفاره.



المقال التاسع عشر مطالب أولياء الله العالفة

أسمى آمال المؤمن الآخروفة

كان موضوع حداثا فى الجلسات الثلاث الآخرة حول مناجاة الراجفان وقد طرأنا فى هذا المجال باحثاً حول الأمل والرجاء. ووصلنا إلى نلفةة هف أن الأمل بالله فعدُّ مطلوباً من أجل الوصول إلى أى ففر؁ سواء كان من ففر الدنفا أو من ففر الآخرة؁ وسواء كان ففراً مادّياً أو معنوّياً.

نعم ففشرط أن فكون أمل الإنسان صادقاً؁ فعنف فلفه من ففة أن فكون لدفه اطمئنان واعتقاد بأن الله سبأانه لطفف بعباده ففوصل الففر إلفهم؁ وفلفه من ففة أخرى أن لا فقصّر فى أداء ما فمكنه الففام به من أجل الوصول إلى الففر الذى طلبه من الله.

وقد قلنا ففما فرجع إلى الأمل الآخروف بالله أنه لا فنبغف أن فقتصر أملنا بالله على عففران الذنوب والنجاة من عذاب الآخرة فقط؁ رغم أن مغفرة الذنوب تأتي فى الدرجة الأولى من ففث الأهمفة عند المؤمن؁ وفلفه أن فبذل قصارف ففده وأقصى سعه لكفلا ففبلف بعذاب الآخرة.





ومن هنا فقد عدَّت الآيات والروايات والأدعية طلب مغفرة الذنوب والنجاة من العذاب الإلهي أهم طلبات الإنسان من الله، فقد ورد في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ۝﴾^(١).

وكذلك في دعاء رفع المصاحف في ليالي القدر من شهر رمضان المبارك التي هي ليالي تقدير المصير وطلب أهم الطلبات من الله سبحانه، فإن الخلاص من العذاب الإلهي هو أبرز تلك الأدعية وأهم ما يطلبه الإنسان من الله فقد ورد فيه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِكِتَابِكَ وَمَا فِيهِ وَفِيهِ اسْمُكَ الْأَكْبَرُ وَأَسْمَاؤُكَ الْحُسْنَى، وَمَا يُخَافُ وَيُرْجَى أَنْ تَجْعَلَنِي مِنْ عَتَقَائِكَ مِنَ النَّارِ»^(٢).

فلا ريب في أن الخلاص من العذاب الإلهي يحظى بأهمية قصوى عند المؤمن، ولو قضى عمره كله بالسعادة، وكانت خاتمة العذاب الأبدي، فلا قيمة لذلك العمر إطلاقاً.

وفيما يرتبط بالآخرة فإذا ابتلي الشخص بالعذاب الأبدي، فإنه لن يفكر أبداً بدرجات الجنة ومصاحبة الصالحين فيها؛ لأنه يعلم أنه سيصاحب في جهنم أسوأ وأخس الموجودات، لكن بعد أن يتوب توبة حقيقية ويستغفر الله ويأمل من الله بطمأنينة وحسن ظن، فإنه سيرجو

(١) سورة آل عمران، الآيات ١٩٠ - ١٩٣.

(٢) مفاتيح الجنان، أعمال ليلة القدر.



٢٨٩



الخلاص من العذاب الإلهي، ويكون أمله وطلبه متوجّهاً نحو أسمى مقامات الجنّة.

فيجب على المؤمن أن تكون همّته عالية، وأن لا يقنع بالنجاة من عذاب جهنّم ونيل النعيم ولذات الجنّة من طعام وشراب فحسب، بل ينبغي أن يكون على رأس طلباته الوصول إلى مقام القرب الإلهي. ومن الطبيعي أنه إذا كان صادقاً في رجائه وأمله في القرب الإلهي وجب عليه بذل قصارى جهده في هذا المجال وأن لا يقصر فيه أبداً.

عناية الله الخاصّة بعباده المؤمنين

ثم إن الإمام عليه السلام وبالإضافة إلى المطالب والحاجات الدنيوية، يعرض مطالب معنويّة وأخرويّة ومقامات إلهيّة، ففي فقرة من هذه المناجاة يطلب المقامات المعنوية الأخروية السامية من الله تعالى قائلاً:

«كَيْفَ أَنْسَاكَ وَلَمْ تَزَلْ ذَاكِرِي، وَكَيْفَ
أَلْهُو عَنْكَ وَأَنْتَ مُرَاقِبِي، إِلَهِي بِذِيلِ
كَرَمِكَ أَعْلَقْتُ يَدِي، وَلَنَيْلِ عَطَايَاكَ
بَسَطْتُ أَمْلِي، فَأَخْلَصْنِي بِخَالِصَةِ
تَوْحِيدِكَ، وَاجْعَلْنِي مِنْ صَفْوَةِ عِبِيدِكَ».

كما أن الهداية الإلهيّة العامّة تشمل جميع الموجودات والناس، فإن جميع الموجودات تتمتع بذكر الله ونظرته الشاملة، فهو سبحانه لا ينساها، لكن ذكر الله والتفاتة التشرifi الخاصّ وهو الممتزج بالعناية والرحمة الخاصّة ويؤدّي إلى تكامل الإنسان وتقربه من معبوده، مثل



هذه الهداية الإلهية الخاصة تقتصر على الأشخاص الذين ساروا في طريق العبودية، ولازموا ذكر الله، وبواسطة هذا الطريق جعلوا أنفسهم لائقين لنيل اللطف والعناية الإلهية الخاصين، وهذا الذكر يكشف عن العلاقة المتبادلة بين العبد والخالق، ويتحقق في ظل ذكر العبد لله، ومن هنا يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾^(١).

وقد ورد الحديث عن هذا الارتباط المتبادل بين الخالق والمخلوق في كثير من آيات القرآن الكريم، ومنها ما ورد في مقام الحب والرضا، فالله يوجه حبه الخاص ورضاه نحو الذين يحبونه حباً صادقاً والذين رضوا عنه، فالله يحدثنا عن محبته الحقيقية الذين ملؤوا أنفسهم بمحبته قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(٢).

وقد ورد في بعض الروايات أن هذه الآية نزلت في أمير المؤمنين علي عليه السلام، والقسم الأول من الآية يخاطب أولئك القوم من الصحابة الذين غصبوا الخلافة وحق أهل البيت عليهم السلام، وارتدوا عن دينهم، وقوله ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ...﴾ إلى آخر الآية واردة في إمام العصر (عج) وأصحابه.

(١) سورة البقرة، الآية ١٥٣.

(٢) سورة المائدة، الآية ٥٤.



وفي رواية أخرى أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية فقليل له: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ فوضع يده على كتف سلمان وقال: «لو كان الإيمان في الثريا لنالته رجال من هَؤُلَاءِ»^(١).

وكذلك يخبرنا سبحانه حول الرضا المتبادل بين الله وعبده: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٢).

وفي آية أخرى تتحدث عن عباد الله المُخلصين من الذين نالوا رضاه: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ أَرْجَعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَُرْضِيَةً ﴿٢٨﴾ فَأَدْخِلِي فِي عَبْدِي ﴿٢٩﴾ وَأَدْخِلِي جَنَّتِي﴾^(٣).

إن الالتفات إلى العلاقة المتبادلة بين العبد وربّه يترك أثراً عميقاً في العبد ويثير فيه الدافع نحو المناجاة ويقوّي استعدادَه للحديث مع الله، وحينما يعتقد العبد أن الله ليس غافلاً عنه، فإنه سيضعف جهوده من أجل إصلاح سلوكه وعقائده وتعميق ذكره لله وتوجّهه نحوه.

وقد استعملت استعارة تخیلية في عبارة «إِلَهِی بِذِلِّ كَرَمِكَ أَعْلَقْتُ يَدَيَّ، وَلِنَيْلِ عَطَايَاكَ بَسَطْتُ أَمْلِي»، يعني أن الإنسان يتخیل في نفسه أن الله علّق في السماء ستارةً من رحمته وكرمه متجهة نحو الأرض، والعبد المحتاج إلى الرحمة والكرم الإلهي يأخذ بطرف وذيل هذه الستارة ويطلب من الله متوسلاً باكيّاً لتشمله رحمته وكرمه.

(١) الجوزي، تفسير نور الثقلين، الجزء ٢، الصفحتان ٢٥٢-٢٥٣، الأحاديث ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٥٠.

(٢) سورة المائدة، الآية ١١٩.

(٣) سورة الفجر، الآيات ٢٧-٣٠.



ومن يتشرف بالحج وزيارة مكة المكرمة حينما يشاهد ستارة الكعبة يغامره مثل هذا الشعور، ومن أجل أن ينال اللطف والعناية الإلهية يتعلق بأستار الكعبة قائلاً: «إلهي أمدُ يدي نحو كرمك وأتعلق بأستار لطفك وأطلب منك أن لا تحرمني من عفوك ورحمتك»، وهذا يتم أيضاً من خلال تصوّر العطايا والمِنح الإلهية وكأنها في حالة هطول دائم، فيمدُّ لها المرء يد حاجاته وآماله لينال بمقدار استيعابه من العطاء الإلهي ويحظى بالرحمة النازلة.

مقام عبودية أولياء الله واعتقادهم بالتوحيد الخالص

الاعتقاد والإيمان بـ«التوحيد الخالص» الذي طلبه الإمام عليه السلام من الله في مناجاته، هو أسمى مقام يناله أولياء الله وأعلى مطلب يمكن أن يطلبوه منه بعد الخلاص من العذاب الإلهي، وهذا المقام إنما يتحقق لمن أبعد عن نفسه جميع شوائب الشرك والالتفات إلى ما سوى الله، ولا يتوكل إلا على الله، ولا يرى سواه مالِكًا وحاكِمًا في الوجود، ولا رجاء له إلا به سبحانه، ولا يخشى إلا إياه، ولا يُحِبُّ أحداً غيره عزَّ وجلَّ، وبقيّة ما يحبه لا يعدو كونه تجلياً لمحبة الله وفي امتداد ذلك الحبّ الأصيل السامي.

إذاً فالتوحيد الخالص هو التوحيد في الاستعانة، والتوكل، والتوحيد في الخوف، والرجاء، والتوحيد في المحبة، والأسمى من ذلك كله «التوحيد في الوجود الاستقلالي»، يعني أن الموحّد يصل إلى مرحلة يرى فيها أن الوجود المستقل وجميع شؤونه خاصّة بالله وحده، وهذه الحقيقة لا يجدها في ظل المفاهيم الذهنية وفي ضوء البرهان العقلي فحسب، بل يعلمها بالعلم الحضورى والشهود [القلبي]، وساعتئذ لن يكون له علاقة استقلالية بغير الله، «أَنْتَ الَّذِي أَشْرَقَتِ الْأَنْوَارُ فِي قُلُوبِ



٢٩٣



أُولِيَّائِكَ حَتَّى عَرَفُوكَ وَوَحَّدُوكَ، وَأَزَلَّتِ الْأَغْيَارَ عَنْ قُلُوبِ أَحِبَّائِكَ، حَتَّى لَمْ يُحِبُّوا سِوَاكَ»^(١).

والواصل إلى مثل هذا المقام إنسان مثالي [كامل] في رأي الإسلام والقرآن، وهو يرى وحدانية الله بالنور الإلهي، ويقتلع من قلبه جذور التعلّق بكل ما سوى الله، ولا يُحِبُّ بالأصالة سوى الله، ومن هنا فكل ما يُنسب إلى الله سيكون محبوباً عنده.

وفي ضوء الرؤية القرآنية فإن أكثر الناس المؤمنين لا يكون إيمانهم خالصاً بل ممتزجاً بالشرك، قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾^(٢).

وكلما زادت معرفة المؤمن ومراتب إيمانه، نقص من شركه واقترب أكثر من التوحيد الخالص، وَرَجَحَتْ كِفَّةُ تَوْحِيدِهِ عَلَى كِفَّةِ شِرْكِهِ، ووصل في هذا السير الكمالي إلى موضع ينال فيه عقيدة وإيماناً راسخاً بالتوحيد الخالص، وزالت عنه جميع شوائب الكفر والشرك، وأصبح عبداً خالصاً لله، والوصول إلى التوحيد الخالص والعبودية المحضة هو أعلى درجة في مراتب الكمال، ونهاية مسير الإنسان نحو الله؛ ولذا يصف الله أشرف عباده وقيّمة أوليائه وأحبّ أحبائه إليه الذي أسرى به في معراجهِ قائلاً: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ عَائِيَّتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٣).

(١) مفاتيح الجنان، دعاء عرفة.

(٢) سورة يوسف، الآية ١٠٦.

(٣) سورة الإسراء، الآية ١.



ربما يمكن الادّعاء إن مصطلح «العبد» هو أسمى وصف وَرَدَ لرسول الله ﷺ في القرآن الكريم، ونحن في صلاتنا نكرّر كل يوم «وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله»، وفي هذه العبارة تحظى ميزة عبودية رسول الله ﷺ بالمرتبة الأولى من الأهميّة، وقد ذُكرت قبل ذكر مقام رسالته.

والإمام السجاد عليه السلام أيضًا يطلب من الله أن يجعله في زُمرَة أشدّ عباده خلوصًا.

تكون عبودية الله أحياناً ممزوجةً بعبادة غيره، وذلك في حالة ما لو التفت الإنسان إلى غير الله بالإضافة إلى التفاته إليه سبحانه، ولم يستطع إخراج محبة غير الله من قلبه، أما حينما يصبح الإنسان عبدًا خالصًا لله، فإن قلبه يكون زللاً وطارهراً ولا تحجبه الحُجب الدنيوية وخاليًا من أية كدورات ولا يشغله أي نوع من العلاقات غير الإلهية، فيتحوّل وجوده كلّهُ إلى عبودية شاملة، ولا يرى شأنًا يُذكر لكل ما سوى الله، فإن لسان حاله هو «يا إلهي اجعلني كما تُحبّ وتريد، حتى يصير سلوكي وتفكيري وأحوالي كما تريد أنت، ولا أفعل إلا ما تُحبّ وترضى، ولا يمنعني شيء عن ذكرك والتوجّه إليك».

ويخبرنا الله تعالى عن عباده المُخلصين الذين لا يرون لأنفسهم شأنًا ومقامًا غير عبوديته قائلاً: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَلَا بَصِيرَةٌ﴾^(١).

وَيَشْرَعَ الإمام عليه السلام - بعد طلب الخلاص من العذاب الإلهي، وطلب المقامات المعنوية والتوحيد الخالص - يشرع بالثناء على الله وذكر أسمائه وصفاته، ويطلب طلبات أخرى من قبيل الطلبات الدنيوية قائلاً:

(١) سورة النور، الآية ٣٧.



«يَا مَنْ كُلُّ هَارِبٍ إِلَيْهِ يَلْتَجِي، وَكُلُّ طَالِبٍ
إِلَيْهِ يَرْتَجِي، يَا خَيْرَ مَرْجُوٍّ، وَيَا أَكْرَمَ
مَدْعُوٍّ، وَيَا مَنْ لَا يُرَدُّ سَأَلُهُ، وَلَا يُخَيَّبُ
أَمَلُهُ، يَا مَنْ بَابُهُ مَفْتُوحٌ لِدَاعِيهِ، وَحِجَابُهُ
مَرْفُوعٌ لِرَاجِيهِ، أَسْأَلُكَ بِكَرَمِكَ أَنْ تَمُنَّ
عَلَيَّ مِنْ عَطَائِكَ بِمَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنِي، وَمِنْ
رَحَائِكَ بِمَا تَطْمِئُنُّ بِهِ نَفْسِي، وَمِنْ
الْيَقِينِ بِمَا تَهْوُوْنَ بِهِ عَلَيَّ مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا،
وَتَجْلُوْ بِه عَنْ بَصِيرَتِي غَشَوَاتِ الْعَمَى
بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ».

أرقى طلبات المؤمنين الدنيوية

إنَّ استمرار حياة الإنسان رهين بتوفير متطلباته واحتياجاته الدنيوية، وما
لم يتوفر للإنسان الطعام، والصحة، والملابس، وسائر الاحتياجات المادية
والنعم الدنيوية الإلهية، لن تتوفر له فرصة الحياة، والأهم من ذلك أنه لن
تتوفر له فرصة العمل بالتكاليف والحركة في مسير رضا الله، وبملاحظة
ضرورة الاحتياجات المادية والنعم الإلهية الدنيوية، يطلب الإمام عليه السلام
من الله هباتٍ وكرماً تقرُّ بها العيون.

ومن الواضح أن الإمام يطلب بعبارة «أَسْأَلُكَ بِكَرَمِكَ أَنْ تَمُنَّ عَلَيَّ
مِنْ عَطَائِكَ بِمَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنِي» الكرم المادي الدنيوي وما هو خارج عن
وجوده، ومع أن «العطاء» عام ويشمل الأمور المعنوية من قبيل الإيمان
والمحبة، فهو يشمل كذلك الأمور المادية أيضاً، ولكن بما أن طلبه عليه السلام



في هذه الفقرة جاء في مقابل الطلبات المعنوية في العبارات السابقة، فلذلك يبدو أنه ﷺ يطلب هنا العطاء المادّي، لكنّه عطاء كبير وتقرُّ به العين.

والاحتياجات المرتبطة بالمعدة والملابس والشهوة واحتياجات أخرى من هذا القبيل والتي تقع في يد المؤمن والكافر على حدٍ سواء، لا يمكن أن تكون قرّة عينٍ للمؤمن، وقد ضمن الله توفير هذه الاحتياجات للجميع، وأما النعمة التي تكون قرّة عين للمؤمن فهي ما يؤدّي إلى تكامله وكسب رضا الله، ويؤدّي إلى تقوية سيره في طريق عبودية الله وتنميتها.

والمؤمن يعتقد بحقيقة أن الله خلق العالم من أجل الإنسان، وقد خلق الإنسان ليصل إلى الكمال بسلوكه وعمله الاختياري، وليس هناك أي مخلوق آخر يليق بنيل هذا الكمال والرحمة الخاصة التي خصّ الله بها الإنسان، وحينما رأى المؤمن أن الله خلق موجودًا باسم الإنسان تليق به الرحمة الخاصة والكمال والسمو، فإن عينه إنما تقرّ فيما لو صار هو وسيلةً ومجرىً لتحقيق الإرادة الإلهية وخلق الولد الصالح الذي بواسطته يتحقّق هدف الخلقة، ألا وهو عبودية الله.

ومن الطبيعي أن استيفاء هذا المطلب والتمتّع بالولد الصالح لا يتحقّق إلا عن طريق اختيار الشريك [الزوج] الصالح، ومن هنا يكون الشريك الصالح والولد الصالح قرّة عين المؤمن، وعلى هذا الأساس ينقل الله سبحانه لنا كلام عباده الصالحين إذ يقولون: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾^(١).



طمأنينة النفس والسكينة الباطنية من أهم الاحتياجات النفسية



بعد أن يطلب الإمام السجاد عليه السلام تلك الأمور التي تقرّ بها الأعين، يردف طلبه من الله أن يمنحه السكينة الباطنية وسكينة النفس.

إن اطمئنان النفس ومقام اليقين الذي يطلبه عليه السلام من الله إنما هو من النعم الباطنية والسامية التي يمنحها الله لعباده الموحّدين، ومن أسوأ الحالات الروحية والنفسية التي يبتلي بها الإنسان هي عندما يكون متروكاً وحائراً، وهو ما يسبب له شعوراً بأن أحداً لا يحبه أو يهتم بأمره فيشعر أن الجميع - حتى أبوه وأمه وأبنائه وأقاربه - قد تخلّوا عنه وتركوه وحيداً وقطعوا عنه مساعدتهم، بل إنه يفقد أمله حتى بالله سبحانه وتعالى.

وحينما تشتد لدى المرء حالة اليأس من الآخرين تنشأ عنده حالة من الكآبة الشديدة التي قد تدفعه في بعض الحالات إلى الانتحار، وربّما تكون الآية ١٥ من سورة الحج ناطرةً إلى هذه الحالة: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كَيْدُهُ مَا يَعْتَظُّ﴾.

وقد قال كثير من المفسرين إن الآية الشريفة نزلت في رسول الله صلى الله عليه وآله وإن الضمير في «لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ» راجع إلى النبي صلى الله عليه وآله، وذلك أن مشركي مكّة كانوا يظنون أن الذي جاء به النبي صلى الله عليه وآله من الدين أحداثثة كاذبة لا تبتني على أصل عريق فلا يرتفع ذكره، ولا ينتشر دينه، وليس له عند الله منزلة حتى إذا هاجر صلى الله عليه وآله إلى المدينة نصره الله سبحانه وبسط دينه ورفع ذكره فغاضهم ذلك غيظاً شديداً ففرّعهم الله سبحانه



بهذه الآية وأشار بها إلى أن الله ناصره ولن يذهب غيظهم حتى لو خنقوا أنفسهم^(١).

ولكن بملاحظة أنه من أول السورة إلى هذه الآية لم يرد ذكرُ رسول الله ﷺ فمن المستبعد أن يكون ضمير «لن ينصره الله» عائداً إلى الرسول، والاحتمال الأقوى أن الضمير يرجع إلى «مَنْ» والأشخاص أنفسهم^(٢). وبناءً على هذا التفسير يكون مقصود الآية كل شخص يأس من الله وظن أن الله تركه لحاله، ولن يقدم له العون في الدنيا والآخرة، فمن الطبيعي أن تظهر عليه حالة الشعور بالتجاهل والكآبة الشديدة، فيمتنع عن معايشرة الآخرين وأداء أي دور إيجابي في المجمع، وتستولي عليه حالة من سوء الظن والحنق الشديد.

ولا شك أنه لا ينبغي له اليأس من الله، وعليه أن يؤمن بأن الله لا يتركه لوحده أبداً؛ ولذا يجب عليه أن يبعد عن نفسه الشعور بالوحدة واليأس والغضب الناشئ عن هاتين الحالتين النفسيتين الذميتين، وأن يعيش حالة الرجاء بالله، وفي ظل هذه الحالة عليه أن يحيي في نفسه الحيوية والسكينة والطمأنينة، وإذا لم يفعل ذلك فما عليه إلا أن يذهب إلى السماء ويعلق نفسه بحبل ثم يقطع ذلك الحبل حتى يقع على الأرض ليرى هل يُنهي ذلك غضبه، وهل علاج هذا الغضب غير المنطقي العبثي هو في أن يدمر نفسه؟

اليأس هو أسوأ ما يمكن أن يتعرض إليه الإنسان، وخاصة اليأس من الله؛ إذ يستتبع هذا النوع من اليأس ابتلاء الإنسان بالعزلة والكآبة.

(١) انظر: العلامة الطباطبائي، الميزان، الجزء ١٤، الصفحة ١٨٧.

(٢) هذا الاحتمال ذكره بعض المفسرين أيضاً، انظر: مكارم الشيرازي، تفسير الأمثل، الجزء ١٠، الصفحة



٢٩٩



فحينما يمتلك الإنسان رجاءً بالله ويعتقد أن تعامله مع الله، وأنه متصل بقدرته ورحمته اللامتناهية، ومهما تعرّض للمشاكل فإن الله سبحانه قادر على حلّها له، فحينئذٍ يزول الغم والهم من قلبه، ولن يخشى بعد ذلك أي شخص أو شيء، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١).

والولاية تعني تعلق الإنسان وارتباطه بالله، وقبول تدبيره وحاكميته المطلقة في وجوده، وأولياء الله هم الذين لديهم اتصال وارتباط واقعي مع الله، ويرون أنفسهم متعلّقين بالله تعلّقًا كاملاً، ويتوكلون عليه، ومن هنا فهم لا يخافون أحدًا سواه؛ لأنهم يؤمنون بأن جميع القوى تافهة صغيرة أمام القدرة الإلهية الأزلية.

وقد واجه الإمام الخميني رحمته الله في بدايات نهضته المباركة أحداثاً جسيمةً بيّد أنه يُقسم قائلًا: لم أخف مُطلقًا، وحينما ألقوا القبض عليه عام ١٩٦٣ وأخذوه من قم إلى طهران كان يقول: لم يداخلني أدنى خوف أو قلق، مع أن الضابط الذي كان جالسًا إلى جانبي في السيارة كان يرتجف من الخوف! وأمّا لنا نحن الذين أحسّنا بالخوف مرّات عديدة في حياتنا فإنّا نتعجّب من صلابة الإمام الخميني والروح القوية التي كان يتمتع بها وعدم الخوف من الأحداث التي كان من الممكن أن يتعرّض إليها، إنه لأمرٌ لا يُصدّق، فكيف يقع سماحته معتقلًا في يد عدوّه ويحتمل أنه سيتعرّض للتعذيب الرهيب، بل يحتمل أنه سيواجه عقوبة الإعدام، ومع ذلك لا يتأثّر مطلقًا ولا يتسرّب أي خوف إلى قلبه ولا يشعر بالقلق مما يمكن أن يتعرّض له؟ إن تلك السكينة وطمأنينة البال ناشتان

(١) سورة يونس، الآية ٦٢.



من التوكّل على الله ورجائه، ومع وجود مثل هذا الرجاء - وهو يعدُّ بحقّ نعمة كبرى - ومع تسليم الإنسان لإرادة الله ومشئته سوف لن يرى ما يؤثّر في العالم سوى الإرادة والمشئّة الإلهية، ومن الطبيعي أن لا يلتفت إلى ما سوى الله، ولا يخاف أحدًا غيره سبحانه.

دور التصديق بالنظام الإلهي الحكيم في تحمّل المصائب والمصاعب

لا ريب أن حياة الإنسان مقرونة بالمصائب والمصاعب وأنواع الابتلاءات، وهذه المصائب والمصاعب تؤدّي إلى أن يفقد الإنسان العادي قدرته على التحمّل فينفذ صبره ويعيش حالة الاضطراب ويُلقي الحزن والحسرة بظلالهما على قلبه؛ لذا يخبرنا الله سبحانه عن طبيعة الإنسان قائلاً: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٣﴾﴾^(١).

وقد نتصوّر أن الناس المرفّهين وساكني القصور لا يشعرون بأي قلق ولا يرد عليهم الحزن والحسرة، لكن الحقيقة هي أن مشاكلهم وشعورهم بالقلق واضطراباتهم النفسية أضعاف ما يتعرّض له الآخرون.

ونحن نجد اليوم أن أكثر الشعوب استهلاكًا للعقاقير المهدّئة للأعصاب هم الشعب الأمريكي وهم يُعدّون من أكثر الشعوب رفاهية وغنى في العالم، ويوجد في الولايات المتّحدة الأمريكية أكبر عددٍ من مستشفيات وعيادات علاج الأمراض النفسية بما يفوق أي بلد آخر في الدنيا.



٣٠١



ومن هذه الناحية فإن مشاكل الناس هناك والقلق الذي يعيشونه والكآبة والمشاكل النفسية تفوق ما تتعرض له سائر الشعوب الأخرى، وهذه المشاكل والقلق إنما يزول فيما لو ترسّخ الإيمان بالله في القلوب، وسلم الإنسان لما يقدره الله، وتيقن أن جميع الأمور لا تخرج عن دائرة القضاء والقدر الإلهي، وتتم بإرادة الله ومشيئته الحكيمة، كما قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾^(١).

والمؤمن يعتقد بحقيقة أن كل ما يحدث لا بد وأن يكون وراءه حكمة، وأن جميع الأمور بما فيها المزعجة منها والمشاكل التي يتعرض لها الأشخاص وكذلك ما يبعث على المسرة والسعادة كل ذلك تكمن وراءه حكمة، وعليه فإذا أصابت المؤمن مصيبة فإنه لا يحزن وإنما يرى أنها جاءت من عند الله وناشئة عن إرادة معبوده الحكيمة، فيسلم لإرادة الله ويرضى بالقضاء والقدر الإلهي. وكذلك إذا شملته نعمة فإنها لا تُشمله؛ لأنه يؤمن أن الخير والنعمة إنما هما لامتحانه ولا ينبغي أن يخرج بسببهما عن دائرة العبودية وطاعة الله، بل يجب عليه أن ينتفع بالخير والنعمة اللذين وفرهما الله له في طريق الخير والكمال.

وعندما يصل مثل هذا الإيمان إلى حد الكمال يُطلق عليه حينئذٍ «اليقين»، ولقد وردت روايات كثيرة في حقيقة الإيمان وخصائصه، منها ما ورد عن أمير المؤمنين عليّ (عليه السلام): «لَا يَجِدُ عَبْدٌ طَعَمَ الْإِيمَانِ حَتَّىٰ



يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ وَأَنَّ
الضَّارَّ النَّافِعَ هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»^(١).

فالمؤمن الواصل إلى مقام اليقين يؤمن أن الله قادرٌ، وحكيمٌ، ورحيمٌ، وحاكم على العالم، ثم إنه سبحانه يُقَسِّمُ عطاءه وكرمه على أساس مصلحة الأشخاص وقابليّاتهم، وكذلك يبتلي الأشخاص بالمصائب والمصاعب على أساس الحكمة والمصلحة، وعليه فإذا أصابته مصيبة وفقد شيئاً فإنه لا يتأذى؛ لأنه يعلم أن مثل هذا التقدير من مدبر العالم إنما جاء نتيجةً لحكمة وحسابات خاصّة، وكل ما يحدث هو لمصلحته، وإنما يقلق وينزعج خشية أن تكون المصيبة التي ابتلاه الله بها جاءت نتيجةً لتقصير بدّر منه أو لعصيانه أو بسبب تضييعه لحقّ من حقوق الناس، فإذا ابتلي شخصٌ بمصيبة - كأنْ فقد مالاً أو لحقته خسارة - فلا ينبغي له أن يفقد صبره ورباطة جأشه، بل عليه أن يراجع سلوكه، وإذا صدر منه خطأ أو تقصير عليه أن يسارع إلى تداركه، وأن يطلب العفو من الله، وإذا لم يصدر عنه تقصير أو خطأ فعليه أن يؤمن بأن الله يمتحنه بما ابتلاه به، إذًا عليه أن يسعى لاجتياز هذا الامتحان الإلهي مرفوع الرأس، وأن لا يفقد صبره ويرضى برضا الله سبحانه وتعالى.

هداية المؤمن ونجاته في ظل نور اليقين

القلب هو مركز المشاعر، والعواطف، والإدراك، والخوف والرجاء مرتبطان بالقلب. وفي ضوء الثقافة القرآنية هناك بالإضافة إلى العين الظاهرية عين باطنة تختص بقلب الإنسان، وتُسمّى «عين البصيرة»، وأحياناً تُسَدَل

(١) الكليني، أصول الكافي، الجزء ٢، الصفحة ٥٨، الحديث ٧.



٣٠٣



الحُجُب على عين القلب وتُصاب بالعمى نتيجة لذلك، وفي هذه الحالة يبتلي الإنسان بالغفلة والنسيان.

وانطلاقاً من تلك الثقافة القرآنية يطلب الإمام عليه السلام من الله تعالى أن يمنحه يقيناً يزيل حُجب الجهل والظلمة عن عين قلبه، ويُشير الباري سبحانه - وضمن توصيته بالسير والتجوال في الأرض والتأمل في مخلوقاته عزّ وجل وتأثير ذلك في تقوية بصيرة الإنسان والوقوف على حقائق الوجود ومواطن الجمال فيه - يشير أيضاً إلى إصابة عين القلب الإنسان وبصيرته بالعمى قائلاً: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾^(١).

وفي موضع آخر يخبرنا الله عن عمى عين بصيرة الكفار قائلاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٢).

وفي بعض الآيات القرآنية إشارة إلى أن الإعراض عن ذكر الله عاملٌ وسبب لعمى عين القلب وأن الشيطان يصبح قريباً للإنسان، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾^(٣).

(١) سورة الحج، الآية ٤٦.

(٢) سورة البقرة، الآيتان ٦-٧.

(٣) سورة الزخرف، الآية ٣٦.



وفي موضع آخر قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ (١) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (٢) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا كَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (٣).

فحينما يغفل الإنسان عن ذكر الله والأوامر الإلهية، وتتجذر الغفلة في فؤاده وتستوطنه يومًا بعد يوم، حينئذٍ يصل إلى مرحلة تنسد فيها منافذ الهداية والنور أمام قلبه، ولا يكتفي بتجاهل ذكر الله والقيامة، بل يُعرضُ عنهما إعراضًا تامًّا، بحيث ينزعج إذا ذُكر الله أو القيامة أو الموت أمامه، ويشعر بالسعادة حينما يجري الحديث عن الدنيا وخاصة إذا سمع أن البضاعة الفلانية التي يريد شرائها انخفض سعرها أو ارتفعت أسعار الأراضي أو البضائع التي يمتلكها، ويعيش في حالة صراع دائم من أجل الاستفادة القصوى من الإمكانيات الدنيوية والالتذاذ بنعيمها، وهو لا ينقطع عن الحديث عن الدنيا وذلك فقط هو الذي يمنحه الحيوية والسعادة، لكن حينما يجري الحديث عن أول ليلة له في القبر ومنكر ونكير، والعذاب الإلهي، والقيامة، بل عن الله، نرى وجهه ينقلب ويتعكّر، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٤).

رغم أن عبید الدنيا والمعرضين عن الله والمعنويات يتظاهرون بأنهم يرفلون بالراحة والنعيم، ومن يراهم أو يسمع بهم يتصور أنهم مسرورون وسعداء بلذات الدنيا، لكن الحقيقة هي أن الإعراض عن ذكر

(١) سورة طه، الآيات ١٢٤-١٢٦.

(٢) سورة الزمر، الآية ٤٥.

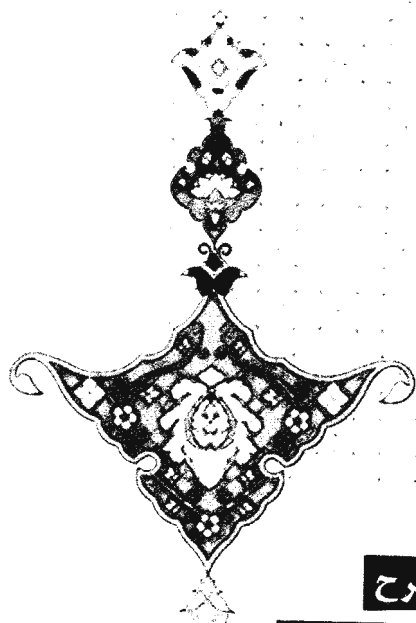


٣٠٥



الله والانفصال عن مبدأ الفيض والوجود، يجعل حياتهم صعبة لا تُطاق، فهم يعيشون في ضنك الضياع والوحدة والعزلة، ولا يجدون في أنفسهم وسيلة تبعث الطمأنينة والسكينة، وفي الآخرة يُحشر مثل هذا الشخص أصمّ وأعمى، وتعبير القرآن كما أن هؤلاء نسوا الله في الدنيا، فإن الله سوف ينساهم في الآخرة، فيحرمهم من نعيم الجنة اللامتناهي، ويخلدون في نار جنتهم وعذابها الجسدي والروحي^(١).

(١) قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿٣٦﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿٣٧﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشدُّ وَأَبْقَى ﴿٣٨﴾. سورة طه، الآيات ١٢٤-١٢٧.



شرح

مناجاة الراغبين



المقال العشرون البحث عن السموّ وكمالات الآخرة

«مناجاة الراغبين» هي إحدى المناجيات الخمس عشرة، و«الراغبين» جمع راغب من مادة «الرغبة» ويُستعمل بمعنى الحُبِّ، والميل. وأغلب التعابير التي استعملها الإمام السجاد عليه السلام في هذه المناجاة كانت من أجل إيجاد حالة التوازن بين الخوف والرجاء في الإنسان، يقول عليه السلام في



مطلع المناجاة:

«إِلَهِیْ إِنْ كَانَ قَلَّ زَادِي فِي الْمَسِيرِ
إِلَيْكَ، فَلَقَدْ حُسِّنَ ظَنِّي بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْكَ،
وَإِنْ كَانَ جُزْمِي قَدْ أَخَافَنِي مِنْ عُقُوبَتِكَ،
فَإِنْ رَجَائِي قَدْ أَشْعَرَنِي بِالْأَمْنِ مِنْ
نِقْمَتِكَ، وَإِنْ كَانَ ذَنْبِي قَدْ عَرَّضَنِي
لِعِقَابِكَ، فَقَدْ أَدْنَيْتَنِي حُسْنُ ثِقَتِي بِثَوَابِكَ،
وَإِنْ أَنَا مَثْنِي الْعَفْلَةُ عَنِ الْاِسْتِعْدَادِ
لِلْقَائِكَ، فَقَدْ نَبَّهْتَنِي الْمَعْرِفَةُ بِكَرَمِكَ



وَالْأَنْثَى، وَإِنْ أَوْحَشَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ فَرُطُ
الْعُضَيَانِ وَالطُّغْيَانِ، فَقَدْ آتَسَنِي بُشْرَى
الْعُفْرَانِ وَالرُّضْوَانِ».

المؤمن والتفكير في الآخرة وزاد مسيرها

كل فقرة من الفقرات المتقدمة للإمام عليه السلام - ومن خلال بيانه ما يوجد الخوف من العقاب وما يبعث على رجاء الإنسان بالله - تخلق حالة من التوازن بين الخوف والرجاء، ففي الفقرة الأولى يُشير عليه السلام إلى طول سفر الآخرة وقلة زاد المسير إليها، وهو ما يؤدي إلى قلق الإنسان، لكن من جهة أخرى يقول (سلام الله عيله) إن التوكل على الله والاعتماد على رحمته اللامتناهية يمنح الإنسان الأمل ويبعث على تطيب خاطره.

وإحدى الوصايا الشائعة في ثقافتنا الدينية ولها فائدة كبيرة جدًا هي تهئية الزاد والمتاع لسفر الآخرة، لكن هذه الوصية والتعبير الشائع حالها حال الكثير من التعبيرات والمفاهيم الرائجة في ثقافتنا الدينية التي فقدت واقعيتها وقيمتها الحقيقية، وتحولت إلى ما يشبه الشعار؛ إذ قلما يلتفت إلى عمق معناها ومضمونها.

ونحن كثيرًا ما نستخدم في حواراتنا اليومية التعبيرات الدينية دون أن نلتفت إلى مضمونها ومعناها، ومن أمثلة ذلك أننا كثيرًا ما نستعمل عبارة «إن شاء الله» تبركًا، لكن لا نلتفت إلى أن معنى هذه الجملة هو الاعتقاد بتوقف الأمور على المشيئة الإلهية، بمعنى أننا يجب علينا أن نوكل الأمور إلى المشيئة الإلهية، وأن نرى مشيئتنا وإرادتنا «لا شيء» أمام المشيئة الإلهية، وقد ورد في القرآن الكريم خطاب الله سبحانه للنبي الأكرم ﷺ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۚ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ



اللَّهُ وَأَذْكُرُ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا^(١).

كذلك حينما نودّع بعضنا البعض حين الفراق نقول عبارة مجاملة وتأدّب وهي «في أمان الله» ولا نلتفت إلى مفهوميها ومحتواها، حتى أن بعض الشيوعيين الذين لا يؤمنون بالله يودّع بعضهم بعضاً بقوله «في أمان الله»، ونحن كما نغفل عن مفاهيم الكثير من التعابير الدينية السائدة، نغفل أيضاً عن المخلوقات والأمور التكوينية التي نشاهدها باستمرار ولا نلاحظ ما يكمن فيها من النظام والحكمة الإلهية؛ ولذا يشكو الله سبحانه من الناس الذين يغفلون عن آياته حينما تحدث أمامهم قائلاً: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾^(٢).

التصوّر العام يرى أن سفر الآخرة يبدأ من حين الموت، ويعتقد أن زاد الآخرة يجب أن يُعدّ لما بعد الموت، لكن الحقيقة خلاف ذلك، لأن سفر الآخر يبدأ في الدنيا ومن حين البلوغ حيث تقع على عهدة الإنسان التكاليف الإلهية، وما دمنا نعيش في هذه الدنيا علينا إعداد الزاد والمتاع لينفعنا في الدنيا، وفي الآخرة يكون باعثاً على السكينة والراحة الأبدية حيث لا يوجد في الآخرة مجال للتزوّد بأي متاع. والإنسان في قبال هذا السفر الأبدي شبيه بمن ينوي السفر في هذه الدنيا، وسفره يبدأ من حين خروجه من باب منزله، وما دام في المدينة أو قريباً منها يمكن التزوّد بالمتاع وبما يحتاجه في السفر من حاجيات، لكنه بعد أن يبتعد عن العمران ويدخل في الطرق الخارجية المقفرة الجافة التي لا زرع فيها ولا

(١) سورة الكهف، الآيات ٢٣-٢٤.

(٢) سورة يونس، الآية ٩٢.



منازل، لن يستطيع حينئذٍ أن يتزود بما يحتاجه من متاع، فإذا تزود في بداية سفره وهو في المدينة بما يحتاجه من ماء وطعام، يمكنه حينئذٍ الاستفادة منه في هذه الصحراء القاحلة.

والخطأ الآخر الذي يقع فيه غالبية الناس هو أنهم يتصورون أن زاد الآخرة هو الصلاة والصوم فحسب، ولا يلتفتون إلى الأعمال التي يقوم بها الإنسان في سبيل الله وبقصد أداء التكليف، فلا يحسبون هذه من زاد الآخرة.

وقد اتضح أن سفرنا إلى الآخرة يبدأ من الدنيا، والإنسان طوال حياته في حالة سفر وحركة شاء أم أبى، وكل لحظة من عمره تمضي هي خطوة في سفره هذا، يطوي فيها مسافةً من المسير، وفي كل لحظة تقصُر المسافة نحو المقصد، وفي هذا المسير لا تتوفّر محطة توقف أو استراحة.

إذًا، لا ينبغي للإنسان أن يتصور الدنيا مستقرًا ووطنًا له، بل يجب عليه أن يعتقد أنها ممرٌ ومعبرٌ وجزء من المسافة في سفره الأبدي، وهي فرصة للتزود بالزاد للحياة الأبدية.

ومن هنا نجد الكثير من الكلمات المضيئة لأمير المؤمنين عليه السلام تكشف النقاب عن هذه الحقيقة وتنبّهنا إلى السفر والمقرّ الأبدي في الآخرة لكي نستعدّ من الآن ونفكر في التزود بالزاد الضروري.

يقول عليه السلام: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا الدُّنْيَا دَارٌ مَجَازٍ وَالْآخِرَةُ دَارُ قَرَارٍ. فَخُذُوا مِنْ مَمَرَكُمُ لِمَقَرَّكُمْ»^(١).



٣١٣



ويقول أيضاً: «وَأَحْذَرُكُمْ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا مَنْزِلُ قُلْعَةٍ وَلَيْسَتْ بِدَارٍ نُجْعَةٍ
قَدْ تَرَيَنْتُ بِغُرُورِهَا وَغَرَّتْ بِزِينَتِهَا»^(١).

وقد ورد في روايات أخرى أن الدنيا مثل الجسر يجب العبور منها، ولا ينبغي التعلق بها، فعن أبي حمزة الثمالي عن علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام أنه قال يوماً لأصحابه: «إخواني أوصيكم بِدَارِ الآخِرَةِ وَلَا أوصيكم بِدَارِ الدُّنْيَا، فَإِنَّكُمْ عَلَيْهَا حَرِصُونَ، وَبِهَا مُتَمَسِّكُونَ، أَمَا بَلَّغُكُمْ مَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام لِلْحَوَارِيِّينَ، قَالَ لَهُمْ: الدُّنْيَا قَنْطَرَةٌ، فَاعْبُرُوهَا وَلَا تَعْمُرُوهَا، وَقَالَ: أَيُّكُمْ يَبْنِي عَلَى مَوْجِ الْبَحْرِ دَارًا تَلْكُمُ الدَّارَ الدُّنْيَا، فَلَا تَتَّخِذُوهَا قَرَارًا»^(٢).

مراحل حياة الإنسان

يطوي الإنسان خلال حياته الدنيوية والأخروية عدّة مراحل، المرحلة الأولى ترجع إلى ما قبل الولادة حيث يكون جنيناً ينمو في بطن أمه، ثم بعد أن تُنفخ فيه الروح وتكتمل أعضاؤه يأتي إلى الدنيا وتبدأ بذلك المرحلة الثانية من حياته، يعني مرحلة الطفولة، وتجاوز المرحلة الجنينية (التي لا يصدر فيها من الإنسان أي سلوك اختياري)؛ وفي مرحلة الطفولة وقبل الوصول إلى سن التكليف لا يتوجّه إليه أي تكليف؛ لأنه ما يزال إذ ذاك غير ممتلك القدرة على التمييز والتشخيص، وسلوكه غير واعٍ ولا مسؤول بشكل تام؛ ولهذا السبب لا يُحاسب الإنسان على الأفعال التي صدرت منه في مرحلة الطفولة ولا يترتب عليها عقاب ولا جزاء.

(١) المصدر نفسه، الخطبة ١١٣.

(٢) الشيخ المفيد، الأمالي، الصفحة ٧٦.



والمرحلة الثالثة تبدأ من حين البلوغ والوصول إلى سنّ التكليف إلى آخر العمر، وفي هذه المرحلة من العمر يكون الإنسان مسؤولاً عن تصرفاته وأفعاله، وتوجّهه إليه تكاليف من قبل الله، ونتيجة إطاعة الله والعمل بالتكاليف يستحقّ الأجر والثواب، وإذا خالف التكاليف الإلهية فإنه يستحقّ العقاب.

والمرحلة الرابعة هي عالم البرزخ، يعني من حين الموت إلى يوم القيامة، وفي هذه المرحلة يستفيد الإنسان من آثار ونتائج سلوكه في هذه الدنيا، ولا يصدر منه سلوك جديد في الآخرة؛ لأنه بعد الموت تُسدل الستارة على ملف أعمال الإنسان وسلوكه.

نعم تُشير بعض الروايات إلى أن عمل الإنسان الصالح يستمرّ في العطاء حتّى بعد الموت، ويأتيه باستمرار ثواب متجدّد منه ليسجّل في كتاب أعماله، فقد وَرَدَ في رواية عن رسول الله ﷺ: «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا عَنْ ثَلَاثٍ: وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ، وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، وَصَدَقَةٌ جَارِيَةٌ»^(١).

والمرحلة الخامسة من حياة الإنسان تكون في الآخرة؛ إذ بعد البرزخ تبدأ القيامة الكبرى وتلك الحياة الأبدية التي لا نهاية لها، وفي ذلك العالم تظهر نتائج ما عمله الإنسان في الدنيا، وكل متاع أعدّه الإنسان لنفسه في الدنيا سوف يستفيد منه في الآخرة، ولا مجال للقيام بأي عمل جديد، ولا لتدارك الأفعال القبيحة كما ورد في الرواية: «وَأَنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابَ، وَعَعْدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَلٌ»^(٢).

(١) المحذّث النوري، مستدرك الوسائل، الجزء ١٢، الباب ١٥، الصفحة ٢٣٠، الحديث ٦.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ٤٢.



٣١٥



إن الشخص الذي لم ينتفع بشكل صحيح من فرصة العمر ولم يحضر زادًا ومتاعًا لسفر الآخرة، وكان غافلاً عن الله وأسيرًا للشيطان وهوى النفس، وغارقًا في طلب اللذات والتمتع بالدنيا وممتنعًا عن طاعة الله والقيام بالأعمال الصالحة التي تنفعه يوم القيامة، مثل ذلك الشخص سوف يُدرك بعد الموت - حيث ينكشف عن عينيه الغطاء وتزول الحُجب فتتجلى له الحقائق - أنه أضاع عمره هدرًا، ولم يدخر لنفسه سوى الوزر والوبال والعذاب، وحينئذٍ سوف يتمنى لو يرجع إلى الدنيا مرةً أخرى ليتدارك أعماله القبيحة ويؤدي أعمالاً صالحة، لكن هذا الأمل سراب ولا سبيل أمامه للعودة أبدًا، وعليه أن يجعل جهنم مأواه الأخير وأن يتحمل جزاء أعماله القبيحة، ويقرر القرآن حال أمثال هؤلاء قائلًا: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١٥﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾.

وحَتَّى الشفاعة يوم القيامة [لن تكون من نصيب أي كان بل لا ينالها إلا] الذين كانوا مؤمنين بالله في الدنيا ومؤمنين بولاية أهل البيت عليهم السلام وقاموا بالأعمال الصالحة فجعلوا أنفسهم بذلك لائقين لنيل الشفاعة.

فالشفاعة أيضًا تأتي نتيجةً لإيمان الإنسان وعمله الصالح في الدنيا، ولا تتوفّر أرضية تحقّقها في الآخرة، وكل إنسان عليه أن يوفر لنفسه في الدنيا أرضية تلقّي الشفاعة في الآخرة، وعليه فالكفّار لا يكونون موردًا للشفاعة ولا تنفعهم الشفاعة أيضًا، ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ ^(١).

(١) سورة المؤمنون، الآيتان ٩٩ - ١٠٠.

(٢) سورة المدثر، الآية ٤٨.



ضرورة الاستفادة من العمر من أجل منزل الآخرة الأبدي

هل فكرنا يومًا أن عمرنا في هذه الدنيا لا شيء يُذكر أمام الحياة الأبدية في الآخرة، ولو عشنا مئة عام بل لو عشنا ألف عام في هذه الدنيا فإنه لا شيء أمام عمرنا الأبدي في الآخرة؟ إن المئة عام تمرُّ وكأنها طرفة عين، وعمرنا في هذه الدنيا حتى لو كان طويلًا فهو مع ذلك محدودٌ، ولا يُعد شيئًا مقابل العمر الأخروي الذي لا حدَّ له، ومع اتّضاح هذا الأمر هل يليق بالإنسان العاقل أن يبذل كل همّه وجهده للاستفادة من الدنيا وملذّاتها، دون أن يولي الآخرة أي اهتمام؟

يجب علينا أن نصدّق بأن الآخرة هي منزلنا الأبدي وأن نؤمن بأنها الأمر الأصيل والدنيا تابعة لها ومقدّمة للوصول إليها، وأن انتفاعنا من الدنيا إنما هو من أجل استمرار الحياة وفي حدٍّ يمنحنا القدرة الضرورية للعمل بالتكاليف وطَيّ المسير نحو الآخرة، وعلينا أن ندّخر متاعنا وزادنا الأصلي لحياة الآخرة الأبدية، ولا ينبغي لنا أن نتعلّق بمرحلة الدنيا القصيرة، بل علينا بذل كل جهودنا في سبيل الآخرة، وأن نصبغ انتفاعنا من الدنيا بصبغةٍ إلهية، وأن نفكر جيّدًا بأن أعزّ الأشخاص لنا سوف يفرّ منّا وينسانا، ولن يبقى لنا إلا العمل الصالح الذي قمنا به في الدنيا، فهو الشيء الوحيد الذي ينفعنا ذلك اليوم ويؤدّي إلى نجاتنا من العذاب الإلهي، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۖ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۖ وَصَحْبَيْهِ وَبَنِيهِ﴾^(١).

إن عظمة يوم القيامة وهولها يبلغ حدًّا يفرّ فيه الإنسان من أخيه الذي كان مستعدًّا في الدنيا للتضحية بحياته من أجله، ومن أولاده الذين هم أغلى من روحه وكان يضحي براحته من أجل إسعادهم، وقد



٣١٧



بذل جهودًا كبيرةً في تربيتهم والإنفاق عليهم، بل سوف ينسى الإنسان حتى أمه وأباه اللذين هما أكثر الناس اهتمامًا به ومحبةً له، وكل إنسان سيكون منشغلًا بنفسه فحسب، ولن يكون له هم سوى الحساب الإلهي والعاقبة التي سيعينها الله له [وفقًا لأعماله].

إننا نسير في سفرٍ طويل ومقصدا هو تلك الدار الأبدية التي يكون النعيم فيها خالدًا كما أن العذاب فيها خالدٌ كذلك، والمقامات المعينة في تلك الدار لأهل الجنة والصالحين لا يمكننا إدراك مراتبها والفواصل بينها، بل إننا لا نقدر على إدراك الاختلاف بين مقام سلمان ومقام أبي ذر، فما بالكم بإدراك وفهم البون بين مقام رسول الله ﷺ والأئمة المعصومين عليهم السلام وبين أصحابهم.

إن عظمة مقامات الجنة والمسافة بينها تبلغ حدًا بحيث لو عشنا أضعاف عمرنا ولو أعطانا الله سبحانه طول عمر نوح عليه السلام وقضيته في طلب الآخرة، فإن جميع جهودنا لا تقع في أدنى أفق درجات الآخرة ومقاماتها؛ لأن الحياة الدنيا لا يمكن مقارنتها بالحياة الآخرة.

وحينئذ علينا أن نتصور ما هو حال من يريد الوصول إلى أعلى مقامات الجنة ويسعى بأعماله في الدنيا لأن يكون لائقًا بنيل تلك المقامات السامية، وإلى أي حد يجب أن تتركز أفكاره في سبيل الله وأن تكون خالصةً له؟ وأما مع أفكارنا المشوشة المشتتة حتى في حالة المناجاة والدعاء فلا يمكننا صرف أفكارنا عما سوى الله وتركيزها عليه سبحانه فقط، وبذلك لا نستحق أدنى مراتب الجنة ومقاماتها، فضلًا عن أعلى وأسمى مقامات الجنة التي هي لخاصة أولياء الله، كأمير المؤمنين عليه السلام الذي كان كل تفكيره وحركاته وسكناته من أجل الله، وتوجههم في أعلى مستويات التركيز من أجل الله وخالصةً له، ومع



امتلاكهم المعرفة العالية بمقام الله سبحانه، لا يمكن لأي شيء أن يحدث خلاً في توجههم إلى الله أو أن يصرفهم عن ذكره سبحانه.

عظمة عبودية أمير المؤمنين عليه السلام لله سبحانه

بعد صلح الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية صارت الحكومة كلها في قبضة معاوية وبني أمية، واضطر الشيعة للذهاب إلى بلاط معاوية لحل مشاكلهم القضائية أو التي تخلقها لهم أجهزة الحكم الأموية. وكان معاوية يستغل هذه الفرصة لإهانة الشيعة في محضر من الناس وعلية القوم قائلاً لهم: ماذا نلت بعد سنوات من الحرب في ركاب علي بن أبي طالب؟ انظروا إلى ما وصلنا إليه فقد صارت الحكومة والسلطة بأيدينا، وأنتم مضطرون لمراجعتنا كي نحل لكم مشاكلكم.

وفي هذه المجالس كان معاوية أحياناً يطلب من أتباع علي عليه السلام أن يتحدثوا له عنه ليهيج ويحد أحزانهم ويمعن في إهانتهم، وكان من هؤلاء الذي دخلوا على معاوية ضرار بن أبي ضمرة حيث ورد عليه شاكياً له أحد ولاته، فطلب منه معاوية أن يصف له علياً عليه السلام فقال ضرار: «كان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل ووحشته. كان والله غزير العبرة، طويل الفكرة، يقلب كفه، ويحاسب نفسه، ويناجي ربه، يعجبه من اللباس ما خشن، ومن الطعام ما جش، كان والله فينا كأحدنا، يدنينا إذا أتينا، ويجيبنا إذا سألناه، وكنا مع دنوه منا وقربنا منه لا نكلّمه لهيبته، ولا نرفع أعيننا إليه لعظمته، فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم. يعظم أهل الدين، ويحبّ المساكين، لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله، فأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله، وغارت



٣١٩



نجومه، وهو قائم في محرابه، قابض على لحيته، يتململ تمللم السليم، ويبكي بكاء الحزين، فكأنّي الآن أسمعُه وهو يقول: «يا دنيا يا دنيا! إليك عني، أبي تعرّضت؟ أم إليّ تشوّقت؟ لا حان حينك، هيهات هيهات غريّ غيري، لا حاجة لي فيك، قد طَلَقْتُكَ ثلاثاً لا رجعة لي فيها، فعيْشُكَ قَصِيرٌ، وَخَطَرُكَ يَسِيرٌ، وَأَمْلُكَ حَقِيرٌ، آه مِنْ قِلَّةِ الزاد، وطول الطريق، وَبُعد السفر، وَعِظَمُ المورد». فوكفت دموع معاوية على لحيته، فنشّفها بكمّهِ، واختنق القوم بالبكاء، ثمّ قال: كان والله أبو الحسن كذلك، فكيف صبرك عنه يا ضرار؟ قال: صبر من دُبِحَ واحدُها على صدرها، فهي لا ترقأً عبرتها، ولا تسكن حرارتها، ثمّ قام فخرج وهو باك^(١).

نعم! أمير المؤمنين الذي حفظت شجاعته وتضحياته الإسلام وأدامت بقاءه، وأوّل من آمن بالنبي ﷺ وبقي راسخ الإيمان حتى نهاية عمره. وهو الذي كانت ضربته لعمر بن ودّ العامري أفضل من عبادة الثقلين من الجن والإنس، وهو الذي كان دائم الانشغال بعبادة الله ولم يَلْتَهُ عنه حتّى حينما كان منشغلاً بالعمل في الأرض وزراعتها، وكان يصلي كل يوم ألف ركعة، وهو القدوة والرائد في مساعدة الفقراء والمعوزين، ولم يترك الكفاح والعمل حتّى أنشأ الكثير من البساتين والمزارع وحفر بيده كثيراً من الآبار حتى بلغ عددها ستاً وثلاثين، وقد جعلها كلّها وقفاً للناس، وأخيراً هو الشخص الذي أمضى عمره كلّهُ في سبيل الله ولم يغفل لحظةً عن ذكره عزّ وجلّ، مع ذلك كله نراه يعدّ زاده قليلاً، ويُعلن أنه لا يمتلك شيئاً يقدّمه بين يدي الله.

(١) الديلمي، إرشاد القلوب، الصفحة ١٩٤.



وها هو الإمام السجاد عليه السلام - وهو الخلف الصالح لأمر المؤمنين
- يرى بدوره أنَّ زاده قليل، ويتَّكل على الله وينظر إلى لطفه وعنايته
اللامتناهية، ويرجو لطفه العظيم لنيل الأمان من العذاب الإلهي.





المقال الحادي والعشرون محفل الأنس بالمعبود وجوار قربه

آفاق الكمال العالية

في الفقرة المتقدمة من مناجاة الراغبين كان الإمام السجاد عليه السلام يسعى إلى إيجاد حالة من التوازن بين حالتي الخوف والرجاء وذلك بملاحظة صفات الجلال والجمال الإلهي؛ لأنه بصفّ عوامل الرجاء قبّال عوامل الخوف من الله سوف لن يُقهر الإنسان لخوف الله، فحينما يشعر شخصٌ بخوفٍ شديد من شخص آخر وتسيطر عليه تلك الحالة، فإنه يفرُّ منه ولا يسعى للحوار معه. وما لم تتوفّر لدى الإنسان حالة الأنس بالله فإنه لن يعتمد إلى مناجاته والحديث معه.

ورغم أن عوامل الخوف تمنع الإنسان من التوجّه والاتّفات إلى الله وتثير الخوف في نفسه، لكن في المقابل تؤدّي البشارة بالرحمة والمغفرة الإلهية إلى توفير أرضية الأنس بالله، ونتيجة ذلك هو إقبال الإنسان على الحوار مع الله والخلوة به، وحينما يذوق طعم الأنس بالمعبود تشتدّ لديه حالة الرغبة بالأنس معه، ويتألم كثيرًا فيما لو أضاع فرصة مثل هذه المناجاة والحوار.



الشخص الخائف من ذنوبه من جهة، الآمل عفو الله ومغفرته من جهة أخرى، يطلب في المرحلة الأولى أن يغفر الله له ذنوبه وينجيه من نار جهنم، ولا يتجرأ على طلب حاجات أكبر كنبيل المقامات العالية.

بينما يعلمنا الإمام السجاد عليه السلام في هذه المناجاة كيف تكون هممتنا عالية، وكيف أن علينا في الحوار مع الله أن نطلب الدرجات الرفيعة، يقول عليه السلام:

«أَسْأَلُكَ بِسُبُحاتِ وَجْهِكَ وَبِأَنْوارِ
قُدْسِكَ، وَأُبْتَهِلُ إِلَيْكَ بِعَوَاطِفِ رَحْمَتِكَ
وَلَطَائِفِ بَرِّكَ، أَنْ تُحَقِّقَ ظَنِّي بِمَا أُؤَمِّلُهُ
مِنْ جَزِيلِ إِكْرَامِكَ، وَجَمِيلِ إِنْعَامِكَ فِي
الْقُرْبَى مِنْكَ، وَالزُّلْفَى لَدَيْكَ، وَالتَّمَتُّعِ
بِالنَّظَرِ إِلَيْكَ».

«سُبُحات» بمعنى مظاهر وتجليات، ومصطلح «وجه» حينما يُنسب إلى الله يُقصد به الذات الإلهية من حيث التجلي والظهور، وبناءً على هذا يكون «سُبُحات وجهك» بمعنى تجليات الله، وإضافة «أنوار» إلى «قدسك» يصرف ذهننا عن الأنوار المادية إلى الأنوار المجردة والقدسية الإلهية.

وقد أطلق في بعض آيات القرآن الكريم «النور» على الله سبحانه من قبيل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١).



تبيّن هذه الآية أسمى وأوضح علاقة بين الله والعالم، وهو أن الله نور الوجود، يعني يُخرج العالم من ظلمة العدم ويدخله نور الوجود، وبأنواره وتجليّاته الوجودية يمنح العالم الوجود والتحقّق.

وكما لو أن شخصاً يقطع طريقاً جبليّاً في ظلام دامس، وتمكّن بصعوبة من تجاوز الوديان والتلال والمنحدرات الصخرية، وبعد أن تجاوز الطرق الجبلية الملتوية الصعبة يجد نفسه فجأة أمام سهل واسع ويشاهد نوراً باهراً من بعيد، فيضطرب ويرقص قلبه فرحاً من أجل الوصول إلى ذلك النور، ويوقد ذلك النور في نفسه بارقة أمل ويوجد فيها حالة من الفرح بحيث ينسى كل المصاعب التي واجهها.

كذلك الإمام عليه السلام بعد أن ينظر إلى عوامل الخوف وما يؤدّي إلى العذاب الإلهي، يوجّه القلب نحو أنوار ذات القدّوس، ويُقسم على الله بتلك التجلّيات والأنوار أن يقربه إلى جواره، وأن يمتّعه بالنظر إليه.

وكان الفقرة السابقة من المناجاة تبيّن حال الشخص المُلتفت إلى نقصه وتقصيره، وحينئذٍ يرى أمامه مشهداً استثنائياً ويجد نفسه بجوار محيط الرحمة الإلهية اللانهائي فيغمره الشوق والوجد ويرجو أن يتّصل بمحيط الرحمة الإلهية الذي لا حدّ له، وأن ينتفع بتجلّيات الأنوار الإلهية، ورغم أنه يجد المسافة بينه وبين التجلّيات الربوبية شاسعة، ومن الطبيعي أن تؤدّي معرفته بنقصه وظروفه الخاصّة إلى منعه من الرجاء الزائد، وتنبيهه تلك المعرفة إلى أن عليه أن يرجو ويأمل بمقدار طاقته واستيعابه، وأن يفكر بالاحتياجات المناسبة لظروفه، بيد أنه لا يستطيع صرف نظره عن آفاق الكمال السامية، فيطلب من الله بهمة عالية وبرؤية شخص يمتلك أكبر استيعاب وجودي أن ينال مقام القرب وجوار المعبود السرمدي، ويرجوه أن لا يحرمه من التمتع بالنظر إليه.



عجز الإنسان عن إدراك الحقائق السامية

لا ريب أن معرفة تجليات الذات الربوبية وأنوارها أمرٌ خارج عن فهمنا، وذلك راجع إلى محدوديتنا، فلا يمكننا فهم الحقائق اللامتناهية والمجردة، كما أننا لا نستطيع إدراك حقيقة الأسماء، والصفات، والأفعال الإلهية، بل نحن نجهل حتى كُنه العلاقات القائمة بين الله وبين عباده.

ومن الطبيعي أننا حينما لا نملك فهماً حقيقياً وصحيحاً للأفعال والصفات الإلهية نكون عاجزين عن فهم حقيقة الذات الإلهية وكُنْهها، فمعرفة تلك الحقائق إنما هي معرفة ناقصة، وفي بعض الموارد تكون معرفةً خياليةً وغير واقعية، وكمثال على ذلك، أنه حينما يجري الحديث عن خَلْقِ العالم - وهو أحد الأفعال الإلهية - فإن البعض - بما أنهم عاجزون عن تصوّر الخلق من عدم ولا يمكنهم فهم كيفية خلق شيء بالإرادة الإلهية أو انعدام موجود بتلك الإرادة - يتخيلون أن «عمل الخلق الإلهي» عبارة عن وضع النطفة في الرحم وتبديلها إلى جنين، ونمو ذلك الجنين حتى يولد ويصبح طفلاً، لكن الحاصل في هذه العملية إنما هو تغييرٌ في أمور موجودة، لا الخلق بمعنى الإيجاد من عدم. وبملاحظة هذه الفهم الخاطئ للخلق وعدم إدراك إيجاد وخلق الشيء المسبوق بالعدم، ذهب بعض العلماء إلى أن المادّة الأولى للكائنات موجودةٌ منذ الأزل، وعمل الله في مقام الخلق هو بتغيير تلك المادّة الأولى، بمعنى أن الله بإيجاده التغييرات في المادّة الأولى للوجود، وبعد ذلك في المواد الثانوية، يُنشئ أشياء جديدة.

ومن الأفعال الإلهية التي لا يمكننا إدراكها عمل الإحياء ونفخ الروح في الموجودات الناشئة من الطبيعة الميتة، فإرادة الله ينمو الجنين في رحم أمّه وتتكوّن أعضاؤه، ثم تُنفخ الروح في ذلك الجنين، وبعد أن كان



٣٢٥



ذلك الجنين بلا روح، يتحوّل إلى كائن حيّ، وليس من المفهوم عندنا كيف أن الشيء الناشئ من التراب والطبيعة يصبح ذا روح وحياء. كما لا نستطيع أن نفهم الروح نفسها بشكل صحيح وكيفية نفخ الروح في الجسد.

وبملاحظة جهلنا بعملية إحياء الموتى، فإن نبي الله إبراهيم عليه السلام بعد أن بلغ مقام النبوة وصار خليلاً لله ومنحه الله أعلى المقامات ومنها العصمة، نجده يطلب من الله أن يريه كيف يحيي الموتى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَظْمَنَ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(١).

كان إبراهيم عليه السلام يريد أن يشهد حقيقة فعل الإحياء، لا مجرد رؤية إحياء الموتى بالعين الظاهرية. فالذي لم يكن معلوماً لديه هو حقيقة إحياء الله للموتى، وإلا فإن كيفية إحياء الموتى كانت معلومةً لديه وواضحةً عنده؛ فبالعين الظاهرية يمكن أن يرى إحياء الميت، كما أن عيسى عليه السلام أحيا ميتاً أمام أعين حوارييه، فشاهد الجميع إحياءه وقيامه من قبره كما ورد في مرفوعة ابن أبي عمير: «إِنَّ أَصْحَابَ عِيسَى عليه السلام سَأَلُوهُ أَنْ يُحْيِيَ لَهُمْ مَيِّتًا، قَالَ: فَاتَى بِهِمْ إِلَى قَبْرِ سَامَ بْنِ نُوحٍ، فَقَالَ لَهُ: قُمْ يَا ذَنْ اللَّهِ يَا سَامَ بْنَ نُوحٍ، قَالَ: فَانْشَقَّ الْقَبْرُ، ثُمَّ أَعَادَ الْكَلَامَ فَتَحَرَكَ، ثُمَّ أَعَادَ الْكَلَامَ فَخَرَجَ سَامُ بْنُ نُوحٍ، فَقَالَ لَهُ عِيسَى: أَيُّهُمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ: تَبْقَى أَوْ تَعُودُ؟ قَالَ: فَقَالَ: يَا رُوحَ اللَّهِ بَلْ أَعُودُ، إِنْ لَأَجِدُ حُرْقَةَ الْمَوْتِ - أَوْ قَالَ: لَدَغَةَ الْمَوْتِ - فِي جَوْفِي إِلَى يَوْمِي هَذَا»^(٢).

(١) سورة البقرة، الآية ٢٦٠.

(٢) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ١٤، الباب ١٨، الصفحة ٢٣٣، الحديث ٢.



وفيما يرتبط بطلب إبراهيم عليه السلام من الله سبحانه يقول العلامة الطباطبائي: «إبراهيم عليه السلام إنما سأل أن يشاهد كيفية الإحياء لا أصل الإحياء، كما أنه ظاهر قوله «كيف تحيي الموتى»، وهذا السؤال متصور على وجهين: الوجه الأول: أن يكون سؤالاً عن كيفية قبول الأجزاء المادية الحياة، وتجمعها بعد التفرق والتبدد، وتصورها بصورة الحي، ويرجع محصله إلى تعلّق القدرة بالإحياء بعد الموت والفناء. الوجه الثاني: أن يكون عن كيفية إفاضة الله الحياة على الأموات وفعله بأجزائها الذي به تلبس الحياة، ويرجع محصله إلى السؤال عن السبب وكيفية تأثيره، وهذا بوجه هو الذي يسمّيه الله سبحانه بملكوت الأشياء في قوله عز من قائل: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٢١) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢). وإنما سأل إبراهيم عليه السلام عن الكيفية بالمعنى الثاني دون المعنى الأول: أما أولاً: فلأنه قال: «كيف تحيي الموتى»، بضم التاء من الإحياء، فسأل عن كيفية الإحياء الذي هو فعل ناعت لله تعالى وهو سبب حياة الحيّ بأمره، ولم يقل: كيف تحيي الموتى، بفتح التاء من الحياة حتى يكون سؤالاً عن كيفية تجمع الأجزاء وعودها إلى صورتها الأولى وقبولها الحياة، ولو كان السؤال عن الكيفية بالمعنى الثاني لكان من الواجب أن يرد على الصورة الثانية، وأما ثانياً: فلأنه لو كان سؤاله عن كيفية قبول الأجزاء للحياة، لم يكن لإجراء الأمر بيد إبراهيم وجه، ولكفى في ذلك أن يريد الله إحياء شيء من الحيوان بعد موته، وأما ثالثاً: فلأنه كان اللازم على ذلك أن يختم الكلام بمثل أن يُقال: واعلم أن الله على كل شيء قدير، لا بقوله: واعلم أن الله عزيز حكيم، على ما هو المعهود من دأب القرآن الكريم؛ فإن المناسب للسؤال



المذكور هو صفة القدرة دون صفتي العزّة والحكمة؛ فإن العزّة والحكمة - وهما وجدان الذات كُل ما تفقده وتستحقّه الأشياء وإحكامه في أمره - إنما ترتبطان بإفاضة الحياة لا استفاضة المادّة لها، فافهم ذلك»^(١).

عجز الإنسان عن إدراك حقيقة الرحمة والغضب الإلهيين

تكلّمنا مرارًا عن رحمة الله وغضبه، لكنّنا لا نستطيع أن ندرك الرحمة والغضب الإلهيين إدراكًا حقيقيًا وواقعيًا. والشيء المعلوم لدينا هو رحمة وغضب الناس تجاه بعضهم البعض، وهو ما يكون مصحوبًا بالانفعالات وتغيير الحالات وردود الفعل الخاصّة، ولا ريب أن هذه الانفعالات وتغيير الحالات لا توجد في الله سبحانه الذي هو مجرّد وثابت. إذًا فهذا النوع من الصفات - في الواقع - مُنتزَعٌ من علاقاتنا [بعضنا ببعض] ثم نجزّدها من الجوانب المادّية والنواقص ونطلقها على الله سبحانه، وبملاحظة عدم إمكانية إدراك ذات الله وصفاته وأفعاله، فإن حقيقتها غير معلومة لنا.

وفي الجملة نحن نعلم أن الله رحيم ونشاهد آثار رحمته عيانًا، لكنّنا لا نقفُ على حقيقتها.

وقد تحدّث الله سبحانه بنفس قوالب الألفاظ والمفاهيم التي نستعملها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٢)، أو قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّمَن مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾^(٣).

(١) الميزان في تفسير القرآن، الجزء ٢، الصفحة ٢١١.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٥٦.

(٣) سورة الأنعام، الآية ٦.



وكذلك نقرأ في دعاء الجوشن الكبير: «يَا مَنْ سَبَقَتْ رَحْمَتُهُ غَضَبَهُ»، لكن مع ذلك نحن لا نعرف حقيقة الرحمة الإلهية ولا حقيقة الغضب، ولا سَبَقَ رَحْمَتُهُ لَغَضَبِهِ. نعم لله سبحانه وتعالى عناية ولطف خاص ببعض عباده الْمُصْطَفَيْنِ الخواص وهو يمنحهم نورانيةً في قلوبهم يصلون بها إلى ما هو أبعد من المفاهيم والأوهام الموجودة في أذهاننا التي يُخَيِّلُ إلينا أننا يمكننا بواسطتها معرفة حقائق الوجود، فيدرك أولئك الخواص ملكوت الأشياء وحقائقها، ويعرفهم الله تجليات صفاته، كما أخبرنا سبحانه عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾^(١).

مفهوم وجه الله

كما شاهدنا فإن الإمام السَّجَّاد عليه السلام استعمل - في الفقرة مورد البحث من مناجاته - عبارة «سُبْحَات وجهك» و«أنوار قُدْسِكَ». وتعبير «وجه الله» مستعمل بكثرة في القرآن الكريم وفي ثقافتنا الدينية، وقد جاءت في ذلك توصيتنا بأن نطلب وجه الله، وكمثال لذلك قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلْ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٢) وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لَّيْرُبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرُبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾^(٣).

(١) سورة الأنعام، الآية ٧٥.

(٢) سورة الروم، الآية ٣٨ - ٣٩.



٣٢٩



يقول الله سبحانه في هذه الآيات إن النموّ والزكاة تكون في الأموال التي تُعطى للفقراء وذوي القربى زكاةً لوجهه، وهذا العطاء يمنح أموال الإنسان بركةً وينميها، ويعطي الإنسان الثواب والأجر عند الله.

إذاً - وخلافاً لظاهر الأمر من أن الإنفاق والعطاء يقلل ثروة الإنسان - يؤكد الله سبحانه على أن الإنفاق باعثٌ على زيادة ثروة الإنسان، وفي المقابل فإن الربا - الذي يتصور الإنسان أنه يزيد من ثروته ويكثر أمواله - هو في الحقيقة يؤدي إلى الخسارة ويُفني ثروة الإنسان. والنتيجة هي أن نموّ الثروة وزيادتها وبركتها الحقيقية رهن بالاستفادة الصحيحة والمشروعة منها، وعدم تخطي الأحكام الشرعية والقرارات الإلهية وكسب رضا الله تبارك وتعالى.

وكذلك ورد في آيات أخرى قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۖ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ۚ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ۖ إِلَّا أَتِنَاءً وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ۚ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ۚ﴾^(١).

رغم أنهم فسروا «الوجه» الوارد في خصوص الله سبحانه بمعنى ذات الله، وأن حقيقته ليست معلومةً لنا، لكن ثمة عناية في استعمال هذا اللفظ دون سواه، والله سبحانه يريد بواسطة هذا التعبير - وفي قالب المفاهيم الكلامية - أن يقربنا إلى الفهم الحقيقي، وأن يجعلنا نعتقد بأن هناك لذات أسمى من لذات البطن وأكثر قيمةً من سائر اللذات المادية وتلك هي اللذات المرتبطة بالله عزّ وجلّ، وأن سعادتنا وكمالنا رهن بفهمها.



وفي مقام التفاهم حينما يكون للإنسان علاقة إيجابية بشخص ما، وتكون تلك العلاقة منشأً للخير، يستعمل تعبير المواجهة قائلاً: «لقد واجهْتُ [قابلت] فلاناً»، وهذا التعبير ناشئ عن أنه حينما يلتقي شخصان يُشاهد كلُّ منهما وجه الآخر، وتحدث بينهما مقابلة بالوجوه، وقبل أن يكتشف كل منهما باطن الآخر ودخيلته فإنه يتعرّف على ظاهره، وحينئذٍ فإن استعمال «مواجهة [أو مقابلة]» من باب التشبيه أو الاستعارة من أكثر التعبيرات إيصالاً للمعنى لبيان العلاقة مع الله، فنستعمله من أجل التعبير عن القُرب والمواجهة مع الله، وهذا اللفظ كسائر الألفاظ نستعمله - بعد أن نسلخه عن محتواه المادّي ومحدوديته - في التعبير عن ذات الله وصفاته، ولا ريب أنه هذه الألفاظ التي نستعملها في أفق حواراتنا لا يمكنها أن تكشف لنا تلك الحقائق الإلهية، ولكن نحن مضطرون إلى استعمال هذه الألفاظ من أجل الوصول إلى مستوى منخفض جدًّا من تلك الحقائق.

أحياناً يطلب الإنسان مواجهة شخص كي يأخذ منه المساعدة والمال، ولكنه إذا حصل على المساعدة أو المال من شخص آخر يكون قد حصل على مطلوبه، حتى لو لم ير ذلك الشخص الأول.

وثمة صداقة ومودة تصل بالمرء إلى درجة أنه إذا التقى بصديقه ذاك فيكون الهدف الأصلي من المقابلة هو اللقاء وإبراز المحبة فحسب، وأما سائر الاحتياجات التي قد يتم إشباعها عن هذا الطريق فتعدُّ هامشيةً، وهنا إذا وصلت إلى الإنسان هدية من ذلك الصديق فإنها تحظى عنده بالقيمة لأنها هدية ذلك الصديق، رغم أنه قد لا تكون الهدية ذات قيمة مادية كبيرة. تصوّروا أن عاشقاً أهدى لمعشوقه وردةً، فإن هذه الوردة بنفسها ليست ذات قيمة مادية تُذكر؛ لكن حيث إنها من



٣٣١



يد المحبوب تكون قيمتها كبيرةً للغاية، وحينما تذبل يتألم العاشق كثيرًا، ويشعر أن روحه قد ذبلت.

فالأشخاص الذين يتمتّعون بمستوى عالٍ من المعرفة يكون التفاتهم متّجهًا نحو الله أكثر من أي شيء آخر، والنعم والإمكانات المادية تكون ذات قيمة عندهم لأنها عطايا إلهية.

وفي الجنة أيضًا هناك فريق من أهلها يتمتّعون بلذات الجنة لأنها واصله إليهم من الله سبحانه. إذا ما يُثْمَل هؤلاء ويوصلهم إلى قمة اللذة إنما هو لقاء الله والتمتّع بجواره.

ورغم أن الله مجرّد عن المادّة وليس جسمًا ولا له صورة جسمانية كي تحصل معه مقابلة مادية، بيد أن اللفظ الذي يمكنه التعبير بشكل أفصح عن علاقة الإنسان مع الله ومواجهة أولياء الله مع معبودهم هو لفظ «وجه» و«مواجهة».

المواجهة مع الموجود اللامتناهي وغير المحدود بالجهات التي تحدّ الأمور الجسمانية، والذي عالم الوجود محضره ومظهره، ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثُمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾^(١).

الالتذاذ الحاصل من علاقة أولياء الله مع معبودهم التذاذ لا يمكن التعبير عنه إلا بعبارة ملاقة المعبود ومشاهدته، وأما حقيقة هذا الارتباط فأمر لا يمكن وصفه، وهذا الارتباط والمشاهدة يصل إلى حدٍ من الخلو والاستقامة بحيث لا يقوم صاحبه بعملٍ إلا للمعبود، ولا يروي ظمأه ويشفي غليله شيء سوى مشاهدة المعبود. وهذا النوع



من الارتباط لا يتسنّى لضعفاء الإيمان والكسالى والساعين وراء الراحة والعافية، وإنما يتأتى من خَلَصَ لرضا الله في جميع ميادين الجهاد والعبادة ولم يغفل عن ذكره طرفة عين، وقد وصل هؤلاء في الإخلاص لله إلى مرحلة لا يخصصون شيئاً من عملهم لغير الله حتى لأقرب المقربين إليهم، ومن هنا تعدل تكبيرة واحدة منهم عبادة الآخرين لمئات السنين. فحينما لا تعدل عبادة الجن والإنسان عبادة أمير المؤمنين عليه السلام وحينما يقول رسول الله ﷺ في حقّه: «لَضَرْبَةُ عَلِيٍّ يَوْمَ الْخُنْدَقِ أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ الثَّقَلَيْنِ»^(١)، فسبب ذلك هو أن معرفة الإمام وإخلاصه يفوقان عبادة الإنس والجن ومعرفتهم.

حُسْنُ ظَنِّ الْمُؤْمِنِ بِالْإِكْرَامِ الْإِلَهِيِّ وَمَقَامِ قُرْبِهِ

في الفقرة التي نبحت حولها يطلب الإمام السجاد عليه السلام من الله أن يحقق له ظنّه بما يؤمّله من جزيل إكرامه وجميل إنعامه سبحانه في مقام القُرب منه، وقد جاء التأكيد في الروايات والبحوث الأخلاقية على حُسْنِ الظن بالله تعالى، والنهي عن سوء الظن به واليأس من فضله وكرمه.

حُسْنُ الظن بالله يؤدّي إلى أن يعيش الإنسان حالة الرجاء به بشكل دائم وعلى كل حال، وأن يرضى بما قُدّر له من الله وبكل ما يحدث له، ويرى أن نفعه ومصلحته الواقعية إنما هي فيما قَدَره الله له. وبملاحظة أهميّة حُسْنِ الظن بالله يقول الإمام الرضا عليه السلام: «أَحْسِنِ الظَّنَّ بِاللَّهِ فَإِنَّ



٣٣٣



اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ بِي، إِنَّ خَيْرًا فَخِيرًا، وَإِنْ شَرًّا فَشَرًّا^(١).

وفي رواية أخرى عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير حُسن الظن بالله يقول: «حُسْنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ أَنْ لَا تَرْجُو إِلَّا اللَّهَ وَلَا تَخَافَ إِلَّا ذَنْبَكَ»^(٢).

أما مسألة «القرب إلى الله» فقد طُرِحت كثيراً في الأديان الإلهية ثم سرى المعنى المحرّف منها إلى الأديان الإبراهيمية إلى أن أصبح المشركون وعبداء الأوثان في عصر النبي ﷺ يؤمنون بأن الأصنام هي التي تُقَرَّب إلى الله، وكانوا يعبدونها لتكون وسيلةً وواسطةً لكي تقرّبهم إلى الله، قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾^(٣).

في الآية الشريفة «زلفى» مرادفة لـ«القرب» ومن هنا قال بعض المفسرين بأن «زلفى» مفعول مطلق لقوله «يقربونا»، وبناءً على هذا يكون تقدير «ليقرّبونا إلى الله زلفى» هو ليقربونا إلى الله قربي^(٤).

مفهوم القرب إلى الله

بناءً على ما ورد في الآية الشريفة فحتى المشركون كانوا يعتقدون أنه يجب التقرب إلى الله سبحانه، لكن حيث إنهم غفلوا عن الطريق الفطري

(١) الكليني، الكافي، الجزء ٢، الصفحة ٧٢، الحديث ٣.

(٢) المصدر نفسه، الحديث ٤.

(٣) سورة الزمر، الآية ٣.

(٤) الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان، الجزء ٨، الصفحة ٧٦١.



للقرب من الله لجؤوا - في تحريفٍ صريح - إلى الأصنام وهي أحجار صامتة لا روح فيها.

ومن الواضح أن التقرب إلى الله والقرب منه ليس من مقولة القرب المكاني والجسماني وبمعنى تقليل الفاصلة الحسية بين شيئين؛ لأن الله مجرد وليس بجسماني، وهذا القرب إنما هو قرب معنوي. وبما أن الله موجود في كل أنحاء الوجود ولا شيء بعيد عنه، يكون المقصود من التقرب إلى الله هو تقرب الإنسان تقريباً معنوياً خاصاً إلى الله يختلف عن قرب جميع الموجودات إليه سبحانه.

ولقد تحدّث العلماء والأكابر حول ماهية هذا التقرب الخاص إلى الله إلا أنّ كلام بعضهم غير سليم، ومثاله القول بأن المقصود من القرب إلى الله هو زيادة علم الإنسان، وقدرته، وكماله، وتقليل الاختلاف والمسافة بين كمال الإنسان وكمال الله، بمعنى أنه كلما زاد مستوى علم الإنسان وقدرته وكماله، قلّت المسافة التي تفصله عن الله، وكأن هناك خطين متوازيين أحدهما أقصر من الآخر وكلّما زاد طول القصير منهما فإنه يقترب في الطول من الأطول.

فمن الواضح أن هذا التفسير بعيد جداً من الصحة، وفي ثقافتنا الدينية والإسلامية لا يمتلك أي شخص شيئاً أو كمالاً بنفسه كي يُقاس بكمال الله، بل إنّ جميع الكمالات وأصل الوجود من الله تبارك وتعالى، وكل ما يملكه المرء هو من الله، ومن هذه الجهة فإن نسبة جميع الموجودات إليه سبحانه هي نسبة الصفر إلى الكمال اللانهائي، ولا يمكن لشخص في حدّ الصفر ولا يمتلك شيئاً من نفسه أن يُقاس بالذات الإلهية الأزلية التي لها الكمال اللانهائي. بالإضافة إلى أنه يلزم من تقليل المسافة والاختلاف بين شيئين هو محدوديتهما معاً.



٣٣٥



وقال البعض إن معنى التقرب إلى الله هو أن الشخص ينال منزلةً عند الله بحيث يعطيه كل ما يطلب. وهذا الفهم وإن كان أفضل من الفهم الأول وأدعى للقبول، لكن قد فهم فيه القرب إلى الله كأمر اعتباري، بينما التقرب إلى الله أمرٌ حقيقي وواقعي، ويرتبط بمقولة العلم والشهود.

توضيحه: إن الإنسان الغافل لا يُصدّق بوجود الله إلا بصعوبة، وحُجُب المعصية، والجهل، والأنانية تعيقه عن الاقتراب من الله، ومع وجود هذه الحُجُب الظلمانية يبقى بعيداً عن الله دائماً، لكن حينما يؤمن بالله تُرفع الحُجُب الظلمانية والنورانية بينه وبين الله ويشاهد الله تعالى [بعين قلبه]، فإنه يقترب منه. وعلى هذا الأساس فأحياناً تحصل حالة خاصة للإنسان نتيجةً للدعاء والمناجاة مع الله يشعر معها أنه عند الله وأنه يتكلّم معه عن قرب، ويجد الله بكل وجوده، ويشعر أنه لا توجد أية فواصل بينه وبين الله، كما قال الله سبحانه في حق المؤمن الواصل إلى مقام قربهِ: «وَأُنَاجِيهِ فِي ظُلُمِ اللَّيْلِ وَنُورِ النَّهَارِ حَتَّى يَنْقَطِعَ حَدِيثُهُ مَعَ الْمَخْلُوقِينَ وَمُجَالَسَتُهُ مَعَهُمْ»^(١).

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ٧٧، الباب ٢، الصفحة ٢٩، الحديث ٦.



المقال الثاني والعشرون نسيم الرحمة الإلهية (١)

«وَهَا أَنَا مُتَعَرِّضٌ لِنَفَحَاتِ رَوْحِكَ
وَعَطْفِكَ، وَمُنْتَجِعٌ عَيْثَ جُودِكَ وَلُطْفِكَ،
فَارًّا مِنْ سَخَطِكَ إِلَى رِضَاكَ، هَارِبًا مِنْكَ
إِلَيْكَ، رَاجٍ أَحْسَنَ مَا لَدَيْكَ، مُعَوِّلٌ عَلَى
مَوَاهِبِكَ، مُفْتَقِرٌ إِلَى رِعَايَتِكَ».



حقيقة الصفات الإلهية، وحدتها وتعددتها

إذا قصر شخص في حقٍّ وليَّ نعمته يقول في مقام الاعتذار: لقد قصرت في حقِّك ولم أشكر نعمتك، لكنك أهل العفو والمغفرة والعظمة، فاعفُ عني بعظمتك، وهذا الشخص وإن كان يعلم أنه أزعج ذلك العظيم وأغضبه، لكنه يعلم أن ذلك العظيم كما يتَّصف بالغضب يتَّصف بالرحمة والعفو أيضاً؛ ولذلك هو يعتذر لائثاً بهذا الاعتذار من غضبه إلى رضاه.

والإمام عليه السلام هنا في مقام الاعتذار من الله تعالى يقول: أنا لائثٌ برضاك من سخطك يا ربِّ. وكما هو مبحوث في علم الكلام والعقيدة



فإنه لا مجال للحالات المختلفة والتغيير والتعدّد في ذات الله، ومع أنّ للإنسان حيثيّات وحالات مختلفة فهو يمتلك عواطف متنوّعة، لكن الذات الإلهيّة بما أنها بسيطة فهي منزّهة عن الكثرة والتعدّد، ورغم أننا نعدّد لله - بحسب المفهوم - صفات متنوّعة، لكن هذه الصفات بلحاظ منشأ انتزاعها هي عين بعضها البعض وعين ذات البارئ تعالى، ولا يوجد اختلاف بين الذات والصفات.

وبملاحظة حقيقة أنّ صفات الله عين ذاته وليست زائدةً على الذات جاء قول أمير المؤمنين عليه السلام: «أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصَدِيقُ بِهِ، وَكَمَالُ التَّصَدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ، وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ الْإِخْلَاصُ لَهُ، وَكَمَالُ الْإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ، لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غَيْرُ الْمُوصُوفِ، وَشَهَادَةِ كُلِّ مُوصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ»^(١).

فالقانون العام في الصفات والموصوفات في المخلوقات هو أنّ الصفة والموصوف حقيقتان منفصلتان، وإذا كان لهما حقيقة واقعية واحدة، فلا يمكن انتزاع الصفة والموصوف من تلك الحقيقة الواقعية الواحدة، ولأن التركيب من حقيقتين - سواء كان تركيباً اتحادياً من قبيل الماهية والوجود، أو تركيباً انضمامياً من قبيل الماء المالح - لا يمكن في ذات البارئ تعالى، فالذات والصفات الإلهيّة فوق الصفات والموصوفات العادية، والصفات الإلهيّة ليست من سنخ صفات سائر الموجودات التي لها تركيب مع موصوفها وليست زائدةً على ذاته، والله سبحانه جامع لكل الكمالات وجامع للجلال والجمال، بيد أنّ حقيقة الجلال والجمال وكمالات الله ليست متعدّدة ومتنوّعةً وليس هناك أي نوع من التعدّد



والتركيب في الذات الإلهية، ونحن بسبب ألفنا بالكثرة وأنسنا بتشتت الوجودات نجعل لله سبحانه حيثيات مختلفة ومفاهيم كثيرة بعنوان أسماء الله وصفاته وننسبها إليه [وهذا من باب التحليل العقلي].

معنى الفرار من الله إلى الله

بحسب ما ندركه من التجليات الإلهية وعلاقات الله بمخلوقاته ومنها الناس، فإننا ننتزع الصفات الذاتية والفعلية المختلفة - ومنها الغضب والرضا - وتلك الصفات تكون في ذهننا متميزة بعضها عن بعض، ومن هنا نقول: صفة الرحمة غير صفة الغضب، وعلى هذا الأساس يقول الإمام عليه السلام: إلهي أنا فأرّ من سخطك وملتجئ إلى رضاك، ويقول بعد ذلك: هاربٌ منك إليك، ويصعب فهم هذه العبارة وتوجيهها، غير أنه يمكن أن يُقال في توجيه الفرار من الله إليه: إن الإنسان حينما يهرب من شخص فإنه يذهب إلى مكان لا يوجد فيه ذلك الشخص، ويلجأ إلى غيره. وحينما نخجل من مقابلة شخص ما فإننا نحاول الابتعاد عنه، أو من أجل التخلص من شرّ العدو نذهب إلى مكان لا تصل يده إلينا فيه، ولا يلحقنا فيه أذاه، أو حينما يكون شخص مغضوباً عليه من الحاكم ويريد الأمن من شره، فإنه يلجأ إلى حاكم آخر.

لكن الشخص الذي قصر مع الله ويريد الفرار من عذابه وقهره، ليس له ملجأ إلا إليه سبحانه، وأينما يذهب فالله موجود ولا يمكنه الفرار من ملك الله وسلطانه، إذًا هو مضطرٌّ إلى أن يلجأ إلى الله.

لقد نبهنا مرارًا على أن منشأ خوفنا من الله هو المعصية التي تجعلنا مستحقين للعقاب، فالحقيقة إذًا هي أننا نخاف من العقاب ونار جهنم، ولأن مثل هذه العقوبة إنما تكون بالأمر والإذن الإلهي وتتحقق



بإذنه سبحانه، والله هو خالق جهنم والعذاب فنحن نخاف منه. لكنّ المؤمن يعتقد أنه لا يمكن الفرار من العذاب الإلهي وذل المعصية، وأينما يذهب فإن مصيره إلى الله، ومن هنا فهو يهرب من العذاب والقهر الإلهي نحو الرحمة الإلهية. فهو كالطفل الذي يشاكس في البيت وحينما تريد أمّه معاقبته فإنه يهرب منها ويختبئ، لكن بعد مدّة يشعر بالجوع والعطش، فيدفعه ذلك إلى الرجوع إلى أمّه، فهو ليس له شخص يلجأ إليه يهتمّ بأمره ويعتني به سوى أمّه، وهو مضطر إلى اللجوء إليه مهما كانت الظروف.

فالعبد العاصي الذي يؤذيه الإحساس بالذنب والندم، يلجأ إلى حضن الرحمة واللفظ الإلهي، ويمدّ ناظره نحو الرحمة والكرم الإلهي اللامتناهي، ويرجو أن ينال أفضل المواهب والنعم الإلهية، وأن يحظى باهتمام ومساعدة خالقه الرحيم.

* * *

«إِلَهِي مَا بَدَأْتَ بِهِ مِنْ فَضْلِكَ فَتَمِّمَهُ،
وَمَا وَهَبْتَ لِي مِنْ كَرَمِكَ فَلَا تَسْلُبْهُ، وَمَا
سَرَرْتَهُ عَلَيَّ بِحِلْمِكَ فَلَا تَهْتِكْهُ، وَمَا
عَلِمْتَهُ مِنْ قَبِيحٍ فَعَلِي فَأَغْفِرْهُ».

نشر الرحمة وتهافل النعم وستر الله

الله سبحانه هو الفيّاض المطلق وذو الرحمة الواسعة وجميع الموجودات تتلقّى رحمته وجوده كل بحسب استيعابه، والإنسان أيضًا يتمتّع بالهبات



والنعم الإلهية، ويرفل في الكرم واللفظ الإلهي. وقبل أن يطلب العبد شيئاً من الله فإنه سبحانه يبادره بغيث فضله وكرمه، ويضع بين يديه الكثير من النعم.

في هذه الفقرة يطلب الإمام عليه السلام من الله أن يتمم له النعم التي منحها ابتداءً بدون سؤال، وأن لا يعاقبه بسلب النعم التي منحها إياه بسبب تقصيره في العبودية، وأن يستمر في ستر الأسرار والأعمال التي يفضح انكشافها الإنسان ويُدله بين الناس.

وقد اقتضى التقدير والتدبير الإلهي أن يتمتع الإنسان - في مسيره نحو التكامل وأداء وظائف العبودية - باعتبار شخصية عند الآخرين. فإذا انكسرت حرمة شخصيته، وانفضحت عيوبه، فسوف يسقط من أعين الآخرين ويذهب ماء وجهه، وقد تؤدي هذه الفضيحة والمهانة إلى ابتعاد الآخرين عنه، ويعيش وحيداً ينتظر نهاية حياته الملوثة بالعار، وحينئذ سيفقد مزاج ودافع العبودية والعمل بوظائفه، كما أن الآخرين لن يمنحوه فرصة القيام بدور بناء للقيام بمسؤولياته.

إنّ الناس كلهم - من كفّار ومؤمنين - يسعون لنيل احترام الجميع، وإن العيش بعزّة وكرامة في المجتمع والتمتع بالوجاهة بين الناس يعدّ نعمة كبيرة، والفارق يكمن في أن الكافر بما أنه يرى الدنيا ونعيمها أموراً أصيلةً وهدفه هو الوصول إلى الدنيا، فهو يسعى وراء الاستفادة من وجاهته واحترامه الاجتماعي من أجل الوصول إلى رغباته الدنيوية، أما المؤمن فهو يعتقد أن الأصالة هي للآخرة ونيل القرب الإلهي، ويستفيد من الدنيا والنعم التي فيها من أجل التكامل المعنوي والأخروي، ويعتبر التمتع بالوجاهة والاعتبار في المجتمع مما يسهّل الوصول إلى هذا الهدف. ومن هذه الجهة لا يريد المؤمن أن يفضح أمام الناس ويفقد



اعتباره فلا يعيره أحدُ اهتمامًا ويجتنب الناس التعاون معه ولا يثقون به، ولا يستمعون إلى كلامه ويبتعدون عنه، والنتيجة هي أنه سوف لن يستطيع الاستفادة من النعم المادية والمعنوية من أجل الوصول إلى أهدافه السامية.

ومن أَلطاف الله الكبيرة في حَقِّنا ونحن في غفلة عنها هي الحفاظ على ماء الوجه والكرامة وستر عيوبنا عن الآخرين. كما نقرأ في هذا الدعاء: «وَأَنْتَ الْمُعْتَمَدُ لِلذُّنُوبِ فِي عَفْوِكَ وَالنَّاشِرُ عَلَى الْخَاطِئِينَ جَنَاحَ سِتْرِكَ، وَأَنْتَ الْكَاشِفُ لِلضُّرِّ بِيَدِكَ، فَكَمْ مِنْ سَيِّئَةٍ أَخْفَاهَا حِلْمُكَ حَتَّى دَخَلَتْ وَحَسَنَةً ضَاعَفَهَا فَضْلُكَ حَتَّى عَظُمَتْ عَلَيْهَا مُجَازَاتُكَ، جَلَلَتْ أَنْ يُخَافَ مِنْكَ إِلَّا الْعَدْلُ وَأَنْ يُرْجَى مِنْكَ إِلَّا الْإِحْسَانُ وَالْفَضْلُ فَاْمُنْ عَلَيَّ بِمَا أَوْجَبَهُ فَضْلُكَ وَلَا تَخْذُلْنِي بِمَا يَحْكُمُ عَدْلُكَ. سَيِّدِي لَوْ عَلِمْتَ الْأَرْضُ بِذُنُوبِي لَسَاخَتْ بِي وَالْجِبَالُ لَهَدَّتْنِي أَوْ السَّمَاوَاتُ لاختَطَفْتَنِي أَوْ الْبِحَارُ لَأَغْرَقْتَنِي»^(١).

نعم، الحِلْمُ الإلهي يُلقِي أستاره على عيوبنا، ويمنع من فضيحتنا بين الخلق، ولو لم يستر الله علينا لافتضح أمرنا بين الخلق من أول معصية نرتكبها، فيؤدِّي بنا العار والفضيحة إلى الذلّ والانكسار والابتعاد عن الأنظار.

وبعد أن يُشير الإمام السَّجَّاد (عليه السلام) إلى لطف الله وفضله في ستر الذنوب، يطلب من الله أن يمحو قُبْح الأعمال من كتاب أعماله وأن يزيل صدأها من القلب لكي يصبح القلب نورانيًا فتشرق عليه الأنوار القدسيّة، وينتهيًا للتخليق نحو قمم الكمال والسمو.

(١) مفاتيح الجنان، الدعاء الذي يُتلى بعد زيارة الإمام الرضا (عليه السلام).



استغفار أولياء الله من التقصير قبال الساحة الإلهية

٣٤٣



يُفهم من هذه المناجاة وسائر الأدعية الواردة عن المعصومين عليهم السلام أن لكل شخص - بحسب معرفته ومرتبته الكمالية - قصور وتقصير أمام الساحة الإلهية، وهو يعترف بمرتبة من الذنب؛ ولذا يجب عليه الاستغفار منها، ومن هنا ورد الخطاب في القرآن الكريم إلى رسول الله ﷺ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝﴾.

وقد كان أئمتنا عليهم السلام دائمي الاستغفار وطلب العفو من الله، كما ورد عن الحارث بن مغيرة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً، وَيَتُوبُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ سَبْعِينَ مَرَّةً».

قال: قلت: كان يقول: أستغفر الله وأتوب إليه؟

قال: «كَانَ يَقُولُ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ سَبْعِينَ مَرَّةً، ويقول: وَأَتُوبُ إِلَى اللَّهِ، وَأَتُوبُ إِلَى اللَّهِ سَبْعِينَ مَرَّةً»^(١).

واعتمادنا القائم على أساس الأدلة القطعية الواضحة هو أن أئمتنا المعصومين لا يرتكبون أي معصية، وساحتهم نقيّة من العصيان والتقصير في عبادتهم لله سبحانه، حتّى أن بعض العلماء ذهب إلى أنهم لا يصدر عنهم حتّى ترك الأولى.

(١) الكليني، الكافي، الجزء ٢، الصفحة ٤٣٨، الحديث ٤.



وما قام عليه الإجماع هو أنهم لا يرتكبون ما نصلح عليه المعصية، يعني ما حرّمته الشريعة، لكن هذا الاعتقاد لا يتنافى مع إمكان صدور التقصير، وذلك بحسب معرفتهم ومرتبة كمالهم، وهم يعدّون ذلك ذنباً.

وقد تحدّثنا فيما سبق عن هذا الموضوع وأشرنا إلى أن الحياة في عالم الطبيعة لها لوازم لا يستطيع أحد الفرار منها، فلازم الحياة الحيوانية تناول الطعام والشراب وسائر الأفعال المادّية التي يجب على الإنسان أن يليّها على الأقل بمقدار الضرورة، وأما أولياء الله فإنهم يعدّون الانشغال بشؤون الحياة ولوازمها والالتفات إلى غير الله - وهو ما لا مفرّ منه - معصيةً وتقصيراً في حقّ الله، ويشعرون بالخجل والأسى بسببه وهم لذلك يبادرون بالاعتذار والاستغفار.

كلام الإمام السجّاد عليه السلام في التوجّه نحو الرحمة الإلهية اللامتناهية

إنّ شعور كل شخص بالمعصية والتقصير في حقّ المعبود يتناسب مع معرفته ومرتبته في الكمال، وهو ما يُثير في الإنسان الحياء والخجل والحيرة وحالة الانقباض، ونتيجةً لهذه الحالة يلجأ المرء إلى الله سبحانه خائفاً مضطرباً متلعثماً طالباً منه العفو عنه ومسامحته عن تقصيره، ولكنه حينما يلاحظ الأمور بأفق أعلى من المعاصي والعقوبات التي خصّصها الله للعصاة، سوف يرى الرحمة والفضل الإلهي الذي يدعو دائماً العصاة إلى اللجوء إلى الله ويمنحهم الأمان، وسوف تغمره حالة من انبساط خاطر، والسرور والفرح الناشئ عن الأمل بالرحمة الإلهية اللامتناهية، ويؤدّي وصوله إلى وصال المحبوب إلى أن تُحلّ عن لسانه عقدة الخوف، ويدفعه كل ذلك إلى الإطناب في الحديث في حضور المحبوب.



٣٤٥



وقد تضافر في تعاليمنا الدينية الحديث عن حالة الانبساط والحوار الذي يسوده الحُب بين أولياء الله ومعبودهم، ومنه ما ورد في القرآن الكريم، ومن نماذج ذلك الحوار الذي جرى بين الله سبحانه وكليمه موسى عليه السلام، حيث خاطب الله نبيه موسى عليه السلام قائلاً: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينِكَ يَمُوسَى﴾ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَنَازِلُ أُخْرَى (١٨).

فمن الواضح أن الله سبحانه يعلم ما يوجد في يد موسى عليه السلام، وفوائد عصاه التي بينها لم تكن خافية عن الله، وهذه الحوارات كانت في مقام الوحي والوجد وتجري في أجواء من المحبة والأنس بين الحبيب وحبيبه.

وفي تلك الحالة يجد العبد في نفسه انبساط الخاطر بعيداً عن الخشية والخوف؛ إذ هو في كنف معبوده ويحظى باهتمامه ورعايته الخاصة، وحينئذ يتكلم جذلاً يملؤه الفرح والسرور.

وكذلك يريد الله أن يعرّف موسى عليه السلام بفائدة أخرى لتلك العصا لم يكن موسى عليه السلام على علم بها، وهي أن تلك العصا ستكون معجزة إلهية كبيرة تُبطل سحر السحرة، وهذه المعجزة تمثل طليعة الدعوة إلى التوحيد وهدم صروح الفراعنة والشرك وإقرار دين التوحيد.

وفي هذه المناجاة بعد أن يلتفت الإمام السجاد عليه السلام إلى تقصيره في أمر عبودية الله والخوف من العذاب الإلهي، يُلقي نظرة إلى الرحمة الإلهية اللامتناهية، ويواصل مناجاته بارتياح وانبساط خاطر ناشئ عن إدراك اللطف والمحبة والرعاية الإلهية فيقول:



«إِلَهِی اسْتَشْفَعْتُ بِكَ إِلَیْكَ وَاسْتَجَرْتُ
بِكَ مِنْكَ، أَتَيْتُكَ طَامِعًا فِي إِحْسَانِكَ،
رَاغِبًا فِي امْتِنَانِكَ، مُسْتَسْقِيًا وَابِلَ طَوْلِكَ،
مُسْتَمْطِرًا غَمَامَ فَضْلِكَ، طَالِبًا مَرْضَاتِكَ،
قَاصِدًا جَنَابَكَ، وَارِدًا شَرِيعَةَ رِفْدِكَ،
مُلْتَمِسًا سِنِّي الْخَيْرَاتِ مِنْ عِنْدِكَ، وَافِدًا
إِلَى حَضْرَةِ جَمَالِكَ، مُرِيدًا وَجْهَكَ، طَارِقًا
بَابَكَ، مُسْتَكِينًا لِعَظَمَتِكَ وَجَلَالِكَ، فَافْعَلْ
بِي مَا أَنْتَ أَهْلُهُ مِنَ الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ، وَلَا
تَفْعَلْ بِي مَا أَنَا أَهْلُهُ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّقْمَةِ
بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ».

مفهوم الشفاعة العرفي

في بداية الفقرة المتقدمة يجعل الإمام عليه السلام الله شفيعاً له.

و«الشفاعة» و«الشفيع» بمعنى الرديف، ويُستفاد منه لتقدم الأمور،
وتدارك الخطأ والزلل.

وحيثما يتأمل الإنسان في أن القدرة التي لديه والإمكانات المتوفرة
عنده لا تكفي في تحقق رغباته وآماله، فسوف يسعى للاستعانة بشخص
آخر يكون عوناً له في الوصول إلى هدفه بما يقدمه له من الإمكانات
اللازمة لتحقيق أهدافه بإرادته.

وفي الأمور الدنيوية اليومية حينما لا يمتلك شخص منزلاً ومكانةً
كافيةً عند الشخص الذي يريد منه حاجةً مثلاً، فإنه يجعل شخصاً آخر -



٣٤٧



يملك الوجهة والاعتبار عند المشفع عنده - شفيعاً له، لكي يصل إلى مطلوبه بواسطة شفاعته وتوصيته.

أو الشخص الذي ارتكب جريمةً أو جُنْحَةً فإنه يرى نفسه غير لائق للعفو ويجب أن يُعاقب بما يُناسب جريمته، فيتوسّل بشخص آخر ليشفع له ويكون واسطَةً له كي يُعفى عنه من العقوبة.

وفي هذه الموارد يُحكّم الشفيع إرادته على إرادة من لم يستجب لطلب المشفوع له، أو من يريد معاقبة المشفوع له، ونتيجة هذه الشفاعة هي وصول المشفوع له إلى ما يبتغيه.

وفي بعض المحاكم العرفية الملوّثة بالتوسّطات والفساد، فبعض الحالات إذا أراد القاضي أن يحكم فيها بالقانون يجب عليه - مثلاً - أن يحكم على المجرم بعقوبة السجن أو غيرها من العقوبات، لكن نتيجةً للشفاعة ووساطة الشخص الذي يملك النفوذ والمكانة يُحكم على المتهم بالبراءة.

والحقيقة هي أن إرادة الشفيع غلبت إرادة القاضي، وقد سلّم القاضي لإرادة الشفيع والواسطة، إما لخوفه منه، أو رجاءً منه لأنه يتوقّع أن يحتاجه في يوم ما لقضاء حاجةٍ له.

وهذا النوع من الشفاعة الناشئ عن المعاملة أو الصداقة أو المجاملة هي التي كان يقصدها المشركون، ونتيجةً لتصوّرهم الفاسد والخطي كانوا يعتقدون أن الله لديه بنات يلبي طلباتهن نتيجةً للمحبة والمجاملة، ومن هنا فإنهم كانوا حين ارتكاب ذنب عقوبته عذاب جهنّم يلجؤون إلى الأصنام التي هي تماثيل الملائكة - التي هي بنات الله بزعمهم - ويتوسّلون إليها خاضعين لكي ينالوا اهتمام بنات الله فيشفعن



لهم عند الله، فيتنازل الله عن عقوبتهم من أجل إدخال السرور عليهن أو حتى لا يؤذيهن.

وقد تحدّث القرآن الكريم عن هذا الموضوع قائلاً: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(١).

الشفاعة في الإسلام

الشفاعة المطروحة في الأديان التوحيدية، وبخاصة في الإسلام^(٢)، ليست بمعنى أن شخصاً يُحَكِّم إرادته على إرادة الله سبحانه، وإنما حقيقة الشفاعة هي أن الله سبحانه ولشدة حبه ورأفته بعباده، جعل بعض الأشخاص المقربين منه والأعزاء عليه واسطةً يتوسَّل بها الذين غرقوا في المعاصي، ولسوء سلوكهم وقبحه إما أنهم لا يمتلكون مؤهلات الاتصال بالله أو أنهم يدخلون من التوسَّل إلى الله مباشرةً من أجل تلبية حوائجهم ونيل العفو الإلهي، وبهذه الشفاعة يمكن أن تُغفر بعض المعاصي التي لم تُغفر حتَّى بالتوبة، ولم يكن العاصي مستحقاً للعفو عنها.

وتعبير آخر: إن الشفاعة طريق ثانوي جعله الله للعصاة حينما يتوسَّلون بشفعاء الله فإنهم ينالون العفو بشكل أسرع فتشملهم رعاية

(١) سورة يونس، الآية ١٨.

(٢) وحتى الوهابية قبلوا الشفاعة استناداً إلى الحديث الوارد عن رسول الله ﷺ: «أَدَّخَرْتُ شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي» [محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ٨، الباب ٢١، الصفحة ٣٠]، ولكنهم يرون اختصاص الشفاعة بالنبي ﷺ في الآخرة، ويعتقدون أن شفاعة غيره، ومنهم الأئمة المعصومين (عليهم السلام) في الدنيا بدعة.



الله، والشفاعة مجعولة من قبل الله، وكذلك هو الذي يحدّد الشفعاء، وهو أيضاً الذي وضع قانون إطار الشفاعة.

ولتقريب الأمر إلى الذهن نقول: أحياناً يضع الأب قوانيناً لأولاده ويحدّد عقوبةً لمن يتجاوزها. ووفقاً للقانون الذي وضعه فإن كل من يتعدّى القانون من أبنائه سيُعاقب، لكن الأب - باعتباره مدير البيت وبحسب القانون غير المدوّن - يريد من الأم أن تتوسّط عنده لكي يعفو عن الابن المخالف للقانون وأن تطلب له العفو، ليعفو عن ذلك الابن إكراماً لوساطة الأم وشفاعتها، فليست إرادة الأم حاكمةً على إرادة الأب، بل وفقاً للقانون الذي أقرّه الأب نفسه فإن الابن يُعفى عنه بواسطة شفاعة الأم.

إذاً فهذه الشفاعة تختلف حقيقتها عن الشفاعة عند الكفار والمشرّكين، وليس الأمر أن هناك من يفرض إرادته على إرادة الله، وأن الله يستجيب له نتيجةً للعلاقة بالشفيع أو إنه يرجّح إرادته على إرادة نفسه مجاملةً له، فليس هناك إرادة نافذة في العالم غير إرادة الله، وما لم يأذن الله للأنبياء، والملائكة، والشهداء، وأوليائه، فليس لهم الحق في الكلام، فما بالكم في أن يشفعوا دون إذنه.

وعليه فسواء قلنا إن الشفاعة تجري في الدنيا والآخرة، أم خصّصناها بالآخرة فقط، فإن جميع المسلمين مُجمعون على أن الشفاعة تتمّ عن طريق مجرى الإرادة الإلهية، وأن الله هو مالك الوجود والحاكم فيه، وسيُتضح هذا المعنى للجميع خصوصاً في الآخرة التي لا توجد فيها مالكية ظاهرية لغير الله كما كان يبدو في الدنيا، وسيدرك الكل أن الحاكم والمالك الحقيقي للوجود هو الله، ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾^(١).

(١) سورة غافر، الآية ١٦.



وفي تلك الساحة التي تكون السلطنة والحاكمية المطلقة لله، لا يحق لأي شخص أن يتكلم دون إذنه: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (٣٨) ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴿٣٩﴾.

في عرصة الآخرة حيث تكون القدرة والسلطنة لله، ولا يجري هناك سوى حكم الله، ولا يحكم سوى إرادة الله، لا يحق لأي شخص أن يشفع دون إذنه تعالى، وذلك في حق الأشخاص الذين يرضى الله أن يشفع لهم فحسب، يقول سبحانه في هذا الأمر: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (٤٠).

وكذلك يقول تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ (٤١).

وحينما نتوسل بأولياء الله وخاصةً برسول الله ﷺ والأئمة الأطهار (عليهم السلام) ونجعلهم شفعاءنا، فإننا في الواقع نطلب الشفاعة من الله؛ لأن الله هو الذي جعلهم وسيلة لنيل رحمته، ولو لم يكن لهؤلاء مقام الوساطة ولم يجعلهم الله شفعاء، لم يكن لهم حق الشفاعة، ولم يحق لأحد أن يستشفع بهم، وحتى لو شفّعوا لأحدٍ فلن تُقبل شفاعتهم فيه، وهل يستطيع شخص أن يبرز قوته أمام جبروت الله أو أن يفرض إرادته عليه سبحانه وتعالى؟! الله سبحانه وتعالى رحيم بعباده رحمة لا حد لها؛ ولذلك جعل عباده المقربين شفعاء وواسطة لكي يذهب العصاة إليهم ويتوسلون بهم، وينالون عفو الله ومغفرته من خلال هذا الطريق، وإنما تتم شفاعتهم ووساطتهم بإذن الله وتحت إرادته.

(١) سورة النبأ، الآيات ٣٨-٣٩.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٥٥.

(٣) سورة الأنبياء، الآية ٢٨.



٣٥١



الرحمة الإلهية تسبق الغضب الإلهي

من أسماء الله «أشد المعاقبين» وهذه الصفة الإلهية تقتضي أن يتبلي العصاة بالعقوبة الإلهية وأن يحترقوا بنار جهنم؛ لأنهم عصوا الله المتعالٍ الحاكم المطلق والمالك بلا منازع، وارتكبوا المعاصي بالأعضاء التي منحهم الله إياها، كالعين والأذن واللسان وسائر الأعضاء، وعقوبة هذا العصيان والتمرد هو نار جهنم والعذاب الإلهي، لكن الله أيضاً «أرحم الراحمين»، ورحمته سبقت غضبه، وإذا ندم شخص على ارتكابه الذنوب، وسعى لتدارك تقصيره، فإن رحمة الله سوف تشمله، كما نقرأ في دعاء الجوشن الكبير: «يَا مَنْ وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ رَحْمَتُهُ، يَا مَنْ سَبَقَتْ رَحْمَتُهُ غَضَبَهُ».

ومن الطبيعي أن سبق رحمة الله لغضبه ليس بمعنى أنها كذلك في جميع الموارد وأن الرحمة الإلهية تسبق الغضب الإلهي دائماً ومطلقاً؛ لأنه في هذه الحالة سوف لن يغضب الله على أفسد الخلق وأحقر الناس كالشمر، وما كان حينها ليخلق جهنم، بينما نحن نعلم أنه كما أن هناك جنة، هناك جهنم أيضاً، والله يصيب الكفار والعصاة ويشملهم غضبه، وقد أقسم الله أن يدخل هؤلاء جهنم حيث قال: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾^(١).

فسبق الرحمة الإلهية للغضب الإلهي من جهة أن هدف الخلقة هو نشر الرحمة، وهذه الرحمة في المجال التكويني تتحقق من خلال النمو والتكامل الذي منحه الله للموجودات، وفي المجال التشريعي ودائرة الاختيار تتحقق من خلال اختيار الإنسان لطريق الحق المؤدي إلى السعادة اختياراً حراً بإرادته. وفيما يرتبط بالسلوك الاختياري لدى

(١) سورة السجدة، الآية ١٣، وورد في دعاء كميل عن أمير المؤمنين (عليه السلام) مخاطباً الله تعالى: «أَفْسَمْتُ أَنْ تَمْلَأَهَا مِنَ الْكَافِرِينَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ وَأَنْ تُخَلِّدَ فِيهَا الْمُعَانِدِينَ».

الإنسان والملائكة، فالقصد الأول لله هو نشر الرحمة التي تتحقق عن طريق إطاعة الأوامر الإلهية وأتباعها، لكن بما أن الإنسان موجود مختار تتوفّر فيه الدوافع الإيجابية والسلبية، وبسبب هذه الدوافع ووجود الجاذبية في كلا الأمرين، المعصية والعمل الصالح، يجد الإنسان دائماً نفسه أمام طريقتين: طريق السعادة وطريق الشقاء، طريق الجنة وطريق جهنّم، فإذا غَضَّ الطرف عن جاذبية الذنب وعصيان الله، واختار - رغم الدوافع السلبية والميول النفسانية - طريق الصواب وبادر إلى القيام بالعمل الصالح، فإنه يجعل نفسه لائقاً ومستحقاً للرحمة والفيض الإلهي، وينال الكمالات والسعادة. بيد أنه إذا لم يُطع أوامر الله وجعلها وراء ظهره، وعمل خلافاً للفطرة والعقل، فسوف يُحرَم من الوصول إلى الكمال والسعادة، وسوف يبتلي بالنقص والعار، ويشمله العذاب والغضب الإلهي، وهو القصد الثانوي الذي أَراده الله لعباده.

إذاً فالقصد الأولي لله هو وصول الإنسان إلى الكمال وشموله بالرحمة الإلهية الواسعة، لكن بما أن هذا الكمال إنما يتحقّق باختيار الإنسان، نجد الإنسان يقف على مفترق طريقي الكمال والنقص، السعادة والشقاء، وفي الحقيقة فإن الكمال الإنساني لا يتحقّق بدون خلق جهنّم والشیطان، وما لم يقف الإنسان على مفترق طريقي الجنة و جهنّم، لن يحصل على توفيق إدراك الرحمة الإلهية والوصول إلى الكمال، وهو ما عجز الملائكة عن إدراكه.



المقال الثالث والعشرون نسيم الرحمة الإلهية (٢)

انقباض القلب وانبساطه



كما تقدّم في البحوث السابقة فإن لحن كلام الإمام السجاد عليه السلام في بداية مناجاة الراغبين يتناسب مع حال الشخص الملتفت إلى العوامل التي تُثير الغضب الإلهي وتؤدّي إليه، ولكنه يتجه فجأةً إلى التوسّل بصفات الرحمة الإلهية ليمنح حالاته النفسية توازنًا، ويوجد حالةً من التعادل بين الخوف من العذاب الإلهي، والأمل بالرحمة الإلهية والعفو عن الذنوب.

وبعد هذه المرحلة ونتيجة الالتفات إلى الرحمة الإلهية اللامتناهية، يجد أمامه أفقًا واضحًا ويشاهد الأنوار العظيمة المدهشة للتجليات الإلهية التي تملأ جميع جَنَبَات الوجود، وينسى نفسه، ويصبح القرب الإلهي والارتواء من شراب وصال المعبود أسمى إحساس لديه وأقوى رجاء عنده، لكن فجأةً يُدرك أن أمامه طريقًا طويلًا للوصول إلى ذلك الهدف، وعليه الآن أن يقَدِّم طلباته بما يتناسب مع حاله، وبالتدرّج يبدأ بطرح طلبات وآمال أكبر وأكبر، ومن هنا فهو يمدّ يده نحو الساحة الإلهية قائلاً: إلهي أنا قد عَرَضْتُ نفسي لنسيم رحمتك وأنتظرُ أن تهب



نسائم رحمتك على روعي لتطهر قلبي من التلوث والمعاصي ليصبح لائقاً
لتلقّي رحمتك المتزايدة، إلهي أنا أستجير بك من المعاصي ومن كل ما
يثير غضبك ويؤدّي إلى عذابك؛ لأنّي لا أملك ملجأً سواك، وأينما ذهبْتُ
وإلى أي مكان التجأت لا أجد السكينة والطمأنينة، وأخيراً لا طريق أمامي
سوى أن ألجأ إلى رحمتك اللامتناهية.

إنّ العبد المذنب الذي يجد نفسه مستحقاً لعذاب الله، رغم أنه
يعلم أن لا ملجأً له سوى جوار الرحمة الإلهية، ويعلم أنه أينما ذهب فإن
مصيره إلى الله، إلا أن الخجل والحياء يمنعه من العودة إلى الله، وما
لم يعد إلى رحاب الله فإن حالة الانقباض ستسيطر على قلبه، لكن بعد
أن يعود إلى الله ويطمئن في كنف الرحمة والعناية الإلهية، سوف تتبدّل
حالة الانقباض التي تسيطر عليه إلى انبساط وراحة.

ومن أجل تقريب الأمر إلى الذهن نذكر تشبيهاً مجازياً، وهو حال
الطفل الذي يشاكس في البيت ويرتكب بعض الحماقات الصبانية،
وحينما تريد أمّه معاقبته يهرب منها خارج البيت، غير أنه لا ملجأً له سوى
أحضان أمّه، وأينما ذهب فهو مضطر إلى العودة إلى بيته وأمّه، وبعد
مدّة حينما يقرصه الجوع والعطش، والأهم من ذلك حينما يشعر بالحاجة
إلى الحنان والعطف، فإنه يفكر في نفسه متسائلاً: من غير أمّه يعتني به
ويقدم له الطعام ويغمره بالعطف والحنان ويحتضنه بمحبّة وعطف؟

وحينئذ يرجع إلى أمّه مطأطئ الرأس، مستشعراً الخجل والحياء،
معتذراً نادماً على فعله القبيح الذي صدر عنه، ويلقي بنفسه في حضن
أمّه، وحينما تمسح أمّه بيدها على رأسه وتغمره بعطفها وحنانها تذهب
عن الطفل حالة الانقباض وتتبدّل إلى حالة من الانبساط والانشراح، وتبعاً
لهذه الحالة يفتح لسانه ويلهج بأحلى الكلمات في أحضان أمّه.



٣٥٥



ومن الواضح أنه لا يمكن مقارنة محبة الأم التي تشمل طفلها الخاطئ فتضمه إلى صدرها بحنان، بمحبة الله اللامتناهية، وإذا جمعنا عطف جميع الأمهات وحبهن منذ حواء إلى يوم القيامة لوجدنا أنها لا تُعدُّ شيئاً مقابل المحبة الإلهية؛ لأنَّ محبة الله لا يحدها حدٌ، ومحبة الآخرين مهما كانت عظيمةً فإنها محدودة متناهية.

إذاً، فمهما كان ذنبنا عظيماً، فإنه يبقى محدوداً في مقابل محبة الله وعطفه اللامحدود، ومحبة الأم التي هي أنقى وأسمى أنواع المحبة الإنسانية ما هي إلا تجلٍّ من تجليات المحبة والرحمة الإلهية اللامتناهية، تلك الرحمة التي تشمل جميع عباد الله، حتى العصاة منهم، ويستطيع هؤلاء بالتوبة والندم على ما بدر منهم أن ينتفعوا من هذه الرحمة الإلهية. قال الإمام الباقر (عليه السلام): «أَلَا إِنَّ اللَّهَ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ مِنْ رَجُلٍ ضَلَّتْ رَاحِلَتُهُ فِي أَرْضٍ قَفَرٍ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ لَا يَذَرِي مَا يَصْنَعُ وَلَا أَيْنَ يَتَوَجَّهُ حَتَّى وَضَعَ رَأْسَهُ لِيَنَامَ فَأَتَاهُ آتٍ فَقَالَ لَهُ: هَلْ لَكَ فِي رَاحِلَتِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: هُوَ ذَهَبٌ فَأَقْبَضَهَا، فَقَامَ إِلَيْهَا فَقَبَضَهَا، فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ (عليه السلام): وَاللَّهِ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ حِينَ وَجَدَ رَاحِلَتَهُ»^(١).

كل شخص يفرُّ من عذاب الله فهو مضطر إلى أن يلتجئ إلى الله أيضاً، ومن هنا يقول (عليه السلام): إلهي لقد جعلتك شافعياً لي، لكي ترفع عني الغضب والعذاب، وأنا أستجير من عذابك بك لأنني لا أجد مُجيراً ولا ملجأً غيرك.

إن اللطف والكرم الإلهي اللامتناهي يقتضي أن لا يردَّ من يلجأ إليه خائباً، والله لا يمنع كرمه ولطفه عمَّن استجار به، بل إنه سبحانه أمر

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، الجزء ٦، الباب ٢٠، الصفحتان ٣٨ - ٣٩، الحديث ٦٧.



نبيه ﷺ إذا استجار أحد من المشركين به بأن يجيره ويعطف عليه، فهل يُعقل أن لا يُجير هو عبده الخاطئ الذي تاب عن خطأ واستجار به، ويمنع عنه لطفه ورحمته، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

طمع المؤمن بالإحسان والنعم الإلهية

يا إلهي ليس لي ملجأ سواك، ولا مأوى أمامي أتجه إليه سوى ساحتك، ولا أحد إلا إياك يستطيع أن يلبي متطلباتي واحتياجاتي، وقد قصدتك طامعاً في كرمك وإحسانك.

«أَتَيْتُكَ طَامِعًا فِي إِحْسَانِكَ، رَاغِبًا فِي امْتِنَانِكَ».

بعض المصطلحات المشتركة بين اللغة العربية والفارسية تُستعمل في اللغة الفارسية بمعنى يختلف عن المعنى الذي تُستعمل فيه في اللغة العربية، فكلمة «الغرور» مثلاً لها عدّة معاني من قبيل «الخداع» و«التكبر»، وفي اللغة العربية غالباً ما تستعمل في «الخداع»، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى حينما يصف الدنيا بأنها وسيلة للهو والغفلة عن السعادة الحقيقية إذ يقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾^(٢). وأما في اللغة الفارسية فإن «الغرور» يُستعمل بمعنى نوع من «التكبر».

(١) سورة التوبة، الآية ٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٥٨.



٣٥٧



وكذلك «الامتنان» مشتق من «المنة» بمعنى «النعمة»، وتُستعمل هاتان الكلمتان وسائر الكلمات المشتركة معهما في الجذر في اللغة العربية غالبًا بمعنى النعمة والجود، وقلما تُستعمل بمعنى «المنة» و«الإحسان»، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَبُزَّيْجِهِمْ وَيَعْلَمُ لَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(١).

وخلافًا لما تصوّره البعض من أن معنى «من الله» في الآية الشريفة بمعنى «الفخر بالإحسان واستكثاره» من الله، فإن معنى هذه الجملة هو إنعام الله على المؤمنين، وهو سبحانه يُخبر عن أكبر نعمة أنعمها على المؤمنين ألا وهي بعثة خاتم الأنبياء ﷺ.

نعم جاء في بعض الموارد استعمال «من» بمعنى الفخر بالإحسان واستكثاره، من قبيل قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾^(٢).

لكن «الامتنان» و«المنة» وسائر مشتقاتها تأتي في اللغة الفارسية بمعنى «استكثار الإحسان» والفخر به.

* * *

(١) سورة آل عمران، الآية ١٦٤.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٦٤.



«مُسْتَسْقِيًا وَابِلَ طَوْلِكَ مُسْتَمْطِرًا غَمَامَ فَضْلِكَ».

نجد في هاتين العبارتين نوعاً من التكرار، إذ تدلّان على المعنى نفسه، وهذا التكرار واستعمال الألفاظ المترادفة والمشاركة في المعنى والمنسجمة مع أصول البلاغة إنما يدل على الانبساط الروحي لدى الإمام عليه السلام في مناجاته مع الله، وهي مناجاة مليئة بالأنس بالمعبود، ويبيّن فيها طلباته بتعابير وألفاظ متنوعة لكي يطول حوارهِ مع المعبود، وينال أكبر فترة من لذة الأنس بحواره.

وهو عليه السلام يبيّن حاجته الشديدة لإحسان الله وألطافه، وكما أن الأرض العطشى بحاجة إلى المطر الغزير الذي يمنحها الحياة مرّة أخرى، فإنه عليه السلام أيضاً بحاجة إلى النعم الإلهية وطمأن للنعم الإلهية اللامتناهية، ويطلب من الله أن يواصل عليه مطر رحمته وألطافه بما يمنح روحه وجسده الحياة والحيوية.

وكلمة «الوابل» بمعنى المطر شديد القطر ضخمة، وفي مقابله «الطل» وهو المطر الخفيف، أو رذاذ المطر، وقد وردت هاتين الكلمتين في القرآن، ومنه ما ورد في الآية (٢٦٥) من سورة البقرة حيث يبيّن الله فيها آثار الصدقة والإنفاق في سبيله قائلاً: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَثَارَتْ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.



«طَالِبًا مَرْضَاتِكَ، قَاصِدًا جَنَابَكَ، وَارِدًا
شَرِيعَةَ رِفْدِكَ».

طلبات الواصلين إلى ساحة الربوبية

«الجناب» لقب احترام وتشريف، وكذلك هو بمعنى حضرة وناحية وفناء وكنف، وبعد أن انتقلت هذه الكلمة إلى اللغة الفارسية صارت تُستعمل في معنى الاحترام والتكريم، لكنها في اللغة العربية أكثر ما تُستعمل بمعنى الناحية والحضرة، فحينما يدخل الناس على الشخصيات الكبيرة يقولون دخلنا على جناب فلان، ولا يقولون دخلنا على فلان.

وفي هذه المناجاة يُراعي الإمام عليه السلام الأدب والاحترام مع الله ولا يقول يا إلهي جئتُ قاصدك، وإنما يقول قاصدًا جنابك.

ومن معاني «الشريعة» الجدول المتفرع من النهر الكبير الذي ترتوي منه الحقائق والبساتين والسهول، وكأنه عليه السلام يشبه عطايا الله بالنهر العظيم الذي تتشعب منه فروع بحسب ما يناسب العباد، ومنها نهر وجدول خاص به عليه السلام تصل من خلاله المنح والمواهب الإلهية.

* * *

«مُلْتَمِسًا سَنِيَّ الْخَيْرَاتِ مِنْ عِنْدِكَ،
وَافِدًا إِلَى حَضْرَةِ جَمَالِكَ، مُرِيدًا وَجْهَكَ،
طَارِقًا بَابَكَ، مُسْتَكِينًا لِعَظَمَتِكَ وَجَلَالِكَ».



كما تقدّم ممّا أن الإمام عليه السلام بعد الالتفات إلى عوامل العذاب والخوف من الغضب الإلهي، يتّجه نحو الرحمة والكرم الإلهي، وهذا التوجّه يمنحه حالة الانبساط فيبدأ نتيجةً لذلك ببيان حبّه لله بكلمات مناسبة ومن ذلك قوله «ملتئمًا سني الخيرات»، أي أسمى وأعلى الخيرات، ثم يقول: لقد جنّْتُ وافدًا إلى حضرة جمالك وأنا في كل لحظة أمتلئُ من فيض حضورك ونور جمالك بما يُغني روعي ويمنحني الكمال والسموّ.

وإضافة «وجه» إلى الله في التعبير القرآني والثقافة الإسلامية أمرٌ شائع، وحينما يقوم شخص بعمل خالص لله وليس له فيه أي طمع بالجزاء، يقال له: «يريد وجه الله»، وهو عليه السلام يعلن بعبارة «مريدًا وجهك» أن كل أعماله وعباداته من أجلك، ومطلبي الأساسي هو الوصال بذاتك المنفردة بالكمال.

ثم إنه عليه السلام - وبما يتناسب مع أدب العبودية - يلتفت إلى وضع نفسه مرّةً أخرى وإلى جانب تلك الأمنيات الكبيرة والطلبات العالية فيقول: «طارقًا بابك»، أي مستجدّيًا حضرتك، ولا أنسى أبدًا أنني أنا المسكين الفقير وأنت العظيم ذو الكبرياء، وأني بحاجة ماسة إلى عظمتك وجلالك.

وهذه الفقرة من المناجاة تُجسّد حالة الشخص الذي انبسط قلبه في ظل عناية الله ولطفه، وبدأ يتحدّث مع الله بلسان عذب معسول، وأوصل خطابه إلى القمة وقدّم أسمى مطالبه وأمنياته، لكنّه ينظر إلى ذاته ويعلم أنه لا يملك شيئًا بذاته، وكل ما لديه من مالك الوجود، فيقول: يا إلهي أنا ذليل في حضرتك وأستحقّ العقوبة، واللوم والعتاب، وأنت أهل العفو والمغفرة والرحمة والعطف، إلهي عاملني بما يليق بك من رحمة وكرم وجود، ولا تعاملني بعقوبتك التي أستحقّها.